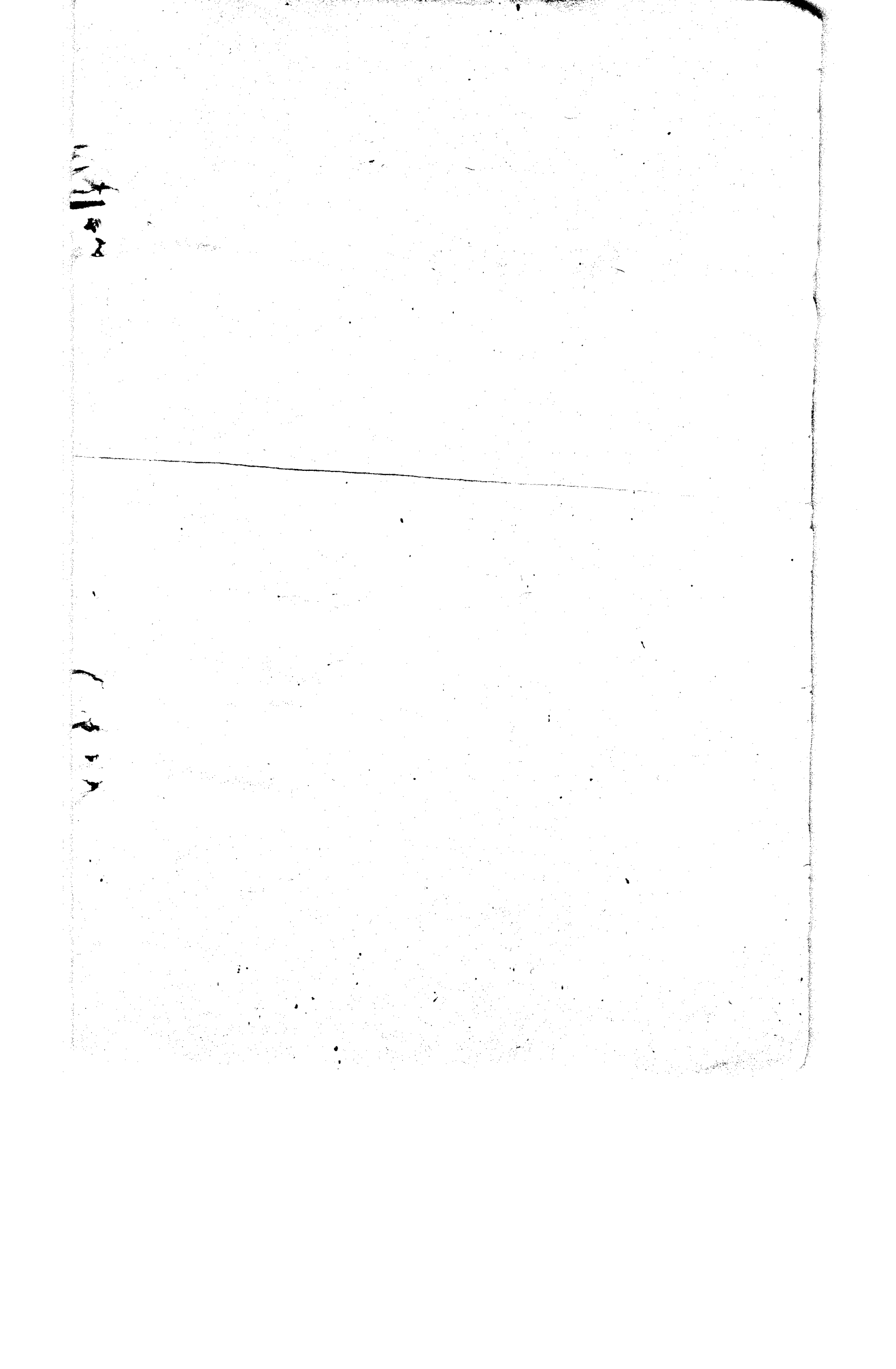
مختارات من
الدراسات الإسلامية

إعداد
« أ.د/ محمود علي السمان »
أستاذ متفرغ وعميد كلية اللغة العربية السابق بالبحيرة

١٩٩٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد ،،

فهذه مختارات فى الدين والخلق القويم ، يرجى أن يفيد منها من يدرسها ، وأن تكون سبيلا لنا إلى حسن علاقاتنا بالناس، وتوضيح معالم الطريق إلى الله.

وهى مختارات فى تفسير آيات من كتاب الله، وشرح أحاديث لرسول الله، وعرض قضايا إسلامية، وتعريف بفرق ومذاهب دينية، وبيان لحقوق الإنسان، وضرب لأمثلة فى فضائل تحلى بها الأسلاف ، وحديث عن المعلم وأصول التعليم وأثر العلم فى الحياة، ثم رأى فى الحياة والناس فى مقالين لأديبين كبيرين .

هذا وبالله التوفيق ، وعلى الله قصد السبيل ،،،

محمود على السمان

فضائـــل وأخـلاق(١)

سورة الحجرات

شـرح الســورة :

" بسم الله الرحمن الرحيم " :

(١) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

المفردات :

(لاتقدموا) أى لاتقدموا أمرا فحذف المفعول به ليذهب الوهم الى كل مايمكن أو لان المقصود هو التقديم ذاته . أو المراد من الفعل لاتتقدموا فيكون الفعل لازما لايحتاج الى مفعول به ظاهر أو مقدر . (بين يدى الله ورسوله) فيه تشبيه لحالة من يتعجل فى الاقدام على قطع الحكم فى أمر من أمور الدين بغير اذن من الله ورسوله بحالة من يتقدم امام متبوعه وسيده اذا سارا فى طريق فان ذلك يكون فى العادة من الامور المستهجنة . والمعنـــى : لاتقطعوا امرا قبل ان يحكم به الله ورسوله . واذا كان المــراد لاتقدموا أو لاتتقدموا بين يدى رسول الله نذكر لفظ الجـلالة

وهو " الله " مع " رسوله " فى الآية تعظيم للرسول وأشعار بانه من الله بمكان عظيم يوجب اجلاله .

(واتقوا الله) فى مخالفة الحكم . (ان الله سميع) لاقوالكم (عليم) بأفعالكم .

(٢) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ .

(لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) : أى اذا كلمتوه وهذا نهى عن زيادة صوتهم على صوته فى المكالمة . (ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) اى ولاتبلغوا بالقول الجهر الدائر بينكم . وهذا نهى عن مساواة اصواتهم لصوته صلى الله عليه وسلم فى الكلام فان هذا شأن المتساوين . (ان تحبط أعمالكم) أى خوف ان تبطل اعمالكم . (وانتم لاتشعرون) انها محبطة وباطلة . والوارد بالنهيين فى لاترفعوا ولاتجهروا ان يجعلوا اصواتهم فى مخاطبته أخفض من صوته عليه السلام كما هو الادب عند مخاطبة المهيب المعظم من الناس ومن اكثر مهابة وأعظم عظمة من رسول الله ؟! . وتكرير النداء بيأيها الذين آمنوا فى الايتين للمبالغة فى الاتعاظ ولزيادة الاهتمام

بالمنادى له والدلالة على استقلاله فى كل من الايتين ..

(٣) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٠

(يغضون اصواتهم) أى يخفضونها اجلالا له صلى الله عليه وسلم مراعاة للادب أو مخافة عن مخالفة النهى (امتحن الله قلوبهم للتقوى) اى مرنها على احتمال الشدائد حتى صارت خالصة للتقوى ليس فيها سواها وأصله من امتحان الذهب واذابته ليخلص ابريزه من خبثه تقول العرب : امتحن الصائغ الذهب اذا اذابه ليخلصه مما خالطه نفي الاية استعارة لانه شبه حالة أولئك المؤمنين الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله فى خلوص قلوبهم للتقوى بحالة الذهب الذى امتحن حتى خلص من جميع الشوائب ٠ واستعيرت الحالة الثانية للاولى ٠

وقد نزلت هذه الآية فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقد كان أبو بكر بعد نزول الاية السابقة لايكلم النبى عليه السلام كأخي السرار ، وكان عمر اذا كلم الرسول لم يسمع كلامه حتى يستفهمه لخفض صوته ٠

(لهم مغفرة) أى لذنوبهم والتنكير للتعظيم (وأجر عظيم) أى لغضهم وسائر طاعاتهم ٠

وفي الاية الكريمة تأكيدات كثيرة لاهمية غض الصوت عند رسول الله ولبيان فضل اصحابه وللتعريض بشناعة الرفع والجهر معه وضلال فاعليهما فالاية مصدّرة بإن وهي حرف توكيد وجملتها اسمية والخبر فيها جملة اسمية اخرى مؤلفة من معرفتين هما " أولئك والذين " و " أولئك " اسم اشارة متضمن لمن يغضون أصواتهم عند الرسول " والذين " اسم موصول بصلة هي " امتحن الله قلوبهم للتقوى " وهي تدل على بلوغ هؤلاء الغاضين اصواتهم عند الرسول نهاية الكمال وجاءت " لهم مغفرة وأجر عظيم " جملة هي خبر ثان للدلالة على ثوابهم العظيم عند الله .

(٤) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

(من وراء الحجرات) أي من خارج حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم في وقت يكون عليه السلام مستريحا في واحدة منها . نزلت هذه الاية في وفد بني تميم وكانوا اعرابا جفاة يقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم حتى اتوا منزله فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف: يامحمد، اخرج لنا "ثلاثا" . واسند النداء اليهم جميعا حين قال تعالى " ينادونك " مع أن المنادي كان بعضهم لاكلهم لانهم رضوا جميعا بهذا النداء فكأنهم فعلوه جميعا .

(أكثرهم لايعقلون) أي اكثرهم لايجرون على مقتضى العقل وهو

مراعاة الادب مع أعظم خلق الله . وعبر بالاكثر دون الكل لان منهم من لم يقصد ترك الادب في ندائه بل نادى لامر ما .

(٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج اليهم وفي (اليهم) اشعار بانه لو خرج لا لاجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه اليهم (لكان خيرا لهم) أى لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الادب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب وقبول طلبهم، اذ روى انهم وفدوا شافعين في أسارى بني العنبر فاطلق عليه السلام النصف وفادى النصف . (والله غفور رحيم) أى حين اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين الادب التاركين تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ .

(فاسق) هو من أخل بشيء من احكام الشرع بترك مأمور به أو فعل منهي عنه والمراد به هنا مجهول العدالة. (والنبأ) الخبر ذو الاهمية . (فتبينوا) أى فتعرفوا وتثبتوا من صحته

قبل أن ترتبوا عليه آثارا . أى ان اخبركم فاسق بخبر فتعرفوا صدقه وتثبتوا منه خشية ان تصيبوا قوما بمكروه بسبب جهالتكم بالحقيقة فتندموا على مافعلتم بهم متمنين انه لم يقع منكم . (والندم) هو الغم على وقوع شئ مع تمنى عدم وقوعه . روى انه عليه السلام بعث الوليد بن عقبة الى بنى المصطلق ، وكان بينه وبينهم عداوة فلما سمعوا بمقدمه خرجوا يستقبلونه فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهمّ عليه السلام بقتالهم فنزلت الآية . وقيل بعث الرسول اليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا اليه الصدقات فرجع . وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم اى أى فاسق بأى نبأ . ويفهم من الآية جواز قبول خبر العدل بغير تبين .

(٧) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

أى واعلموا ان فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى انكم تريدون ان يتبع رأيكم فى كثير من الاخبار وهى باطلة فيترتب عليه احكامه ولو قد فعل لعنتم اى لوقعتم فى الاثم والهلاك ولكنه صلى الله عليه وسلم لايطيعكم فى غالب ماتخبرونه قبل التبين ولايسارع الى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه . وفى

ذلك اشعار بأن بعضهم أشار عليه بالايقاع ببني المصطلق .
(ولكن الله حبب اليكم الايمان) استدراك لبيان فضل من لم يخبر الرسول بالباطل منهم وللتعريض بذم من فعل ذلك ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك (اولئك هم الراشدون) : أى أولئك المستثنون هم الذين اصابوا الطريق السوى . فالراشدون هم المستقيمون على طريق الحق الثابتون عليه .

وكان اصل الكلام أن يقول تعالى : وكرهكم الكفر والفسوق والعصيان فتتعدى كره الى مفعولين ولكنه عداها الى مفعول واحد فقال عز وجل وكره اليكم لانه ضمن كره معنى بغض فنزلت منزلتها وبغض تتعدى الى مفعول واحد وتتعدى الى الثاني بالى .
والكفر هو تغطية نعم الله بالجحود . والفسوق : الخروج عن القصد والمقصود هنا الكذب . والعصيان : الامتناع عن الانقياد والطاعة أو هو كل ذنب فيكون الكلام من عطف العام وهو العصيان على الخاص وهو الكفر والفسوق .

(٨) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

اى حبب اليكم الايمان وكره اليكم الكفر .... الخ . فضلا من الله ونعمة . (والله عليم) بأحوال المؤمنين ومابينهم من التفاضل . (حكيم) حيث يفضل وينعم بالتوفيق عليهم .

(١) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ..

(اقتتلوا) أى تقاتلوا واسند الفعل الى واو الجماعة ولم يقل وان طائفتان اقتتلتا لاعتبار المعنى فان كل طائفة جمع . (فاصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء الى حكم الله تعالى . (فان بغت) تعدت (حتى تفيء الى أمر الله) ترجع الى ما أمر به الله من حكم . فتفيء معناها ترجع وسمى الظل بالفيء لرجوعه بعد زوال الشمس وسميت الغنيمة فيئا لرجوعها من الكفار الى المسلمين . (فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل) بفصل مابينهما على ماحكم الله . وانما قال تعالى بالعدل وقيد الاصلاح به ههنا لانه مظنة الجور من حيث انه بعد المقاتلة . فأراد ان يدفع هذا الظن والاحتمال بهذا التقييد . (وأقسطوا) أى واعدلوا فى الحكم وفى كل احوالكم واعمالكم . (ان الله يحب المقسطين) يحمد فعلهم بحسن الجزاء .

وقد نزلت الاية فى قتال حدث بين الاوس والخزرج فى عهده عليه السلام . وهى ترشد الى أن الباغى مؤمن وانه

اذا توقف عن الحرب ترك وانه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح للباغي والسعي في المصالحة بين الطرفين .

(١٠) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

(انما المؤمنون اخوة) لانهم منتسبون الى اصل واحد وهو الايمان . وهذه الاية مرتبطة بما قبلها لانها تعليل للامر بالاصلاح في الاية السابقة ولذلك كرر الاصلاح مرتبا على هذه الاخوة القائمة بين المؤمنين فقال (فاصلحوا بين اخويكم) لم يقل فاصلحوا بينهم بل وضع الظاهر موضع الضمير للمبالغة في التقرير والتخصيص . ولم يقل فاصلحوا بين اخوتكم بالجمع بل قال بين اخويكم بالمثنى فخصص الاثنين بالذكر لانهما اقل من يقع بينهم الشقاق فيكون هذا الكلام أشمل وأدق وقيل المراد بالاخوين الاوس والخزرج . (واتقوا الله) في مخالفة حكمه والاهمال فيه . (لعلكم ترحمون) على تقواكم .

(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

(لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) أى لايسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض اذ قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر . والقوم مختص بالرجال . واختيار الجمع فى قوم ونساء لان السخرية تغلب فى المجامع . (ولا تلمزوا انفسكم) أى ولايغتب بعضكم بعضا فان المؤمنين كنفس واحدة أو المعنى لاتفعلوا ماتلمزون به فان من فعل مايستحق به اللمز فقد لمز نفسه . (واللمز) الطعن باللسان . (ولاتنابزوا بالالقاب) أى ولايدع بعضكم بعضا بلقب السوء فان النبز مختص بلقب السوء عرفا . وذكر الالقاب بعده مع أن النبز يتضمنه للتاكيد كذكر كلمة " جناحيه " بعد " طائر يطير " فى قوله تعالى : " وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم " . (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) الاسم الذكر المرتفع أو الصفة أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين ان يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الايمان او بئست الصفة ذلك . والمراد اما تهجين نسبة الكفر والفسق الى المؤمنين خصوصا اذ روى ان الاية نزلت فى صفة بنت حيى زوج الرسول صلى الله عنها وقد أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان النساء يقلن لى يايهودية بنت يهوديين فقال لها عليه السلام هلا قلت ان ابى هارون وعمى موسى وزوجى محمد عليهم السلام . واما للدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الايمان مستقبح . (ومن لم يتب) عما نهى عنه . (فاولئك

هم الظالمون) بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب فذلك ظلم للنفس أى ظلم .

(١٢) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ..

(اجتنبوا كثيرا من الظن) أى ابتعدوا عنه وكونوا منه على جانب . وابهام الكثير فى اجتنبوا كثيرا ليحتاط الانسان فى كل ظن يظنه ويتأمل حتى يعلم من أى نوع هو لان من الظن مايجب اتباعه كحسن الظن بالله تعالى ومنه مايحرم كالظن فى الآلهيات والنبوات وظن السوء بالمؤمنين ومنه مايباح كالظن فى الامور المعيشية . (ان بعض الظن اثم) وهو ظن السوء بالغير بغير دليل . والاثم هو الفعل الذى يستحق العقوبة عليه . (ولاتجسسوا) : ولاتبحثوا عن عورات المسلمين .

فى الحديث : لاتتبعوا عورات المسلمين فان من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته . (ولايغتب بعضكم بعضا) ولايذكر بعضكم بعضا بالسوء فى غيبته .

وسئل عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال ان تذكر اخاك بما يكرهه فان كان فيه فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهتته • (أيحب أحدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا) فى الكلام تشبيه ضمنى أو هو كما يقول المفسرون تمثل لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على افحش وجه • وقد اكد القرآن الكريم شناعة هذا الفعل بمؤكدات منها الاستفهام الانكارى واسناد الفعل الى " أحد " للتعميم وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وهو أكل لحم الاخ ميتا وجعل هذا الاغتياب اكلا للحم الانسان وجعل الانسان المأكول اخا بل اخا ميتا ثم يعقب ذلك بقوله " فكرهتموه " والمقصود ان صح ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولايمكنكم انكار كراهته • (واتقوا الله ان الله تواب رحيم) أى لمن اتقى مانهى عنه وتاب عما فرط منه • وجاءت " تواب " بصيغة المبالغة لان الله تعالى بليغ فى قبول التوبة اذ يجعل صاحبها كمن لم يذنب أو لان الله تعالى يتوب على الكثيرين من المذنبين أو لانه تعالى يتوب على المذنبين من الذنوب الكثيرة •

(١٣) ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ••

(خلقناكم من ذكر وانثى) اى من آدم وحواء عليهما السلام او خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب . ويجوز ان يكون هذا الكلام متصلا بما قبله من الاغتياب فيكون تقريرا للاخوة المانعة من هذا الاغتياب .
(وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعب جمع عظيم منتسبون الى اصل واحد ويتشعب منه قبائل وقيل المقصود بالشعوب العرب وبالقبائل العجم وهم من عدا العرب من الاجناس الاخرى .
(لتعارفوا) اى ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر بالاباء والقبائل .
(ان اكرمكم عند الله اتقاكم) فبالتقوى تكمل النفوس وتتفاضل الاشخاص يقول عليه السلام من سره أن يكون اكرم الناس فليتق .
(ان الله عليم) بكم (خبير) ببواطنكم .

(١٤) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . .

(الاعراب) هم سكان البادية وقد نزلت الآية فى نفر من بنى اسد قدموا المدينة فى سنة جدبة ، واظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اتيناك بالاثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة والمن .

(قل لم تؤمنوا) أى قل لهم يامحمد لم تؤمنوا لان الايمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب ، ولم يحصل هذا لكم والا لما مننتم على الرسول بالاسلام وترك مقاتلته كما دل عليه آخر السورة (ولكن قولوا اسلمنا) فان الاسلام انقياد ودخول فى السلم ونطق بالشهادتين .

ونظم الكلام الطبيعى اما ان يكون : لاتقولوا آمنا ولكن قولوا اسلمنا واما ان يكون قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدل عنه الى " قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا " احترازا عن النهى عن القول بالايمان اذا نظم بالصورة الاولى واحترازا عن الجزم باسلامهم وقد فقد شرط اعتباره شرعا اذا نظم بالصورة الثانية (ولما يدخل الايمان فى قلوبهم) أى ولكن قولوا اسلمنا ولم توافق قلوبكم السنتكم بعد (ولما) حرف يدل على استمرار نفى مابعده الى وقت التكلم والمعنى لم يدخل الى الآن (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق . (لايلتكم من اعمالكم شيئا) لاينقصكم من اجورها شيئا (ان الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم .

(١٥) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .

(لم يرتابوا) لم يشكوا وفيه اشارة الى ما أوجب نفى الايمان عن الأعراب وهو الارتياب والشك • وفى " ثم " اشعار بان اشتراط عدم الارتياب فى اعتبار الايمان ليس حال وقت الايمان فقط بل فى هذا الوقت وفيما يستقبل " فثم " هنا مثلها فى قوله تعالى " ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " • (فى سبيل الله) فى طاعته (أولئك هم الصادقون) أى الصادقون فى ادعاء الايمان •

(١٦) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ••

(اتعلمون الله بدينكم) خطاب للاعراب أى اتخبرون الله بقولكم آمنا • (والله يعلم ••• الخ) أى والله لاتخفى عليه خافية • وفى هذا تجهيل لهم وتوبيخ والاستفهام فى الاية استفهام انكارى •

(١٧) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ••

(يمنون عليك أنْ أسلموا) اى يعدون اسلامهم منة عليك يامحمد وانعاما • (قل لاتمنوا على اسلامكم) اى قل لهم لاتمنوا

على بإسلامكم " ويمن " لايتعدى الى المفعول بنفسه بل بالباء ولكنه تعالى عداها بنفسها فقال لاتمنوا على اسلامكم فنصب " اسلامكم " بنزع الخافض وهو حرف الجر او ضمن تمنوا معنى فعل يتعدى بنفسه مثل اعتدوا . (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) أى على مازعمتم لانهم لم يؤمنوا حقيقة ولذلك قال (ان كنتم صادقين) أى فى ادعاء الايمان . وجواب الشرط محذوف يدل عليه ماقبله والتقدير ان كنتم صادقين فلله المنة عليكم . انهم لما سمعوا ماصدر عنهم ايمانا ومنوا به على الرسول ، نفى الله انه ايمان وسماه اسلاما بأن قال يمنون عليك بما هو فى الحقيقة اسلام . وليس بجدير ان يمن عليك به ، بل لو صح ادعاؤهم للايمان فلله المنة عليهم بالهداية له وليست المنة لهم عليك .

١١ - أن الله يعلم غيب السموات والارض ، والله بصير بما تعملون

(غيب السموات والارض) ماغاب فيهما مما لم يره الناس .
(بصير بما تعملون) عليم بما تعملونه من اعمال حسنه أو سيئة ، وهذا للحذر فى كل مايعمله المرء مما ظهر منه أو خفى .

أحاديث نبويـــة شريفـــة (*)

- ١ -

(بعض خواصه صلى الله عليه وسلم

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : أوتيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب . فبينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى . قال أبو هريرة رضى الله عنه : وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتثلونها .)

بيان المفردات

(اللغة :)

(الجوامع جمع مفرده جامع) . والكلم مفرده كلمه . فالكلمه الجامعه هى التى كثر معناها وقل لفظها فى استيفاء وحسن بيان . والرعب مصدر رعبه كنعه (أى أخافه وأفزعه) فهو مرعوب ورعيب ورعبه بالتضعيف ترعيباً وترعاباً فرعب وارتعب . والترعابة بكسر التاء الفزوقة (والخزائن جمع خزانة بكسر الخاء وهى مكان الخزن) وفعله من باب نصر والخزان اللسان كالخازن . واختزن الطريق ملك أقربه . ومخازن الطريق مخاصره . والانتثال أصله من قولهم : نثل الركية ينثلها) من باب ضرب (أى) استخرج ترابها . والتراب هو النثيلة والنثال ، وانتثلها استخرج ترابها ونثل كنانته استخرج نبلها) منثرها ، (والركى : البئر) من ركى بمعنى حفر وجمعه ركى .

المعنى

(المعنى)

اقتضت حكمة الله البالغه أنه إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب ولما (بعث الله رسله مبشرين ومنذرين . فى أحقاب مختلفه) . وأجيال متنوعه . وكان لا بد للإنسان — شأن كل كائن حى — من التدرج فى النمو رويداً رويداً . ومن الصعود فى مدارج الكمال قليلا قليلا ، جعل لكل شريعة ميقاتا من الزمن

(*) شرح الأستاذ عبد الحليم أحمد وارم

يناسبها ، وفريقاً من البشر يهتدى بهديها : وكانت الشرائع على اتحاد أصولها فى العقائد ، والحديث عن البعث والنشور ، والحق والفضيلة تختلف فروعها اختلافا يلائم أزمانها ويناسب الأمم التى تدين بها ، وكانت بين الشرائع فترات من الزمن تتطاول أحيانا وتقصر أحيانا أخرى .

وكانت تلك الفترات محكا للعزائم وابتلاء للعقول . فكم ضلت فيها أعقاب من الناس آمنت أصولها ، وكم طوحت البدع والضلالة بكثير من أهـل تلك الفترات حتى أزاحتهم عن شريعة آبائهم . ودوت بهم الى حضيض عبادة الأوثان وتأليه الأحبار والرهبان . وران على قلوبهم الجهل والغواية فأضحوا لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكراً . تلك أمم قـد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولما تهيأت الإنسانية للنضوج ، واستعدت لأن تتلقى الشريعة الخالدة والتعاليم السامية الباقية اختار الله تعالى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته لزعامتها نبيه محمداً صلى الله عليه وسـلم ، فبعثه فيها قائدا بصيرا بسياستها وزعيما مضطلعا بأعبائها ، بشيراً ونذيرا ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وقد اختصه الحق جل شأنه بخواص تؤيد تلك الزعامة العامة ، والرسالة الشاملة . وكان من تلك الخواص ما ذكره صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث مما نشرحه فيما يأتى :

(١) تمكينه من جوامع الكلم — وإذا كان القائد المظفر يحتاج مع دهائه وحسن سياسته وصائب تدبيره الى اللسن وحسن البيان لحفز الهمم واستنهاض العزائم كما أرسلها نابليون فى جيشه كلمة خالدة — إن أربعين قرنا تنظر إليكم من خلال هذه الاهرامات — وإذا كان زعماء النهضات القومية وقادتها المجربون كبرا و ، وهيجو قد تسلحوا بسلاح البيان فكسبوا به المعارك وأحرزوا به النصر ، وإذا كان لا بد لنصرة المظلوم من محام مدره وخطيب مفوه ولا بد لكل رسول من بيان ناطق وحجة قائمة ، حتى يؤدى الرسالة على وجهها ويقيم الشريعة على مناهجها فما أحرى زعيم الانسانية ،

وقائد النهضة الفكرية وباعث الثقافة العالمية من مرقدها ، وموقظ الشعوب النائمة من سباتها (ومحرر العقول من أوهامها) ومستأصل شأفة الشرك من قرارتها (أن يكون المبرز فى حلبة هذا السباق) والمجلى فى هذا الميدان الخطير (وكذلك شاء له ربه ، وتمت عليه نعمته فأرسل أحاديثه نورا يشق غياهب الظلام) وفرقانا يقود الناس الى الرشد . واضح المعالم معبد المناهج ، لا يضل فيه سالك ولا ينكره منصف أريب ، (وإذا شئت البرهان على أنه (أوتى جوامع الكلم) فوازن بين مهمته العالية ورسالته العامة وما تقتضيه من مختلف فنون الدعوة والإرشاد وبين ما أثر عنه من الأحاديث الصحيحة فى مدى ثلاثة وعشرين عاما تجد صدق هذه القضية واضحا جليا وأنت إذا استقرأت الأحاديث النبوية تراها وجيزة الألفاظ حافلة بالمعانى السامية متضمنة للمقاصد الدقيقة والمنافع الجمة). وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يجلس حيث انتهى به المجلس . وأن يلقى أحاديثه فى أناة وتؤدة وفى صوت لين رقيق ما لم يقم خطيبا فى الحشد العام أو ذاكرا الساعة أو النذير بين يدى عذاب شديد فقد يرفع حينئذ صوته من فوق أعواد المنبر حتى تسمع العقائل فى خدورها (وكان شأنه فى الحديث أن يذكره ثلاث مرات لسامعيه حتى يطمئن إلى أنهم قد وعوا عنه ما يقول وتثبتوا مما يلقى عليهم . وكان يرسلها كلمات جامعة) معدودة ، آتية على المراد من أقرب السبل بالغة ما ينبغى من نفس السامعين على الوجه الأوفى ، (قائمة على دعائم التشبيه الرائع ، والاستعارة البارعة والمثل الهادى الحكيم ، فكان يأخذ على أصحابه ألبابهم ويملك عليهم مشاعرهم وأسماعهم ببيان هو السحر الحلال) فى سلاسة الماء الزلال ، وهم لا يدرون مم يعجبون : أمن قوله البليغ يفهمونه ويستعذبونه وهو مع ذلك لا يشق له غبار ولا تلحق له آثار ، أم من تلك الشرائع البالغة والآيات الكونية والحجج الدامغة ؛ وهم من منالها وإدراك مداها لولا الوحى والبيان عاجزون مبعدون .

هى الشمس مسكنها فى السما . فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعودا ولن تستطيع إليك النزولا

تلك هي إحدى المزايا التي اختص بها النبي صلى الله عليه وسلم والثانية وهي ما نص عليه بقوله .

(١) ونصرت بالرعب — وقد ورد في بعض الروايات تحديد مدى ذلك النصر بشهر وفي بعض الروايات تحديده بشهر من الخلف وشهر من الامام فتحمل الراوية المجملة على المفصلة وكأن المقصود من الرواية الأخيرة أن نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالرعب كان مداه شهراً من كل جهة من الجهات التي تكتنف موطنه الشريف والاقتصار على الإمام والخلف إقتصاد في التعبير وإيجاز لظهور المقصود منه ونصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالرعب على الوجه المتقدم سياج معنوى وحصن روحى حاط الله به نبيه صلى الله عليه وسلم تكرمة له وإجلالا ، وكلاءة منه وعناية ، وقد كانت آثار هذا النصر ظاهرة بارزة يتحدث عنها الناس ويعترفون بها في غير مواربة ولا مداجاة فكانت القبائل والامارات التي تقع في مسيرة شهر من موطنه صلى الله عليه وسلم بعد أن وطد الله أمره تخشى بأسه وترهب قوته وتضع نصب أعينها ألا تجاهره بالعداء إلا في ظروف قاهرة ولأسباب مرغمة على أنك لو تجاوزت مدى الشهر في المسافة وتطلعت الى البلاد والدول التي كانت تبعد عن الحجاز أكثر من شهر رأيت له صلى الله عليه وسلم في قلوب ملوكها وإقيالها من التجلة والهيبة والاحترام ما أعلنت عنه البراهين الناطقة وآذنت به الدلائل الجلية الواضحة والا ففيم إيمان بعض الأمراء بمجرد اطلاعها على كتبه إليهم وقد سطعت حجتها ووضحت آياتها وفيم الاجمال في الرد من أكثر هؤلاء الملوك وفيم تلك الهدايا مرسلة منهم مع رسله صلى الله عليه وسلم مزودين بالإكرام وحسن الضيافة ، وفيم تردد قيصر وحشده لعظماء المملكة وعرضه عليهم أن يدينوا بالإسلام واختياره لهم ذلك بعد أن عرف صدقه صلى الله عليه وسلم لولا أن حاصوا حيصة حمر الوحش وهرعوا الى الأبواب مسناقين ولولا أن غلب عليه حب الملك فاستحب العمى على الهدى واختار الفانية على الباقية ، نعم وفيم كان فرق نصارى نجران وغيرهم من أمره صلى الله عليه وسلم وإن كانت مسافتهم أقل من شهر ، وبعد .

فلذلك قد تهديت الى العلم بشيء من آثار تينك الخاصتين المتقدمتين له صلى الله عليه وسلم وهما (جوامع الكلم والنصر بالرعب) ولكن أتدرى ما الذى قد حباه به الله فيما بعد ، ألا إن الله تعالى قد رفع ذكره فى الخافقين وأشاد به فى المشارق والمغارب فى الملأ الأعلى وها هو الآن وقد مضى على لحوقه بالرفيق الأعلى ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن لا يزال ذكره يدوى فى أذن التاريخ وآثار تشريعه تخترق البحار وتجوب الاقاليم لتحيا به العقول الناضجة ، والالباب الواعية ، ولتكون لله حجة على المستهزئين والجاحدين ، فهذه أوربا وأمريكا وكثير من سكان المعمورة يدأبون من قرون مضت وأحقاب ، خلت — ولا يزالون كذلك الى أن تقوم الساعة — فى بحث أحكام الشريعة المطهرة ودراسة علومها والوقوف على أسرارها ومنافعها وطالما تجلت لهم منها الآيات الباهرة والبدائع المدهشة فى الطب والكيمياء والقانون والاجتماع والتاريخ والسياسة وعلم النفس والاخلاق ، وذلك تحقيق لقوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) هذا وأن انتصاره صلى الله عليه بالرعب لم يكن أمراً خالياً عن التعليل الصحيح والحكمة المعقولة .

فأنت إذا نظرت للقبائل والشعوب التى كانت متاخمة لمهبط الوحى من عرب مشركين ، وأهل كتاب مبدلين ، ومجوس وثنيين ؛ رأيت أن هؤلاء جميعا قد زاغوا فى عقائدهم ، وأغلوا فى باطلهم ، وآثر كبراؤهم الأثرة والامارة والشهوة على الخير والحق والفضيلة . ومنذ أن ظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلموا بما يدعو الناس إليه من خير وحق وما ينهاهم عنه من شر وقطيعة وإثم ، وما يقضى به الدين الحنيف من تساوى الناس فى الحقوق والتقاضى وهم فى رعب ممض وفى مقعد مقيم ، ذلك أنهم قدروا فى أنفسهم انهم إن آمنوا بهديه الصحيح ضاع ملكهم وذهب متاعهم وأصبحوا هم والسوقة سواسية أمام أحكام الشريعة ، وإن بقوا فى طغيانهم وهم يعلمون

ما يحمل من باطل وزور فإن النذير يقرع أسماعهم وصوت الحق يجلجل بهم وإن ساعتهم آتية لا ريب فيها.

فلذلك كان الرعب يملأ قلوبهم والحيرة والاضطراب يتمضان عليهم مضاجعهم (ومما ينبغى التنبيه له أن الميزتين المتقدمتين له صلى الله عليه وسلم هما كالسببين الممهدين للميزة الثالثة وهى ما جاء فى قوله بعد :)

(٣) ("فبينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى" ذلك لأن نعمة البيان واللسان من أفضل ما يمنحه الزعماء والقادة فكيف وقد خص صلى الله عليه وسلم منها بالذروة والسنام وهى (جوامع الكلم) وكذلك النصرة على الأعداء فى مواطن القتال مما يرفع رءوس الأمراء وللقادة فكيف (إذا كان النصر بالرعب) فهاتان النعمتان كانتا إيذانا من الله لنبيه عليه السلام أنه زعيم الإنسانية ومعلم الشعوب ومرشد الأمم. فلا جرم أن جاء كالنتيجة لذلك قوله « فبينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض » فالفاء دلت على ترتيب ما بعدها على السببين المتقدمين. وبين ظرف معمول لأوتى ومضاف الجملة الإسمية بعده، وخزائن الأرض هنا كناية عما أفاء الله على نبيه وصحابته من بعده من فتح البلاد والممالك والأمصار) وامتلاك المسلمين إياها وسياستهم لرعاياها. (واستيلائهم على بعض ما فيها من خير وثمرات ووضع مفاتيح تلك الخزائن فى يده صلى الله عليه وسلم فى الرؤيا ورؤياه وحى ولا تكون إلا حقاً. رمز إلى أن وعد الله الذى وعده إياه فى ذلك حق لا يتخلف. "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا الآية" وكذلك حقت كلمة الله وصدق وعده. ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده ومكن للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وفتح عليهم مدنها وأمصارها، ورفع راية الإسلام خفاقة على مختلف دولهم من الهند شرقا إلى جبال البرانس غربا، وهو فتح مبين ونصر عظيم لم يحصل عليه الرومان فى ثمانية قرون

وقد أتاحه الله للمسلمين فى ثمانين سنة والعجب أن الفتح الإسلامى كان فتحاً روحياً أكثر منه مادياً وبعبارة أخرى كان فتحاً للأرواح ، ونعمة على العقول وتحريراً لها من أواصر الذل والجمود والاستعباد قبل أن يكون فتحاً للملك والاستيلاء . فالقهر والغلبة لم يكونا شهوتين يدعو إليهما الإسلام ، ويغرى بهما المسلمين .

وكذلك مجرد الاستعمار وإنما المقصد الأسمى الذى ندب اليه الإسلام أهله فى الجهاد والفتح هو بث الثقافة الإسلامية الرشيدة ونشر الرحمة والمدنية التين جاء بهما هذا الدين القيم ، وفك هذه الشعوب والامم ، من أسر الجهل والضلالة والاستعباد ، كل ذلك بطريق الرفق والاناة والسياسة الحكيمة والهداية الرشيدة . أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن . . . لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، وأين هذا من مبادىء الاستعمار الغربى لشعوب الشرق القائمة على سلب الاموال واستنزاف الدماء ، واستعباد الشعوب ، والرجوع بها الى الوراء ، وعدم تمكينها من الاخذ بأسباب التقدم والعمران اللهم الا اذا حصلت على شىء من ذلك اغتصابا . ونالته اقتسارا .

والتعبير بمفاتيح خزائن الارض وأنه صلى الله عليه وسلم أوتيها كناية عن شدة التمكن منها ، ومبالغة فى قوة الاستيلاء عليها ، والرمز بالخزائن للمالك والامصار صحيح قريب المأخذ والرمز فى الرؤيا المنامية . مألوف فى القرآن والسنة — ومن ذلك الرمز بالبقرات السبع السمان لسبع من السنين فيها خصب ونماء ، والرمز بالبقرات السبع العجاف التى أكلت سابقتها لسبع من السنين فيها جدب وقحط أتت على ما أثمرته الأرض فى تلك السنين السابقة .

ومن ذلك الرمز فى السنة باللبن للعلم وللدين باللباس — قال أبو هريرة رضى الله عنه (وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتثلونها) .

(أجل لقد لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه وترك لنا تلك الذخائر النفيسة وأكل الله للمسلمين ببركته ويمنه وفتح الممالك والامصار ، لم يدخر

النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه ولا لأهل بيته منها شيئاً ، بل لقد عاش خيصاً وتوفى أزهد الناس فى الدنيا ، وها هم المسلمون قد انتثلوا خزائن الأرض واستخرجوا ما فى ممالكها مما أتاه الله عليهم من خير ، ومنحهم من فضل ، وها إن الله تعالى قد صدق نبيه وعده ، وأباح للمسلمين نفائس الفرس والروم وغيرهما ، فهل أحسن الورثة القيام على هذا الميراث الرائع وتلك الكنوز الثمينة ؟ أم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ؟ نعم هو الأخير ، فقد أساء الورثة التصرف فكانوا سفهاء حمقى ، أعمتهم الشهوة وتسلط عليهم الطغيان وحب الملك فناموا عن القيام بأعبائه ، واختلفوا فيما بينهم فتفرقوا بدداً ، وذهبوا أيدى سبأ ، وسلط الله عليهم أعداءهم فوضعوا الذل فى أعناقهم واتخذوا عبيداً أرقاء وهم فى عقر دارهم يسومونهم الخسف ويولونهم الذل والهوان ولله در من قال .

خلوا المجد يا عزل الأيادى	لمن فى المجد ملكه الحسام
وعيشوا فى ممالكهم عبيداً	تسام من الهوان بما تسام
ومن ترك الصبي بلا فطام	إلى أن شب أعياه الفطام

والغرض من الحديث :

١ — بيان بعض خواصه صلى الله عليه وسلم .

٢ — التنويه بحسن البيان .

٣ — مقدار رفع الله لشأن نبيه صلى الله عليه وسلم .

٤ — تبشير المسلمين بأن الله تعالى سيفتح عليهم الممالك والأمصار كنوزها وينتفعون بثمرتها .

— ٢ —

(عدم تقدير كثير من الناس لما عندهم من عظيم النعم)

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

(الغبن) فى البيع الخداع فيه فقال غبنه فى البيع يغبنه غبناً وهو من باب ضرب إذا خدعه فيه ، والمصدر ساكن العين فى البيع ونحوه ومفتوحها فى الرأى يقال غبن رأيه من باب فرح إذا كان رأيه ضعيفا ويقال من باب فرح أيضاً غبن الشىء وفيه لازماً ومتعدياً غبناً بسكون الباء وفتحها إذا نسيه أو أغفله أو غلط فيه والتغابن أن يغبن بعض الناس بعضاً .

ويصح أن يفسر الغبن فى الحديث بالغلط وضعف الرأى ، ولكن الأنسب أن يفسر بمعنى الخداع فى البيع على اعتبار تشبيه من أساء التصرف فى هاتين النعمتين وبدلهما باللهو والفساد بمن خسرت صفقته وغبن فى بيعه . وإذاً فنى مغبون استعارة تبعية أو يحمل مجازاً عن الضرر اللازم للخداع لعلاقة اللزوم .

المعنى

١ — يتمتع كثير من الناس بنعمة الصحة دون نعمة الفراغ ، والصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يشعر به إلا المرضى ، فيهديه عقله بالرشيد . وفكره الصائب . وهمته العالية إلى استثمار هذه النعمة بما يعود عليه الرشد والفلاح .

٢ — وكذلك يتمتع كثير من الناس بنعمة الفراغ فقط . فلا يدع أوقاته تفلت منه ، وتضيع عليه هباء . بل ينتهز الفرص السانحة مع ضعف جسمه واعتلال صحته فيملأ فراغ أوقاته بالعمل المثمر والتجارة الرابحة . .

٣ — ولكن كثير من الناس قد يجمع بين هاتين النعمتين .

الصحة والفراغ فلا يفهم لهما قيمة . ولا يقدرهما حق قدرهما فيصرفهما مما فى اللهو والكسل وما يتصل بهما من الأعمال التافهة مما لا يجديه نفعا ولا يعود عليه بخير ونعمة الصحة والفراغ إذا اجتمعا لشخص حازم فما أحراه أن يضاعف بهما نعمة ويزداد بهما خيراً كثيراً وربحاً وفيرا فى دينه ودنياه ألا وإن الإنسان لم يخلق عبثا فى هذه الحياة ، ولم يسخر له الله الطبيعة الحافلة بأنواع المغانم ليلهو بهما لهو الصبيان ويتمتع بهما تمتع الحيوان . وإنما انسانا عاقلا ليمثل الإنسانية فى مدى عمره تمثيلا صحيحا وليثقف نفسه ويخدم وطنه ويزيد فى بناء مجد بلاده ويعمل مع العاملين لرقيها ، ورفع مستواها فإن هو حاد عن هذه الجادة وتنكب هــذا الصراط السوى فهو سفيه الرأى سيء التدبير جاهل قيمة انسانيته وما أودع فيها من خصائص ومزايا . ألا وأنه من المؤلم حقا أن يغفل كثير من الناس عن خطر هاتين النعمتين وما يترتب عليهما اذا صرفها الإنسان تصريفا حسنا من جلائل الآثار وعظيم المنافع .

وأنت إذا طالعت أحوال كثير من الناس المتمتعين بهاتين النعمتين تأخذك الدهشة والاشفاق للغبن اللاحق بأصحابها وترى هذا الغبن بأجلى مظاهره فينا معشر الشرقيين ، فإذا مررت على مقاهى مصر مثلا وملاهيها تراها تعج بالجموع الحاشدة من الناس يلبسون برود الثياب القشيبة وتفيض على وجوههم نضرة الصحة والعافية وهم مع ذلك يقطعون صحابة النهار وهزيعا من الليل فى أعمال ماجنة . وأحاديث وضيعه . وسمر رقيع . وكأنهم عن هذا العالم بمعزل وكأن ضوضاء المدينة وحركة النشاط وحياة العمل الغادية الرائحة لا تهمهم ولا يعنيهم أمرها .

وكأى من هؤلاء قد رزق أولادا وهم فى أشد الحاجة إلى التربية الصحيحة وفى عنقه بعد ذلك زوجه وإخوته وأبواه وقد تركهم هملا يتضورون جوعا ، ويتكففون الناس .

بل عسى أن يكون كثير من هؤلاء أيضا من هو محتاج لما يقيم أوده من عيش وما يستر جسمه من ملبس لائق . وما يصون ماء وجهه من أن يراق

بالسؤال ثم هو لا يبالى ذلك ولا يحفل به ما دام يصرف أوقاته فى لذة الكسل والخمول.

فهؤلاء هم العالة على الإنسانية وهؤلاء هم الاعضاء المشلولة فى جسم الامة فيجب بترها واستئصال شأفتها. وفى بيئة هؤلاء يتخرج اللصوص والسفاكون للدماء، والخارجون على النظم الاجتماعية والمهددون لامن الدولة والشاغلون لمحاكمها وهيئات إدارتها بأنواع الشغب والخصومات والمالئون سجونها بالاوغاد والسفلة.

ومن بين هذه الحثالة من الناس ينشأ المتمردون على الاخلاق، والهادمون لصرح الفضائل. والمدمنون للمخدرات والمسكرات، فهم داء الإنسانية العياء ونكبتها الجائحه، ومحنتها القاسيه، وإذا جاوزت هذه الطبقه الوضيعه من الناس وتأملت فى أحوال التجار والزراع والصناع ألفيت كثيرا منهم قد غبن أيضا فى نعمتى الصحة والفراغ؛ ذلك أن عددا لا يستهان به من هذه الطبقات يسيء تصريف نعمتى الصحة والفراغ، فلا يستثمرهما فيما يعود عليه وعلى وطنه بالمنافع والمغانم وإذا ملت إلى طبقة الموظفين والمعلمين أخذك العجب من كثير منهم وقد متع بهاتين النعمتين ثم هو لا يحس لهما أثراً، ولا يقيم لهما وزنا.

وإذا بحثت أحوال طلبة العلم فى مختلف معاهدهم، وعندهم أوقات فراغ كثيرة وأكثرهم ينعم بالصحة ويرفل فى مطارف الشباب رأيت ما يهولك ويفزعك ويملأ نفسك هما وحسرة، شبان يخلص لهم الليل ووقت ثمين من النهار، فلا يستذكرون دروسهم ولا يرتبون أعمالهم اللهم إلا أن يشغلوا أنفسهم بزيارة بعضهم، ومقابلة النازحين من بلادهم، والضرب فى أرجاء المدن جيئة وذهابا. يذهبون إلى دروسهم خاملين متبرمين ويؤجلون واجبهم ويسوفون فى بحث دروسهم ويقولون العام الدراسى طويل، وسنتدارك ما فات فيما بقى منه، ولا يزالون يعيشون على هذه التعللات حتى يفجأهم العام بنهايته والامتحان بدقائقه، فإذا هم يحشرون فى أذهانهم ركاما من معلومات لجه

غير ناضجة ولا مرتبة فإذا سادت العقبى ألقوا تبعاتهم على المدرسين وأولياء الأمر فيهم وهرعوا الى أبواب الصحف صارخين مستغيثين من صعوبة الامتحان وما يحويه من قسوة وامتهان ومن المدهش أنهم إذا تجرعوا فى عام مرارة إهمالهم لا يعتبرون ولا يرجعون . بل يكون شأن العام الثانى كالأول والثالث كالذى قبله وهكذا دواليك - أفلم يأن لهؤلاء أن ينظموا أعمالهم ويرتبوا أوقات فراغهم فيجعلوا جزءاً منها للطعام والمرافق وجزءاً للراحة والاستجمام وجزءاً للعمل . حتى تستقيم أحوالهم . وتنجح أعمالهم ، وتؤتيهم اجتهادهم ثماره الناضجة اللذيذة ثمار النجاح والرقى والتقدم فى ميادين الحياة أفلم ينظروا إلى ما خلفه آباؤهم السالفون من آثار رائعة وآيات خالدة فى مختلف العلوم والفنون تشهد بها تلك النقوش القائمة على جدران المعابد والهياكل وتلك الكتب الزاخرة بأسرار العلم والفن والأدب ، ثم لم يعلموا أن من عمر ولم يقدم لبلاده خيراً ولم يسجل لنفسه ذكراً خالداً بالآثار الطيبة فهو من الأموات وإن كان يحسب نفسه من الأحياء. أو لم يبلغهم أمر النبى صلى الله عليه وسلم الناس أن يأخذوا من شبابهم لهرمهم ومن صحتهم لسقمهم ومن غناهم لفقرهم ومن حياتهم لموتهم وقول الحكيم الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك وقول شوقى :

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان

فاعمل لنفسك قبل موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثان

الحث على المحافظة على حدود الله

(عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .)

المفردات :

الحدود جمع حد وهو فى اللغة الحاجز بين الشيئين) ومنتهى الشىء أيضاً تقول حد الدار يحدها حداً من باب دخل وحدها ايضاً (ويطلق الحد على المنع ايضاً ومنه أحدت المرأة) تحد فهى محد (امتنعت عن الزينة بعد وفاة زوجها) ويقال حد السيف يحد من باب جلس صار حديداً وجمعه حداد (والمراد بحدود الله هنا فى الحديث احكام الشريعة الغراء ومناسبة هذا المعنى للغة ان هذه الاحكام فيها المنع عن الشر والفساد).

استهموا : السهم واحد السهام وهو معروف ، ويطلق على النصيب وجمعه سهمان ، (واستهموا اقترعوا) واسهم بينهم اقرع ، وتساهموا تقارعوا وساهمه قارعه فقرعه اى غلبه فى المساهمة والمقارعة والمغلوب مسهوم . ومقروع .

أعلاها وأسفلها : الأعلى ضد الأسفل والعلو بضم العين وكسرها مع سكون اللام يقابله السفل بضم السين وكسرها والعلو بتشديد الواو يقابله السفول السفال بفتح السين والسفالة بضمها يقابلها العلاء بفتح العين والعلاوة بضمها وعلية الناس بكسر العين وسكون اللام ضد سفلتهم والسفالة بفتح السين النذالة وبابه ظرف وباب علا وسفل الحسيين دخل .

المعنى :

١ — فى الحديث الشريف تشبيه أحكام الشريعة السمحة . بالسفينة فكما أن السفينة تخترق عباب اليم . وتنجى راكبها وتقطع بهم أجواز البحار وتجوز المسافات البعيدة والجهات السحيقة فتصل بهم إلى ما يبتغون متى سددوا قيادها وأحسنوا تصريفها فكذلك الشريعة السمحة يخوض القائمون على حدودها معترك الحياة ويجتازون مضايقها وهم فى أمن من الخطر ومنجاة من الزلق والعثار .

٢ — وفى الحديث أيضاً تشبيه القائمين على حدود الله وهم الذين يحلون الحلال ويحرمون الحرام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بمن يركبون أعلى السفينة وما أحسن المناسبة فى هذا التشبيه حين حصلت فى علو كانا الطائفتين فالقائمون على حدود الله هم الأعلون رتبة والأشرف مقاما والأفضل مكانة والراكبون أعلى السفينة لهم العلو الحسى والمكان الرفيع .

٣ — وفى الحديث كذلك تشبيه الواقعين فى الحدود بمن أصابوا أسفل السفينة . فالأولون أحط رتبة والآخرون أسفل منزلة .

٤ — وفى الحديث أيضاً إرشاد القائمين على الحدود أن يأخذوا على أيدى المعتدين عليها فعليهم أن يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر وألا يسمحوا للفاحشة أن تشيع فيهم ولا يأذنوا للفساد أن يستشرى بينهم . فإن هم فعلوا ذلك وكفوا أيدى الأشرار عن العبث فى الأرض فساداً وأخذوا على أيديهم سبل الغواية والضلال أنجوا أنفسهم وقاموا بالواجب عليهم من الدعاية للحق ونصرة الفضيلة واشتد أزر الدين ، وكانت كلمة الله هى العليا وفاز الجميع بسعادة الدارين ، وكان مثل الراشدين وقد قاموا بما فرض عليهم من أحقاق الحق وإزهاق الباطل مثل من فى أعلى السفينة إذا أخذوا على أيدى من فى أسفلها وقد هموا أن يخرقوا فيها خرقاً ليصيبوا الماء من أقرب طريق ولا يؤذوا غيرهم فى زعمهم وهم لا يعلمون ما يستدعيه هذا الخرق من الخطل فى الرأى والخرق فى التدبير ، وهو

هلاك من فى السفينة جميعا ، وإذا لم يقم الراشدون بما افترض الله عليهم من المحافظة على حدوده والقوا حبل العابثين على غاربهم . وتركوهم ينغمسون فى حماة الرذيلة ويخوضون الباطل خوضاً : فلا محيص من أن يأخذ الله الجميع بعذابه . الفاسقين بفسقهم والراشدين بسكوتهم عن المنكر والخنا يفعله سفلتهم وغوغاؤهم حتى يستطير شره . ويشتد نكره . ومثل الراشدين ، وقد غفلوا عن القيام على حدود الله مثل من أصابوا أعلى السفينة فرضوا بهذا المقام الناعم الرفيع . ينشقون الهواء النقى . وينعمون بالنسيم العليل وتطالعهم الشمس الضاحكة . وصفحة الماء المترقرقة ومع أنهم يرون من فى أسفل السفينة رأى العين قد هموا وأخذوا بالفعل يخرقون أسفلها كما جاء فى بعض الروايات فهم لا يحركون ساكنا . ولا يأبهون للعواقب الوخيمة . والأرزاء الجسيمة أن تحل بهم مع غيرهم . وإذا كان من الحماقة وسفه الرأى أن يترك الإنسان ذلك العابث الماجن يعبث بعرضه . وينال من شرفه ، ويغض من حسبه فما أحرى الطائعين بالحماقة .

وقد ناموا على الضيم ورضوا للدين بالهضيمة . ومدوا للغواة فى إرسان الضلالة . فاستشرى الشر . وتغلغل فيهم سريان النار فى الهشيم فحقت كلمة الله على الجميع قال تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » : وقال تعالى : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » . ذلكم هو شأن الطائعين فى الحماقة إذا لم يقوموا بالذى وجب فى أعناقهم نحو الفاسقين والعابثين ، وكذلك يكون شأن من فى أعلى السفينة حماقة وسوء تدبير إذا هم أهملوا رعاية من فى أسفلها وقد هموا بما بيتوا من شر وتدمير . فالعاقبة غرق الجميع ، ويومئذ لا يغنى من كانوا يسكنون الأعالى ما كانوا ينعمون به من ترف . فالغرق يسوى بين الجميع فى العذاب والتلف ، وذلك جزاء الظالمين .

قد علمت أن في الحديث ثلاث تشبيهات : تشبيه الشريعة بالسفينة وتشبيه القائمين على حدودها بمن في أعلى السفينة . والواقعين في الحدود بمن في أسفل السفينة . كما علمت متى ينجو جميع المسلمين ومتى يهلكون جميعاً ومتى ينجو جميع من في السفينة ومتى يهلكون جميعاً ، ولا يصح أن يكون ما في الحديث من أنواع الشبه المتعددة كما في قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً　　لدى وكرها العناب والحشف البالي

لأن ذلك إنما يستقيم حيث يمكن استقلال كل تشبيه بمعنى صحيح مقصود على حدته وليس هذا بمراد هنا . وإنما المراد أن يكون المسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً . وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وكذلك المراد أن لا يفروا من العصاة فرار السليم من الأجرب . بل يدعوهم إلى الحق والهدى بالحكمة والموعظة الحسنة . وعليهم ألا يتجاهلوا ما ورد في السنة من أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وعليهم ألا يحيلوا هدى الشريعة ونورها إلى ظلام دامس وأطلال دراسة فيكونوا كالبوذيين الذين قسموا شعوبهم إلى طوائف يفضل بعضها بعضاً بغير حق ولا برهان وجعلوا من الطبقات الدنيا في زعمهم طائفة من المنبوذين ، يتحاشون أن يقع عليهم ظلهم ، ويأنفون أن يخالطوهم أو يصاهروا إليهم . ويرون ضلالا وإثماً أن يستعملوا ما تمسه أيديهم أو ما يلابسونه من مرافق الحياة .

وقد كاد الانقسام يودى بالجميع لولا أن صام زعيمهم غاندى . وأذن فيهم أن سيصبر نفسه على الجوع إلى الموت فارتد الأشراف يعانقون المنبوذين ويتملقونهم حتى يتقوا شر نكبة حاصدة وطامة جارفة إلا أنها الأهواء ، والأثرة والاستبداد ، والاستمساك بالتقاليد الخاطئة الموروثة هي التي تحدو الإنسان أن يحتقر أخاه ، ويهوى به إلى هذا الدرك الأسفل من الضعة والهوان وما أنزل الله في هديه شيئاً من هذا الذي يزعمون .

وتستطيع أن تلمس فضيلة المساواة بين الناس في الحقوق التي نادى بها

الإسلام مراراً فى صراحة وقوة فى هذا الحديث أيضا وذلك من إلزام الطائعين الاخذ بيد العصاة . ومن تشبيه الشريعة بالسفينة وأنها بلاغ لجميع من فيها إذا أحسنوا تصريفها وهى هيكل واحد فيه مثوى الجميع ومباءتهم . هذا ولا يزال كثير من بلهاء أهل الطاعة والاستكانة والجمود ، منتشرين فى القرى والأمصار يزعمون أنهم على شئ من العلم والهدى والاستقامة على الحق والاستنارة بالنور الذى أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم وهم يقولون لا ضير علينا من بغى الباغين وطغيانهم ما دمنا نعمل بالخير فى أنفسنا وقد يستدلون على ذلك بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ولبئس ما زعموا لو كانوا يعقلون .

فالآية الكريمة ليس فيها الاذن بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بل هى تحض على القيام بهما فان من الهداية أن ينصح المسلم لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . ومن الهداية أيضاً أن ينصر المسلم أخاه ظالما أو مظلوما ، فنصرة الظالم كفه عن الشر والإثم ، ونصرة المظلوم إعانته فى سبيل الوصول إلى حقه ؛ وكيف يستقيم فهم الآية كما توهموا والكتاب الكريم حافل بالحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكذلك السنة المطهرة وهى بيان الفرقان وتفصيل لاجماله بقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ويقول جل شأنه : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانو يعتدون . كانو لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

ويروى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » وتضعونها فى غير موضعها ولا تدرون ما هى وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعذابه .

وقد ورد أيضاً : لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون الله خياركم فلا يستجاب

لهم ، وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية الشريفة ، وقد قرئت عنده وسئل عنها أنه قال : ليس هذا زمن تأويلها : قيل : فتى ؟ قال : إذا حال دونها السيف والسوط والحبس ، على أن أهل العزائم القوية والإيمان الكامل لا يبالون هذه الأشياء ابتغاء الحصول على الدرجات والفوز بأسمى مراتب الشرف والثواب

ما يؤخذ من الحديث

١ — التنوية بفضل الشريعة الإسلامية .

٢ — الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٣ — جواز الاقتراع فى الشىء المشترك لتعيين الأنصباء لاسيما عند المشاحة

٤ — أن على الجار الصبر على أذى جاره القليل ومنعه من إحداث الضرر الشديد به .

— ٤ —

فضل العلم على المال

عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » ، وفى بعض الطرق عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا فهلكه فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل » .

وللإمام أحمد من حديث يزيد بن الأخنس السلمى : « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ويتبع ما فيه » .

المفردات :

الحسد فى اللغة : أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك وبابه دخل ، وحسده الشىء وعلى الشىء بمعنى واحد ، وتحاسد القوم . حسد بعضهم بعضاً ، والحسدة جمع حاسد كحامل وحملة .

والمراد بالحسد فى الحديث ، الغبطة ، وهى . أن تتمنى مثل ما للغير من نعمة بدليل ما سنذكره بعد :

هلكة : الهلكة الهلاك وهى مصدر هلك الشىء يهلك هلاكا وهلوكا وهلكة ومهلكا - بفتح اللام وكسرها وضمها فى الاخير - والتهلكة - بالضم : مصدر سماعى ، والمهلكة ، بفتح اللام وكسرها : المفازة - وتميم تستعمل هلك متعديا من باب ضرب بمعنى أهلك تقول : هلك فلان المال يهلكه بمعنى أهلكه وغير تميم يستعمله لازما ويجمع هالك على هلكى وهلاك وجمعه على هوالك شاذ .

آناء : آناء الليل ساعاته وهو جمع مفرده إنى كمعى عند الاخفش وغير مفرده إنو بكسر الهمزة وسكون النون فيهما .

يقال : مضى من الليل إنوان وإنيان : وأنى يأنى كرمى يرمى إنى بمعنى حان ومنه قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » الآية ، وأنى ويأنى أدرك . قال تعالى « إلى طعام غير ناظرين إناه » وتأنى فى الامر ترفق وتنظر ، واستأنى به إنتظر به ، والاسم من ذلك : الاناة كالقناة : والاناة أيضا الحلم والمراد بآناء الليل والنهار فى الحديث ساعاتهما .

المعنى : فى كثير من النفوس بذور من الرذيلة ، إذا تركت ولم تجتث من أصولها نمت واشتدت ، ثم استوت قائمة على سوقها تحمل الثمر الخبيث ، وفيه ما يؤذى المتذوق ، وما يغثى المستمرىء : وفى ثناياه النكال وسوء العاقبة ، ومن تلك البذور : الحسد وهو داء عضال أشبه الاشياء فى أمراض الروح بداء السل فى الجسد أفرأيت إلى المسلول ينفث الدم والقيح والصديد فيتأذى به الناس ويتبرمون .

فإذا رأوه مقبلا أشاحوا بوجوههم ولووا رءوسهم وهم معرضون ، وإذا خالطوه في مجلس ثم استطلعوا طلعته تمشت قلوبهم في صدورهم فرقا ورعبا .

وإذا سمعوا الحديث عنه وهو غائب اقشعرت أبدانهم . وارتعدت فرائصهم وغشت وجوههم سحابة من الغم والكدر . فكذلك الحسود يرى الناس فيه روحا ملتهبة بالشر ، ونفسا مضطرمة بالشراهة ملأى بالضغينة على الناس وكأنها صل قد انحسر الشعر عن رأسه من حرارة السم . فهو أقرع أجرد براق العينين يمج من ريقه السم الزعاف ويرسل الموت الزؤام . إلا أن أعين الحسدة سهام مسمومة يصوبونها إلى الفريسة فيصمونها . ويسددونها إلى الغرض فلا يخطئون ومن هذا التصوير المقتصد ترى أن الشرع يرى في الحسد جريمة يالها من جريمة ويرى الصلة قريبة بين الحساد وبين السفاكين والمتغالين ، وقد رأى بعض الفقهاء أن يضمن الحاسد ما أتلفت عينه . وأن يحبس إذا استطار شره كما أوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم في الفرقان أن يستعيذ من شر حاسد إذا حسد ، وكان ذلك إرشاداً للأمة أيضاً للاستعاذة بالله منه ، وهو نعم المعاذ ، ونعم المولى ونعم النصير .

وإذاً فهذا المعنى الذى قدمنا للحسد ليس هو المراد في الحديث قطعا يقيناً ، ولأن الحسد رائده الجبن وخور النفس والقعود عن اكتساب المعالي واغتنام الفضائل ، ولكن لما كان في الغبطة وهي تمنى مثل ما للغير من خير انفعال النفس وتحركها وحبها للحصول على مثل ما للغير من خير ، وقد يصحب ذلك الحب المنافسة . حسن استعارة الحسد لهذا المعنى . وقد قيل : إن الحديث هنا من باب ما ورد لو كان شيء يسبق القضاء لكان العين . ومعلوم أن العين لا تسبق القضاء قطعا ولكن سيق الأسلوب هكذا المبالغة في تأثير العين ، فكذلك هنا يكون تلخيص المعنى إن لو كان الحسد في الخير مأذونا فيه لكان في هاتين النعمتين لعظمهما وكثرة فضلهما ، لكنه لا إذن من الشارع في الحسد فيكون المقصود إذاً هو الإشادة بفضل هاتين النعمتين وحث الناس على المنافسة فيهما بهذا الأسلوب البارع والإرشاد الحكيم .

وهذا المعنى مع دقته يحتاج إلى أداة شرط تفيد التعليق ، وهى ليست فى الحديث وهو لذلك بعيد ويزيده بعداً تفسير المراد من الحسد فى رواية أبى هريرة التى فيها أن جار قارىء القرآن لما سمعه تمنى أن يعلمه الله مثله فيعمل مثل عمله . وأن رجلا آخر تمنى أن يكون له مثل ما المسلط على هلكة ما له فى الحق ليعمل مثل عمله ، أما النعمتان المرادتان فى الحديث فهما : نعمة الحكمة يقضى بها صاحبها ويعلمها الناس . ونعمة المال يسلط صاحبه على هلكته فى الحق وسنشرحهما على الوجه الآتى :

(١) نعمة المال : المال كما ورد فى بعض الأحاديث نعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وهو كذلك نعم المورث للحمد والكاسب للمجد والذائد عن العرض والمعين على نوائب الايام ، وانفاق المال فى الحق هو تصريفه فى وجوه البر والخير حسبة لله تعالى وابتغاء مرضاته لا يريد من ورائه جزاء ولا شكورا ، ولا يصحبه بالمن والاذى ، وهو بهذا الاعتبار فضيلة تدل على شجاعة النفس وقوة الإيمان والاطمئنان للخير والتصديق بما وعد الله المحسنين من الجزاء وحسن الثواب ، فكيف إذا كان الانفاق هلكة للمال فى الحق واستئصالا له فى وجوه البر والمنفق مسلط على تلك الهلكة بوازع حثيث ، وسلطان قوى هو صوت الضمير الحى والنفس الرضية التى تؤثر حق الله على رفاهتها ، وتقدم دواعى الدين على داعى الهوى ، إذا تكون المثوبة العظمى والجزاء الاوفى . وإذا يكون هذا الصنيع هو المثل الاعلى لسمو النفس وقوة إيمانها والبر بالإنسانية . والاخذ بيد البائس والعانى وكشف الضرر والاذى عن كثير من الناس ، وإذا يكون هذا هو الذى ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون . ويغبط عليه الفاعلون . يقول الله تعالى : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) فأما احتجان المال وحبسه عن سبل البر والخير فهو نقيصة مبعثها وهن العزيمة ، وضعف الثقة بالله تعالى

وأما إنفاقه مصحوبا بالمن والأذى فهو دليل لؤم النفس وإمعانها فى الخسة والدناءة وهو محبط لثواب الإنفاق مضيع لثمرته كإنفاقه ابتغاء الشهرة ورئاء الناس، يقول الله تعالى فى ذلك «يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين» ألا وإن بعض صور الرياء الخفية فى الإنفاق قد يدق على كثير من الناس فيقع فيها من حيث لا يشعر فمن ذلك أن يتهلل وجهه بشراً وتطفح نفسه سروراً إذا نشر الفقراء سيرة إحسانه الخفى إليهم فى الناس وأذاعوه فى الندى. ومن ذلك أن يتمنى وهو ينفق فى الخفاء أن لو أطلع الناس على هذه الحسنة والسيرة المرضية ليعلموا عن نفسه أى النفوس هى شفقة ورحمة بالإنسانية !!

ومن المن والأذى والرياء جميعاً أن يدل على الفقراء الذين يحسن إليهم فيناديهم نداء الآمر المستبد ويلهبهم بسوط الحنق والنظر الشزر إذا لم يهطعوا إليه مسرعين ويقفوا عند مرآه خاشعين مخبتين.

٢ — نعمة الحكمة :

وهى النعمة الثانية فى الحديث، والحكمة العلم النافع وقد جاء فى بعض الروايات بدل «الحكمة»: «رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار وفى بعضها»: «ويتبع ما فيه».

وذلك كله تفسير للروايات المجملة ولا ريب فى أن القرآن الكريم هو منبع الحكمة الصافى، وموردها العذب والهادى إلى الحق والداعى إلى الصراط المستقيم. ومن أوتى القرآن يفهم دقائقه، ويكشف عن أسراره، ويصل إلى ما فيه من روائع الآيات الكونية وبدائع أحكام التشريع والاقتصاد والدعوة إلى المثل العليا لقواعد الأخلاق والاجتماع، ثم من أبصر كل ذلك فى القرآن واتبع ما فيه ودعا الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة فقد أوتى خيراً كثيرا

وحظا عظيما (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين — هذا وليس المراد فى الحديث الشريف بتلاوة القرآن آناء الليل وآناء النهار أن يلوك الإنسان ألفاظه الشريفة ويمضغها دون أن يفهمها ويتذوق حلاوتها ويهتدى إلى وجه الصواب فيها . وذلك أولا لما قدمنا من الروايات المبينة للمقصود . وثانياً لأن تلاوة القرآن على هذا الوجه ليست بالمفخرة التى يتنافس فيها ولا تصل بصاحبها إلى المستوى الرفيع الذى نوه به النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الأحاديث . نعم إن مجرد التلاوة لها فضل ولا تخلو من خير ولكنها لا تقاس بفضيلة الفهم فيه والفقه له . واجتلاء أسراره والاضطلاع بما يحويه من علوم وآيات .

وتلاوة القرآن على الوجه الذى نوه به الحديث واتباع إرشاده ودلالة الناس على ما فيه من خير ونور وفضيلة لا يحصل عليها إلا أولوا العزائم القوية والهمم السامية والنفوس النبيلة والأخلاق المرضية ، أولئك هم الأدلاء على الحق الرافعون لمنار الدين الآخذون بيد الإنسانية المعذبة .

وهم الذين ملأ الله قلوبهم إيمانا وطمأنينة وأولئك الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم تتنزل كلماتهم على القلوب الظمأى إلى الهدى بردا وسلاما وروحا وريحانا ، ينفع الله بهم الخلق ، ويحيى بهم النفوس المجدبة ، من الخير والفضيلة كما يحيى بالصيب من الغيث موات البلاد . وينير بهم الناس مفاوز الحياة ومسالكها ، فيسيرون على منار لا يضل معه سالك . ولا يهلك به مسترشد وهؤلاء الذين يستحقون الحبوة والرفعة . وأن ينافسهم الطامحون فى العلا . ويزاحموهم بالمناكب على هذه الذخائر النفيسة والكنوز القيمة . وعكس هؤلاء الذين يتلون كتاب الله لا يجاوز حناجرهم . ولا يبلغ نوره إلى قلوبهم . يتعلمون ما فيه من خير وبر وهم لا يبتغون بذلك إلا عرض الدنيا

والزلفى عند الناس وامتداد جاههم وبسط زعامتهم عليهم . وأمارة هؤلاء أن يعبدوا الهوى من دون الله ، وأن يلبسوا على الناس الحق بالباطل ، وأن يسلكوا السبل المعوجة ، والطرق الملتوية ، ما دام فى ذلك إرضاء شهواتهم والحصول على مطامعهم فى الحياة وفى هؤلاء وأمثالهم يقول القرآن الكريم « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ » .

وقد روى فى حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة أن منهم من آتاه الله نعمة المال الوفير لما سئل عن مصرفها فى الدنيا وما صنع فيها أجاب بأنه أنفقها فى سبيل البر والاحسان ، فيكذبه الله والملائكة ويسجل عليه الرياء لأنه كان ينفق ليقال : فلان جواد ، وقيل ذلك ، ثم يأمر به الى النار .

ومنهم من علمه الله القرآن والحكمة فنشر علمه فى الناس رياء وسمعة . فلا يقبل منه صرف ولا عدل ويؤمر به الى النار ، ولقد صدق من قال فى الرياء وذمه :

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا التحفت به فإنك عارى

كما أحسن من قال فى الجود لا يلحقه من ولا أذى :

وأحسن من نور تفتحه الصبا ... بياض العطايا فى سواد المطالب

هذا وفى رواية من روايات الحديث أن جاراً لصاحب القرآن سمعه فتمنى أن يعلمه الله مثل ما علم صاحبه ليعمل مثله فيؤتى ثوابه وكذلك تمنى رجل آخر مثل ما لصاحب المال من نعمة ليعمل مثل عمله فيفوز بمثل أجره .

وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم هذا النوع من التمنى ورضى عن هذا الضرب من الطماح ، بل جاء فى بعض الروايات أن لهذين المتمنيين مثل ما لصاحبيهما من ثواب وفوز وفى ذلك حث على التسابق الى الخير والتنافس فيه وإشادة بفضل النية الحسنة والآمال الطيبة ، لكننا نعلم أن الأمانى نوعان : أمانى

(أنظر صـ ٤٦ - صـ ١٠٤) ←
(قضية الإيمان والكفر)

كاذبة وأماراتها فى مثل مسألتنا أن صاحبها لو أوتى ما تمنى استطار شره وعاث فى الارض فساداً أو فى هذا النوع من الامانى يقول الشاعر :

إن الامانى والاحلام تضليل

وأمان صادقة وهى لا تكون إلا عن عقل وروية وأماراتها أن صاحبها لو أعطى ما يتمناه فإنه يصدق فى تنفيذ الاعمال التى كان علقها على تلك الامانى وفى مثل هذه وردت الاحاديث الدالة على إثابة أصحابها دون أن يعملوا عملا اللهم إلا نيتهم الحسنة وأمانيهم الطيبة .

قضية الإيمان والكفر(*)

مقدمة

١ ـ قضية الإيمان والكفر هى أخطر القضايا التى جاءت من أجلها الرسالات ، وهى أهم القضايا الإنسانية عامة ، لأنها تتصل بعلاقة الإنسان بربه ، التى هى أهم العلاقات التى يرتبط بها الإنسان مع غيره ، والأساس الذى يقوم عليه الإيمان والكفر هو الاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته التى لا يشاركه فيها أحد ، وعلى أساس هذا الاعتقاد تكون العقائد الأخرى . يقول الله سبحانه فى المهمة المشتركة التى أرسل من أجلها الرسل « وما أرسلنا من قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلا نُوحى إليه أنه لا إله إلا أناَ ، فاعْبُدُون » (١) ويقول « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (٢) والطاغوت هو الباطل مطلقا فى العقائد وغيرها .

وإذا كانتِ الأُمَمُ أو الدول أو الجماعات تقوم أكثرَ ما تقومُ على ما يُسَمَّى بالأيديولوجيات ، أى مجموعة العقائد والأفكار ، وعلى ضوئها تكون الصلة بينها قُرْباً أو بُعْداً ، اتفاقاً أو اختلافاً ، سِلْماً أو حَرْباً ، فإن هذا يُبْرِزُ أهميةَ العقيدةِ ودورَ الإيمانِ فى هذا المجالِ .

ومن أجل هذا لابد أن يكونَ الحديثُ عن الإيمانِ والكفرِ حديثاً دقيقاً يعتمد على الأدلةِ اليقينية والمنطقِ الصحيح ، وعلى وضوح الرؤية لكل مظهر مِنْ مظاهرِ القولِ والعملِ يتصلُ بالعقيدةِ بوجهٍ عامٍ .

٢ ـ هناك جملةٌ من الألفاظ تتصل بالعقيدة وبالحُكْمِ على سلوكِ الناس من جهة الإيمان والكفر ، ومن جهة الطاعة والعصيان ، لابد من تحديد المراد منها حتى يَصِحَّ الحُكْمُ عليها ، فإن الحكمَ على الشئ ، كما يقول علماء الفكر ، فَرْعٌ عَنْ تَصَوُّرِه ، ذلك أن اللفظَ الواحدَ قد تكون له مَعَانٍ موضوعة له أو موضوعٌ لها . كلفظ العين الموضوع للباصرة وللذهب وللماء التابع مِنَ الأرضِ وللجَاسُوسِ وغيرِهَا ، وكلفظِ الفتنة الموضوعِ للامتحانِ وللعذاب وللكفر

١ ـ سورة الأنبياء ٢٥ ٢ ـ سورة النحل ٣٦

(*) من كتاب " بيان للناس " الصادر عن جامعة الأزهر ج١ « ملزمة ٨ »

وغيرها ، كما أن اللفظ قد يطلق ويراد به معناه الوضعي الحقيقي وقد يراد به المعنى المجازي ، كلفظ الأسد يطلق ويراد به الحيوان المفترس المعروف ، وقد يراد به الرجل الشجاع لشبهه به في الشجاعة .

والقرآن الكريم والسنة النبوية قائمان على اللغة العربية ، فقد نزل القرآن بها كما قال سبحانه « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » (١) والسنة النبوية بأقوالها وأفعالها وكل ما يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم كانت ونقلت إلى الأجيال باللغة العربية ، فما أرسل الله رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم كما جاء في سورة إبراهيم (٢) والتراث الإسلامي بكل أنواعه أسس ونقل باللغة العربية أولا وقبل كل شيء ، وما جاء في كتب الكلام والفقه مما يتصل بالعقائد والسلوك هو باللغة العربية في نشأته الأولى ، واللغة العربية كما نعرف مليئة بالألفاظ المشتركة والمترادفة وبالمعاني الحقيقية والمجازية ومن هنا كان من الواجب عند البحث ووضع الأحكام أن يراعى تحديد المراد من الألفاظ تحديدا يوفر الجهد على كثير من الكتاب والباحثين عندما يتناولون قضية ربما لا يلتقيان فيها على معنى واحد ، فيصدر كل منهم حكما في ظاهره التناقض أو التعارض مع غيره وربما لا يكون كذلك إذا عرفنا أن كلا يقصد غير ما يقصده الآخر .

وإذا كان الأمر كذلك فلابد من تحديد المراد من الألفاظ الآتية وهي : الدين ، الإيمان ، الإسلام ، الكفر ، الفسوق ، العصيان ، النفاق .

أولا : الديـــن

الدين : في اللغة لفظ مشترك بين عدة معان ، قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع ، ودان إذا عصى ، ودان إذا عز ، ودان إذا ذل ، ودان إذا قهر ، فهو من الأضداد ، ويطلق الدين على العادة والشأن (٣) .

---

١ ــ سورة الشعراء ١٩٢ ــ ١٩٥ .　　٢ ــ سورة ابراهيم ٤

٣ ــ تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٤

والمراد بالدين فى الاصطلاح وضع إلهى شرع لاسعاد الناس فى معاشهم ومعادهم . أى فى دنياهم وأخراهم التى يعودون فيها إلى الله ، وهو المراد بالهدى الذى نبه الله عليه سيدنا آدم عليه السلام عندما أهبطه إلى الأرض كما جاء فى قوله تعالى « اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (١) .

وإسعاد الناس فى الآخرة معروف أنه بالفوز بنعيم الجنة ، على حد قوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (٢) .

وإسعادهم فى الدنيا يكون بتوفية مطالبهم المادية والروحية ، بحيث لا يضلون ولا يشقون ، كأفراد وجماعات ، ومما جاء مؤكدا لسعادة الدارين قوله تعالى « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣) .

وهذا الوضع الإلهى الذى جعله الله هدى لآدم وذريته جاءت به الرسل وحيا من الله حتى انتهى إلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٤) وقال « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ..» إلى أن قال «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (٥) .

وإذا كان الدين واحدا لا يتعدد باعتبار وحدة مصدره وهو الله سبحانه فإنه يمكن أن يتعدد باعتبار الرسل الذين حملوه والأقوام الذين كلفوا به : وهنا يمكن جمع الدين على أديان وهى كلها تتحد أيضا فى الأصول التى جاءت بها وتختلف فى بعض الفروع التى تتناسب مع ظروف الزمان والمكان .

١ ـ سورة طه ١٢٣ ـ ١٢٤
٢ ـ سورة آل عمران ١٨٥
٣ ـ سورة النحل ٩٧
٤ ـ سورة الشورى ١٣
٥ ـ سورة النساء ١٦٣ ـ ١٦٥

وفى ظل وحدة الأديان أخذ الله الميثاق على جميع الأنبياء، أن يصدق بعضهم بعضا فيم يدعون إليه من الأصول ، قال تعالى « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (١) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (٢) وأمره هو وأمته أن يؤمنوا بما أنزل الله على كل الرسل السابقين قال تعالى « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٣) وقال « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبييون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٤) .

هذا ، وكما سبق ، قد يضاف الدين إلى الرسل وإلى أقوامهم ، ويطلق عليه أحيانا اسم « ملة » (٥) كما قال تعالى حكاية عن يوسف « واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء » (٦) وقال مخاطبا أمة محمد « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ... » (٧) وقال مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (٨) .

ويطلق على الدين الذى وضعه الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم اسم « الإسلام » كما قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى

---

١ ـ سورة آل عمران ٨١
٢ ـ سورة المائدة ٤٨
٣ ـ سورة آل عمران ٨٤
٤ ـ سورة البقرة ١٣٦
٥ ـ أنظر كتب الملل والنحل
٦ ـ سورة يوسف ٣٨
٧ ـ سورة الحج ٧٨
٨ ـ سورة النحل ١٢٣

ورضيت لكم الإسلام دينا » (١) وقال « إن الدين عند الله الإسلام » (٢) وقال « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٣) وذلك فى مقام دعوة أهل الكتاب والناس جميعا إلى الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك أن الأديان السابقة كانت خاصة بأقوامها وينتهى العمل بها عند مجىء نبى آخر ، أما دين الإسلام فهو الدين العام الذى لا يخص أقواما بأعيانهم ، والخالد الذى لا تنسخه رسالة أخرى ، فهو خاتمتها إلى يوم القيامة ، قال تعالى « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (٤) وقال « قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا » (٥) وقال « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا » (٦) وقال « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٧) وقال صلى الله عليه وسلم « كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وختم بى النبيون » (٨) .

وعموم الإسلام وخلوده لأنه اشتمل على كل عناصر الكمال والتمام التى استوعبت حاجات الناس جميعا فى العقائد والسلوك ، وتواكبت مع رقى العقل البشرى وتطور المجتمع الإنسانى ، قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٩) .

والدين عامة يقوم على دعامتين أساسيتين ، هما العقيدة والشريعة ، وقد يطلق على العقيدة اسم الإيمان ، وعلى الشريعة اسم الإسلام ، والعقيدة عمل القلب والشريعة عمل الجوارح ويدل على قيام الدين عليهما قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل وسؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

---

١ ـ سورة المائدة ٣
٢ ـ سورة آل عمران ١٩
٣ ـ سورة آل عمران ٨٥
٤ ـ سورة الفرقان ١
٥ ـ سورة الأعراف ١٥٨
٦ ـ سورة آل عمران ٢٠
٧ ـ سورة الاحزاب ٤٠
٨ ـ رواه البخارى ومسلم
٩ ـ سورة النحل ٨٩

ثانيا الإيمان

الإيمان فى اللغة مصدر آمن ، ومعناه التصديق ، قال تعالى حكاية لقول أخوة يوسف لأبيهم « وما أنت بمؤمن لنا وإن كنا صادقين » (١) أى ما أنت بمصدق لنا حين حدثناك أن الذئب أكل يوسف . وهو كما يتعدى بالباء يتعدى باللام ، كما قال تعالى « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » (٢) وقال « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه » (٣) . ومعناه فى الشرع تصديق القلب تصديقا جازما بكل ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما علم مجيئه من الدين بالضرورة ، وهذا التعريف هو الذى اختاره المحققون من علماء الكلام ، ولم يشترطوا فى التصديق أن يكون عن دليل ، وذلك ليدخل المقلد فى عداد المؤمنين .

قال النووى (٤) : مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادا جازما لا تردد فيه كفاه ذلك ، وهو مؤمن من الموحدين ، ولا يجب عليه تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله تعالى بها ، خلافا لمن أوجب ذلك وجعله شرطا فى كونه من أهل القبلة وزعم أنه لا يكون له حكم المسلمين إلا به ، وهذا المذهب هو قول كثير من المعتزلة وبعض أصحابنا المتكلمين ، وهو خطأ ظاهر ، فإن المراد التصديق الجازم ، وقد حصل ، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم اكتفى بالتصديق بما جاء به صلى الله عليه وسلم ولم يشترط المعرفة بالدليل ، فقد تظاهرت بهذا أحاديث فى الصحيحين يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعى .

والتصديق محله القلب وذلك بعد العلم والمعرفة بالعقل ، فالقضية العقلية لابد أن يغلفها الوجدان وتترك أثرها فى القلب حبا أو بغضا ، والإيمان بمعنى التصديق يرادف الاعتقاد ، ومتعلق الإيمان والاعتقاد يسمى عقيدة ، فالتصديق بوجود الله اعتقاد ، ووجود الله عقيدة ، والتصديق بوحدانية الله

---

١ ـ سورة يوسف ١٧

٢ ـ سورة آل عمران ٧٣

٣ ـ سورة يونس ٨٣

٤ ـ صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٠

اعتقاد ووحدانيته عقيدة ، ومن هنا جاز أن نقول : العقائد هى وجود الله ووحدانيته ألخ ما يجب اعتقاده ، وهذه العقائد جاء أكثرها فى قول الله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » (١) وقول النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لسؤال جبريل عن الإيمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » (٢) .

والاعتقاد بوجود الله يثبت بالنظر والفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، أى يثبت بالدليل العقلى لا الدليل النقلى ، حتى لا يترتب عليه الدور ، وهو توقف الشىء على ما يتوقف على هذا الشىء ، وهو محظور فى عرف المناطقة ، لأن الدليل النقلى من الكتاب والسنة فرع الإيمان بالله وبالكتب التى أنزلها على رسله ، أما العقائد الأخرى فتثبت بالدليل القطعى فى ثبوته وفى دلالته ، وذلك من القرآن والسنة .

والقرآن قطعى الثبوت ، وكذلك قطعى الدلالة فى العقائد . أما السنة النبوية فهى قطعية الثبوت فى المتواتر منها وفى الأحاديث القوية التى لم يبلغ رواتها مبلغ التواتر على خلاف بين العلماء فى ذلك . والدلالة فى أغلبها ظنية .

والحديث المتواتر كل خبر بلغت رواته فى الكثرة مبلغا تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، يقول علماء الأصول : إن الخبر من حيث هو خبر محتمل للصدق والكذب مطلقا ، لكن قد يقطع بصدقه أو كذبه لأمور خارجة ، وقالوا : إن الخبر الذى يقطع بصدقه أقسام ، جعلوا منها : خبر الله تعالى لأن الصدق صفة كمال فيه ، وخبر الرسول فى دعواه الصدق فى كل الأمور وظهور المعجزة عقب هذه الدعوى ، وخبر كل الأمة ، والخبر المتواتر .

وقالوا لا تثبت العقيدة بأى حديث منسوب إلى النبى صلى الله عليه

---

١ ـ سورة البقرة ٢٨٥ ٢ ـ رواه البخارى ومسلم

وسلم لأن بعض ما نسب إليه مكذوب ، « سيكذب على » ولأن منه مالا يقبل التأويل فيمتنع صدوره عنه ، وذلك بسبب نسيان الراوى أو غلطه أو افتراء الملاحدة ، والذى يظن صدقه هو خبر الواحد العدل ، أى الذى لم يبلغ حد التواتر ولا حد الشهرة على رأى الحنفية ، وهو يترجح احتمال صدقه ويجب العمل به عند الجمهور . وقد قرر الكثيرون أن ما فى صحيحى البخارى ومسلم يفيد القطع بثبوته (١) .

والعقيدة لها أثرها فى النفس ، فهى قوة تدفع إلى العمل ، ورقيب يساعد على الاتقان والإجادة ، ودليل يهدى من الضلالة ويقى من الزلل .

قال تعالى « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (٢) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (٣) .

ولها أثرها فى الحكم على سلوك الإنسان ومعاملة الناس له ، كما أن لها أثرها فى الآخرة فى دخول الجنة وعدم الخلود فى النار على خلاف سيأتى توضيحه بعد .

ما يتحقق به الإيمان

لقد كثر الكلام قديما وحديثا فيما يتحقق به الإيمان للمؤمن ، وأثر هذا الوصف فى الدنيا والآخرة ، ودار الكلام حول العلاقة بين تصديق القلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح ، فى معاملة الناس بعضهم لبعض وفى عدم خلودهم فى النار ودخولهم الجنة . وفى هذا ثلاثة مذاهب .

١ ـ مذهب يكتفى بمجرد الإقرار باللسان بأنه مؤمن حتى لو لم يكن معه تصديق بالقلب ولا عمل بالجوارح ، كما حصل فى الأزل عندما قال

---

١ ـ راجع الحجيات ، وراجع الباعث الحثيث وتعليق الشيخ شاكر عليه .

٢ ـ سورة التغابن ١١ ٣ ـ رواه البخارى ومسلم

تعالى « ألست بربكم قالوا بلى » (١) وهو باق فى الكل إلا المرتدين ، وإيمان المنافق كإيمان الأنبياء ، والشهادتان ليستا بإيمان إلا بعد الردة والقائل بهذا هو أبو عبد الله محمد بن كرام وأصحابه المعروفون بالكرامية (٢) .

وهذا المذهب ، كما قال المحققون ، لاحظ له من النظر ، فكيف يكتفى هؤلاء فى الإيمان بالإقرار مع أن الإيمان يوصف به المؤمن الذى صدق بقلبه ولم يقر بلسانه ، قال تعالى « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (٣) وجاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تفيد أن المقر بلسانه ولم يقر بقلبه كافر مخلد فى النار وقد أجمعت الأمة على كفر المنافقين كما حكم القرآن بكفرهم ، قال تعالى فى المنافقين « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » (٤) وقال « وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » (٥) وقال الله فيهم « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » (٦) .

وقد نفى الله الإيمان عمن قالوا آمنا بألسنتهم ، فقال « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » (٧) وكذلك قال فى الأعراب « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » (٨) .

والاكتفاء بالقول هو لحكم الناس عليهم بالإيمان ، أما فى الآخرة فلا يصح الاكتفاء به .

٢ ــ مذهب يشترط مع الإقرار باللسان التصديق بالقلب ، والقائل به

١ ــ سورة الأعراف ١٧٢
٢ ــ المواقف ص ٢٤٩
٣ ــ سورة النحل
٤ ــ سورة التوبة ٨٤
٥ ــ سورة آل عمران ١٦٧
٦ ــ سورة النساء ١٤٥
٧ ــ سورة البقرة ٨
٨ ــ سورة الحجرات ١٤

هو غيلان الدمشقى والفضل الرقاشى ، لكن يبدو أن هذا الشرط هو فى معاملة الله للمقر بلسانه وفى قبول الأعمال ، إلى جانب حكم الناس على الإنسان بالإيمان ومعاملتهم له على هذا الأساس . وعلى هذا القول من صدق بقلبه دون أن يقر بلسانه فهو غير مؤمن ، ولا ينبغى أن يكون هذا بالنسبة لمعاملة الله له ، فإن الله سبحانه قد حكم بالإيمان لمن صدق بقلبه حتى لو لم يقر بلسانه ، كما سبق فى بيان الرد على المذهب السابق ، والنبى صلى الله عليه وسلم عندما بين الإيمان لجبريل لم يذكر الإقرار باللسان ولم يجعله ركنا ولا شرطا فيه ، وإنما ذكره فى إجابته عن الإسلام . ونسب هذا القول لأبى حنيفة (١) .

٣ ـ مذهب يقول : إن الإيمان مركب من التصديق بالقلب ومن الإقرار باللسان ومن الأعمال التكليفية ، ويعبر عنه أحيانا بقولهم : تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان . والقائلون به هم أصحاب الحديث والأئمة مالك والشافعى وأحمد ، والمعتزلة والخوارج . لكنهم اختلفوا فى منزلة هذه الأجزاء التى يركب منها الإيمان ، فقالت المعتزلة والخوارج : إنها أصلية إذا انعدم أحدها انعدم الإيمان ، غير أن المعتزلة قالوا : إذا انعدمت الأعمال خرج الشخص من الإيمان ولم يدخل فى الكفر . فأثبتوا منزلة بين المنزلتين وسموا صاحبها فاسقا ، والخوارج قالوا : إذا انعدمت الأعمال خرج الشخص من الإيمان إلى الكفر .

أما المحدثون والأئمة الثلاثة فقالوا : إذا انعدم التصديق القلبى انعدم الإيمان المنجى من الخلود فى النار ، وإذا انعدم الإقرار باللسان انعدم الإيمان المستتبع لإجراء الأحكام الدنيوية دون المنجى من الخلود فى النار ، وإذا انعدمت الأعمال انعدم كمال الإيمان ، فالأعمال عندهم جزء مكمل لا أصلى ، كاليد بالنسبة لجسم الإنسان ، فإنها وإن كانت جزءا منه لكنها إذا انعدمت لا ينعدم الجسم ، وإن صار بانعدامها مشوها . ومذهب المحدثين والأئمة الثلاثة هو المذهب المعتمد .

---

١ ـ المواقف ص : ٣٨٤

إن المعتزلة والخوارج اعتمدوا فى نفى الإيمان عن الذى يترك عملا من الأعمال على ظواهر بعض الآيات والأحاديث ، وغفلوا عن الآيات المخصصة لها وعن الأحاديث المعارضة لما استشهدوا به ، نظروا إلى نصوص الوعيد وفهموها على عمومها الظاهر وسووا بين معصية الشرك وباقى المعاصى كقوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » (١) وقوله « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » (٢) وكقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٣) وزاد النسائى فى رواية « فإذا فعل ذلك خلع ربقة الإسلام من عنقه ، فإن تاب تاب الله عليه » .

لقد تمسكوا بظواهر هذه النصوص وأمثالها وهم يعلمون أن ابن آدم خطاء ، أى غير معصوم من الخطأ والتقصير ، فهو ليس ملكا ، وعلى هذه الشاكلة خلقه ربه ، وغفلوا عن نصوص صريحة فى أن العاصى بغير الشرك يطلق عليه اسم المؤمن ، كما قال تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (٤) حيث وصفهم الله بالإيمان مع عصيانهم بالقتال ، وكما قال « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار (٥) حيث ناداهم الله بوصف الإيمان وطلب منهم التوبة ليكفر عنهم السيئات ، وقال تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » (٦) فسمى الله الجميع مصطفين ، وفيهم المقصر بفعل بعض المعاصى وهو الظالم لنفسه ، ومنهم المقتصد وهو الفاعل للأوامر والمجتنب للمعاصى مقتصرا على الواجب ، ومنهم السابق الذى زاد على المقتصد بفعل النوافل .

---

١ ـ سورة النساء ١٤
٢ ـ سورة النساء ٩٣
٣ ـ رواه البخارى ومسلم
٤ ـ سورة الحجرات ٩
٥ ـ سورة التحريم ٨
٦ ـ سورة فاطر ٣٢

وقيل إن هذه القسمة بحسب الثواب فى الآخرة ، فالظالم لنفسه من زادت سيئاته على حسناته ، والمقتصد من تساوت حسناته وسيئاته والسابق من زادت حسناته على سيئاته .

وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » إلى أن قال « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (١) فأعطاهم الله اسم الفسق لا الكفر ، وإن كان الفسق يعمه لأنه خروج عن الطاعة عقيدة أو عملا ، لكنه هنا للعمل لأن الآية فى السلوك لا فى العقيدة ، حيث ناداهم الله بوصف الإيمان ، والذين لم يتوبوا ظالمون ، والظلم قد يكون مثل « إن الشرك لظلم عظيم » (٢) وقد يكون بغيره وهو عدم العدل ، وهو المراد هنا ، أو ظالمون لأنفسهم بالتسبب فى العقاب « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » (٣) .

وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى ذر المعروف ونصه قال أبو ذر : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ فقال « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال «وإن زنى وإن سرق» قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى ذر» (٤) فخرج أبو ذر وهو يقول « وإن رغم أنف أبى ذر » وفى رواية للبخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتانى جبريل فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق (٥) .

وكذلك حديث « ثلاث من أصل الإيمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله ، لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض مذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ،

---

١ ــ سورة الحجرات ١١ ٢ ــ سورة لقمان ١٣
٣ ــ سورة الطلاق ١
٤ ــ رواه البخارى ومسلم (النووى على مسلم ج ٢ ص ٩٤) .
٥ ــ تسلية أهل المصائب المنجبى ص ٢٠٨

والإيمان ، بالأقدار » (١) وحديث عبادة بن الصامت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا يعضه بعضنا بعضا ، أى لا يرمى أحدنا الآخر بالكذب والبهتان ، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أتى منكم حدا فأقيم عليه فهو كفارة له، ومن ستر الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » (٢) .

فالذى أتى الحد والذى ستر الله عليه خطأه لم يخرج عن كونه مؤمنا ، وكذلك من أذنب ثم تاب لا يكون غير مؤمن ، بل يرفع الله قدره ، قال تعالى بعد ذكر ذنوب كثيرة « ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » (٣) .

وقد جعل الله من يذنب ثم يتوب فى عداد المتقين وهم صفوة المؤمنين فقال سبحانه « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » (٤) .

وإذا كان الله جعل من لم يتب فى عذاب مضاعف يخلد فيه مع الإهانة فإنه جعل هذا العذاب لذنوب على رأسها الشرك ، لأن أول الآية « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر .. » فالعذاب الموحد لجرائم موحدة التقدير ، فالشرك والكبائر الأخرى التى لها هذا العذاب الموحد المرصد للمشركين لابد أن يكون لمن كفر بارتكابها أى اعتقد أنها حلال ، وهذا أولى من التشقيق وجعل العذاب

---

١ _ رواه أبو داود . وإن كان فى إسناده ضعف فله شواهد تقوية (نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٢) .
٢ _ رواه البخارى ومسلم (الشوكانى ج ٧ ص ٥٦) .
٣ _ سورة الفرقان ٦٨ _ ٧١ ٤ _ سورة آل عمران ١٣٣ _ ١٣٦

الخالد للشرك ، وتأويله بطول المدة والشدة لغير الشرك ، وقد يراد التنفير من ارتكابها بالتخويف من عذاب هو عذاب الشرك .

وجاء فى الصحيحين مرفوعا حديث أبى سعيد الخدرى فى إخراج الملائكة ناسا من النار ، وإخراج الله ناسا آخرين وإعطائهم ملكا عظيما فى الجنة ، وكذلك حديث الشفاعة الذى رواه مسلم فى آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة ، وأن الله يعطيه مثل ملك أعظم ملك وعشرة أمثاله .

يقول أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجى الحنبلى من علماء القرن الثامن الهجرى : مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والخلف أن من مات موحدا أدخل الجنة قطعا على كل حال ، فإن كان سالما من المعاصى كالصغير والمجنون والتائب توبة نصوحا من الشرك أو غيره من المعاصى إذا لم يحدث معصية بعد توبته ، ومن نشأ فى عبادة الله ولم يقارف معصية أصلا — كل هؤلاء يدخلون الجنة ولا يدخلون النار ، ولكنهم يردونها على الخلاف المعروف فى الورود . وأما من مات من أهل المعاصى أو له معصية كبيرة ولم يتب منها فهو داخل تحت المشيئة ، إن شاء عذبه بمقدار ذنبه أو القدر الذى يريده ثم يدخله الجنة ، وإن شاء عفا عنه مطلقا ، فلا يخلد أحد فى النار مات على التوحيد ولو عمل من المعاصى أى عمل .

وثبت مرفوعا فى الصحيح عن عثمان رضى الله عنه « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » قال القاضى عياض : اختلف الناس فيمن عصى الله تعالى من أهل الشهادتين ، فقالت المرجئة : لا تضره المعصية مع الإيمان ، وقالت الخوارج : تضر ويكفر بها ، وقالت المعتزلة : يخلد فى النار إذا كانت كبيرة ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر ، لكنه فاسق ، وقالت جماعة من العلماء : بل هو مؤمن وإن لم يغفر له وإن عذب فلابد من إخراجه من النار وادخاله الجنة .

قال : وهذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة ، وأما المرجئة فإن احتجبت بظاهره قلنا : نحمله على أنه غفر له وأخرج من النار بالشفاعة ثم

أدخل الجنة ، ويكون معنى قوله عليه السلام « دخل الجنة » أى دخلها بعد مجازاته بالعذاب ، وهذا لابد من تأويله لما جاء فى ظواهر كثيرة من عذاب العصاة . انتهى كلامه » (١) .

نخلص من هذا إلى بطلان قول المعتزلة فى سلب الإيمان عمن قصر فى العمل وقول الخوارج فى الحكم بكفره وخلوده فى النار ، ويبقى الرأى الصحيح وهو أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وهذا القدر كاف فى عدم خلوده فى النار وفى دخوله الجنة ولو بعد العذاب ، وأما الإقرار باللسان فهو لكمال الإيمان بحيث إذا قصر لا يسلب عنه وصف الإيمان ولكن يقال : إنه مؤمن ناقص الإيمان .

وإلى جانب النصوص التى مرت فى الدلالة على أن القلب هو محل الإيمان ، يقول الله تعالى « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا » (٢) ففى صدر الآية نص على أن الإيمان يكون بالقلب ، وفى عجزها نص على أن الكفر يكون بشرح الصدر ويراد به القلب ، والإيمان والكفر متضادان ، والتضاد لابد فيه من اتحاد المحل وهو القلب ، وكذلك قوله تعالى « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » (٣) وقوله للأعراب ، كما سبق « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » ، وقوله « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم » (٤) ، وقوله لسيدنا إبراهيم عليه السلام « أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » (٥) وقول النبى صلى الله عليه وسلم لأسامة وقد قتل فى سريته إلى الحرقة ـ بطن من جهينة ـ رجلا قال لا إله إلا الله ، واعتذر أسامه بأنه قالها لينجو من القتل « هلا شققت عن قلبه » (٦) وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة » (٧) .

١ ـ تسلية أهل المصائب ص ٢٠٧
٢ ـ سورة النحل ١٠٦
٣ ـ سورة المجادلة ٢٢
٤ ـ سورة الحجرات ٧
٥ ـ سورة البقرة ٢٦٠
٦ ـ رواه البخارى ومسلم
٧ ـ رواه البخارى

فالقلب مستقر الإيمان كما تدل عليه اللغة التى نزل بها القرآن ، ولو كان له معنى غير ذلك لبينه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما بين أن الصلاة ، ولو أن معناها فى اللغة الدعاء ، يراد بها الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم ، وكذلك الصيام والزكاة والحج . لما كان المراد بها فى الشرع غير ما تدل عليه اللغة بين ذلك ولم يثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم نقل معنى الإيمان من التصديق إلى معنى آخر ، ولوثبت لنقل متواترا واشتهر المعنى المنقول إليه ، لتوافر الدواعى على نقله ، لأنه من الألفاظ التى يكثر دورانها على الألسنة .

ثالثا : الإسلام

الإسلام فى اللغة يعطى معنى التسليم والخضوع والاستسلام لأى شىء، حسيا كان أو معنويا ، فيقال : فلان أسلم زمام أمره لفلان ، أو أسلم نفسه للهوى والشيطان ، ويدخل فيه الاستسلام والخضوع لله سبحانه وتعالى ، وذلك بالإيمان به وحده خالقا ومنعما ومحاسبا ، وبطاعته فيما يأمر به وينهى عنه. ومنه قوله تعالى « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » (١) وقوله تعالى على لسان ملكة سبأ « رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (٢) وما ورد على لسان بعض الأنبياء فيما حكاه القرآن الكريم من مثل قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام « وأمرت أن أكون من المسلمين » (٣) وفى قصة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (٤) ، وفى شأن ابراهيم ويعقوب وأولاده « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (٥) وفى قصة يوسف عليه السلام « أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » (٦) وعلى لسان موسى عليه السلام « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » (٧) « ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » (٨) .

وبهذا الإطلاق اللغوى للإسلام يكون جميع الأنبياء مسلمين ، لأنهم خضعوا واستسلموا لله قلبا وقالبا ، عقيدة وشريعة ، وقد سبق أن الإسلام يطلق على الدين الذى جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعقائده وجميع تكاليفه .

---

١ ـ سورة لقمان ٢٢
٢ ـ سورة النمل ٤٤
٣ ـ سورة يونس ٧٢
٤ ـ سورة البقرة ١٢٨
٥ ـ سورة البقرة ١٣١
٦ ـ سورة يوسف ١٠١
٧ ـ سورة يونس ٨٤
٨ ـ سورة الأعراف ١٢٦

حديث قدسي معنى عبارة الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره [illegible] في هذا الحديث [illegible]
مسلم ص ٤٦ - ص ١٠٤

وعلى ضوء ما تقدم ذكره فى الإيمان يطلق الإسلام فى اصطلاح المتكلمين على ما يقابل التصديق بالقلب ، أى العمل بالجوارح ، أخذ من إجابة النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل حين سأله عن الإيمان والإسلام ، حيث قال عن الإيمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » وعن الإسلام « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » (١) .

وكما جاء فى حديث « بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإيقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » (٢) .

فالإيمان والإسلام متغايران معنى ومفهوما ويؤيد ذلك قوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » (٣) .

وقوله تعالى « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » (٤) فالعطف يقتضى التغاير ، ومثله ما ورد عن عامر بن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطا ، وسعد جالس ، فترك رسول الله رجلا هو أعجبهم إلىَّ ، فقلت : يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إنى لأراه مؤمنا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أو مسلما » فسكت قليلا ثم غلبنى ما أعلم فعدت لمقالتى وعاد رسول الله ثم قال « ياسعد إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله فى النار » (٥) .

ولضرورتهما فى تكوين شخصية المسلم وتحقيق الغاية من الدين ، قد يعبر عن المؤمن بالمسلم وعن المسلم بالمؤمن ، كما فى قوله تعالى « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » (٦) وقد

---

١ ـ رواه البخارى ومسلم
٢ ـ رواه البخارى ومسلم
٣ ـ سورة الحجرات ١٤
٤ ـ سورة الأحزاب ٣٥
٥ ـ رواه البخارى
٦ ـ سورة الذريات ٣٥ ، ٣٦

يفسر الإيمان بالأعمال الظاهرة التى يقوم عليها الإسلام كما سبق فى حديث وفد عبد القيس (١) وحديث « الإيمان بضع وستون شعبة ، أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » وقد سبق أيضا (٢) .

وبهذا يفهم ما يقوله بعض العلماء عن العلاقة بين الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، يعنى إذا ذكرا معا كان لكل منهما معناه الخاص الذى يختلف به عن الآخر ، وإذا ذكر واحد منها فى مقام واحد دون الآخر كان معناهما واحد .

على أن كلا من الإيمان والإسلام لازم للآخر بمعنى أن الإيمان لازم لقبول الإسلام عند الله ، فلا يقبل عمل بدون عقيدة ، كعمل المنافقين ، وإن كان الإيمان غير لازم لمعاملة الإنسان لغيره ، فإن ما فى القلوب لا يعلمه إلا الله، والإسلام لازم ليدل على الإيمان عند تعامل الناس بعضهم مع بعض ، وأقله الإقرار باللسان ، وإن كان غير لازم ليدل على أنه مؤمن عند الله .

يقول أبو عمرو بن الصلاح فى شرح حديث جبريل عن الإيمان والإسلام : هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن . وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ، وحكم الإسلام فى الظاهر ثبت بالشهادتين ، وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والحج والصوم لكونهما أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده — إن تركها كلها — أو اختلاله — إن ترك بعضها . ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام فى هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذى هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات وحافظات له ، ولهذا فسر صلى الله عليه وسلم الإيمان فى حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان واعطاء الخمس من المغنم ، ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو بدل فريضة ، لأن اسم الشىء مطلقا يقع على

---

١ — ص ١٢٩ ٢ — ص ١٣٠

الكامل منه ، ولا يستعمل فى الناقص ظاهرا إلا بقيد ، لذلك جاز إطلاق نفيه عنه فى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » واسم الإسلام يتناول أيضا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن ويتناول أصل الطاعات ، فإن ذلك كله استسلام ثم قال ابن الصلاح : فخرج مما ذكرنا وحققنا ، أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان ... (١) .

لعلنا لاحظنا فى كلامه أن العمل ليس جزءا من أصل الإيمان ، بل من كمال الإيمان ، فمن أدى كل الواجبات فهو مؤمن كامل ، ومن قصر فهو مؤمن ناقص الإيمان .

---

١ ــ شرح النووى على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٧

رابعا : الكفر

الكفر فى اللغة يعطى معنى الستر ، ووصف الليل بالكافر لأنه يستر الأشخاص بظلامه ، كما وصف الزارع بالكافر لستره البذر فى الأرض ، قال تعالى « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما » (١) .

وهو في لسان الشرع يطلق على معنيين ، أحدهما كفر عقيدة والآخر كفر عمل ، فكفر العقيدة عدم الإيمان بما يجب الإيمان به من وجود الله ووحدانيته وبما يجب له من صفات الكمال والجلال ، وبالعقائد الأخرى . وكفر العمل جحد المعروف وعدم شكره ، ومنه قوله تعالى « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » (٢) وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى النساء « ورأيت النار فلم أرى كاليوم منظرا قط ورأيت أكثر أهلها النساء » قالوا بم يا رسول الله ؟ قال « بكفرهن » قيل : أيكفرن بالله ؟ قال « يكفرن العشير ويكفرن الاحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط » (٣) .

وأخطره جحد نعمة الله ، وهو يتحقق بإحدى صورتين ، الأولى إنكار أنها من الله سبحانه ، وهو كفر عقيدة كالذى حدث من قارون عندما قيل له « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » كان جوابه « إنما أوتيته على علم عندى » (٤) .

وكان من أسلوب القرآن فى الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لفت نظر الناس ـ بعد الإعجاب بقدرته ـ إلى الإحساس بنعمة الله التى لا يملكها غيره ، فهو يطلب منهم التفكير فيمن أنعم بها والإيمان بوجوده كشكر عليها،

---

١ ـ سورة الحديد ٢ — ٢ ـ سورة الأنبياء ٩٤

٣ ـ رواه مسلم — ٤ ـ سورة القصص ٧٧ ـ ٧٨

وذلك ملاحظ فى أوائل سورة النحل (١) وفى آيات من سورة النمل (٢) ، ومن سورة الواقعة (٣) وغيرها .

والصورة الثانية من جحد نعمة الله اساءة التصرف فيها ، وعقوبتها شديدة كما أن شكرها ثوابه عظيم يظهر ذلك فى قوله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد (٤) وإن كان يمكن حمل هذه الآية على الإيمان بالله والكفر به وكذلك قوله تعالى فى شأن سليمان عليه السلام لما حضر له عرش ملكة سبأ « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم » (٥) فهى أظهر فى كفر النعمة لبعد تصور الكفر بالله فى حق سليمان .

جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى أن « الكفران » أكثر استعمالا فى جحود النعمة ، وأن « الكفر » أكثر استعمالا فى العقيدة ، وأن « الكفور » فيهما جميعا ، والكفار فى جمع الكافر المضاد للإيمان أكثر استعمالا « أشداء على الكفار » (٦) والكفرة فى جمع كافر النعمة أكثر استعمالا « أولئك هم الكفرة الفجرة » (٧) ألا ترى أنه وصف الكفرة بالفجرة ، والفجرة قد يقال للفساق من المسلمين .

لعلنا نعرف من هذا العرض لما يطلق عليه الكفر أن اللفظ الواحد قد تكون له عدة معان ، وأن لكل منها آثاره وأحكامه ، وأن تحديد المراد من اللفظ لابد منه لإمكان الوصول إلى الحكم الصحيح ، وأن استعمال معنى مكان معنى آخر قد يترتب عليه آثار خطيرة منها إخراج الإنسان من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر ، وما أخطر ذلك كما سيأتى بيانه .

---

١ ـ سورة القصص ٧٧ ـ ٧٨
٢ ـ ٣ ـ ١٨
٣ ـ ٥٩ ـ ٦٤
٤ ـ سورة ابراهيم ٧
٥ ـ سورة النمل ٤٠
٦ ـ سورة الفتح ٢٩
٧ ـ سورة عبس ٤٢

إن الكفر العملى بعدم شكر النعمة معصية تعالج بالأسلوب الذى تعالج به المعاصى الأخرى على ضوء قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) وقول النبى صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (٢) .

أما كفر العقيدة فنوعان ، أحدهما كفر لم يسبقه إيمان ، والواجب علينا دعوة الكافر إلى الإيمان ، فإن أسلم فبها وإلا طالبناه بعدم التعرض للدعوة ، فإن أبى قوتل ، وإباؤه قد يكون بالاعتداء على حرماتنا فيجب رده دفاعا ، وقد يكون بوضع العراقيل فى سبيل نشر الدعوة فيجب إبعاده وتأديبه ، ومثل ذلك ما لو نقض العهد وأخل بشروط الصلح ، وبهذا التوضيح يمكن فهم النصوص الواردة بإطلاق فى القتال ، وما كان منها مرتبطا بسببه كانت مشروعيته لهذا السبب ، ونرجىء تفصيل ذلك إلى الكلام عن الجهاد .

والنوع الثانى من كفر العقيدة كفر سبقه إيمان ويسمى ردة ، والواجب حيال المرتد استتابته على النحو الموضح فى كتب الفقه ، فإن تاب وإلا قتل حدا أو كفرا على خلاف فى ذلك ، وفى الحديث «من بدل دينه فاقتلوه» (٣).

ومن آثار الردة التفريق بين الزوجين ، وفقد الولاية على المسلم ، وعدم الدفن فى مقابر المسلمين ، وعدم التوارث لاختلاف الدين .

ولكل من النوعين آثاره الأخروية ، وهى الخلود فى النار ، قال تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » (٤) وقال « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٥) وقال « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٦) .

١ ــ سورة النحل ١٢٥
٢ ــ رواه مسلم
٣ ــ رواه البخارى ومسلم
٤ ــ سورة البقرة ١٦١
٥ ــ سورة البقرة ٢١٧
٦ ــ سورة النساء ٤٨

التكفير

التكفير هو الحكم على الإنسان بالكفر ، وهذا الحكم خطير لخطورة آثاره كما قدمناه ولذلك نهى الإسلام عن التعجل به وعن تقريره إلا بعد التأكد من وجود أسبابه تأكدا ليس فيه أدنى شبهة ، ولأن يخطىء الإنسان فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة ، والكافر إذا أفلت من عقوبة الدنيا فلن يفلت من عقوبة الآخرة .

ذلك أن الإيمان والكفر محلهما القلب كما قدمنا ، ولا يطلع على ما فى القلوب غير الله سبحانه ، وليست كل القرائن الظاهرة تدل يقينا على ما فى القلب ، فأكثر دلالتها ظنية ، والإسلام نهى عن اتباع الظن فى أكثر من نص فى القرآن والسنة ، وطلب الحجة والبرهان على الدعوى وبخاصة فى العقائد ، وتطبيقا لذلك نعى على أسامة بن زيد قتله لرجل ألقى إليه السلام ، وأمر بالتبين فقال سبحانه « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ، إن الله كان بما تعملون خبيرا » (١) فقد كرر الأمر بالتبين لأهميته ، ولم يقبل الرسول عليه الصلاة والسلام اعتذار أسامة وقال له « هل شققت عن قلبه » وقد تقدم ذلك ، هذا ، وموقف النبى من ذلك موضح فى شرح النووى على صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦ بخصوص القصاص والدية والكفارة . قال تعالى فى حادثة أخرى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٢) ونزلت ــ كما رواه أحمد وغيره بسند جيد ــ فى الوليد بن عقبة الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم لقبض الزكاة من الحرث بن ضرار ، الذى استبطأ وصول عامل الرسول ليقبضها فسار هو وجماعة بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقابلهم الوليد ولم يتبين أمرهم فرجع وأخبر الرسول بأن الحرث منعه الزكاة وأراد قتله ، فأمر الرسول بتوجيه جيش إليه ، ولما علموا حقيقة الأمر عاد الجميع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه ، فنزلت الآية .

---

١ ــ سورة النساء ٩٤   ٢ ــ سورة الحجرات ٦

يقول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما » وفى رواية « أيما امرىء قال لأخيه يا كافر باء بها أحدهما ، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه » وفى رواية « من دعا رجلا بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه » أى رجع (١) ويقول أيضا « ثلاث من أصل الإيمان ، الكف عمن قال لا إله إلا الله ، لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بجهل ... » (٢) .

إن الكافر الحقيقى انعقد قلبه على الكفر واقتنع به ولا شبهة له فقد قال الله فيه « ولكن من شرح بالكفر صدرا (٣) أى اقتنع به واستراح له .

إن الحدود تدرأ بالشبهات ومنها عقوبات لا تصل إلى درجة القتل ، فكيف نتعجل بالحكم على رجل بالكفر دون أن نتأكد منه ؟ نسب إلى الإمام مالك رضى الله عنه أنه قال : من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجها ويحتمل الإيمان من وجه حمل على الإيمان (٤) . وروى عنه أنه قال : إنما كف رسول الله عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

وعمر رضى الله عنه قال : إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه ، وليس لنا من سريرته شىء ، الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة (٥) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : بعث على وهو باليمن إلى النبى صلى الله عليه وسلم بذهيبة ، فقسمها بين أربعة ، فقال رجل : يا رسول الله اتق الله ، فقال « ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله » ؟ ثم ولى الرجل فقال

---

١ ــ رواها مسلم

٢ ــ رواه أبو داود وحكاه أحمد فى رواية ابنه عبد الله ، قال الشوكانى : سكت عنه أبو داود والمنذرى ، وفى اسناده مجهول وأخرجه أيضا سعيد ابن منصور ، وفيه ضعف وله شواهد « ج ٧ ص ٢٥٥ نيل الأوطار .

٣ ــ سورة النحل ١٠٦

٤ ــ فقه السنة ج ٢ ص ٤٥٣

٥ ــ رواه البخارى

خالد بن الوليد : ألا تضرب عنقه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لا ، لعله أن يكون يصلى » فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » مختصر من حديث متفق عليه (١) لقد قال صلى الله عليه وسلم فى الأخذ بظواهر المسلمين وحسن الظن بهم « من شهد أن لا إله إلا الله ، واستقبل قبلتنا ، وصلى صلاتنا ، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما للمسلم وعليه ما على المسلم » (٢) .

ونهى عن قتال من لهم مسجد أو يؤذن فيهم ، فعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغزو حتى يصبح ، فإذا سمع آذانا أمسك ، وإذا لم يسمع آذانا أغار بعد ما يصبح (٣). وفى رواية : وسمع رجلا يقول : الله أكبر الله أكبر فقال « على الفطرة ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : خرجت من النار » (٤) وعن عصام المزنى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث السرية يقول : إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مناديا فلا تقتلوا أحدا » (٥) .

يقول الشوكانى : فيه دليل على جواز الحكم بالدليل ، لكونه صلى الله عليه وسلم كف عن القتال بمجرد سماع الأذان ، وفيه الأخذ بالأحوط فى أمر الدماء، لأنه كف عنهم فى تلك الحال مع احتمال ألا يكون على الحقيقة (٦) .

فهل غابت هذه النصوص عمن يسارعون إلى الحكم بالكفر على الناس بالرغم من وجود الظواهر التى تجعل الإنسان على الأقل يتحرج عن إساءة الظن بهم ، ويرمى مجتمعهم كله بالكفر وفيه المساجد مفتوحة والأذان مرفوع بأعلى الأصوات ؟ هدانا الله جميعا سواء السبيل .

---

١ ــ نيل الأوطار ج ١ ص ٣٦٧
٢ ــ رواه البخارى
٣ ــ رواه البخارى
٤ ــ رواه مسلم
٥ ــ رواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه .
٦ ــ نيل الأوطار ج ٢ ص ٢٥٨

بم يكون الكفر ؟

إذا قلنا إن كفر العقيدة هو عدم الإيمان بما يجب الإيمان به ، فإنه يتحقق بجحد عقيدة من هذه العقائد أو بإنكار ما علم مجيئه من الدين بالضرورة ، كوجوب الصلاة وحرمة القتل . ومثله استباحة محرم مجمع على تحريمه كالزنا ، وتحريم حلال أجمع على حله كتناول الطيبات ، كمشركى العرب الذين حرموا وحللوا ما لم ينزل الله به سلطانا ، قال تعالى « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » (١) وقال « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون » (٢) وقال « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » (٣) .

وهذا الجحد أمر باطنى لا نعرفه نحن إلا بما يدل عليه ، ومما يدل عليه الاقرار باللسان وما يقوم مقامه من كتابة أو اشارة واضحة ، كأن يقال له : هل أنت كافر ؟ فيومىء برأسه إلى الأمام ، أو هل تؤمن بالله ؟ فيحركها يمينا أو يسارا أو يشير بيده إلى النفى ، والذى يحدد دلالة الإشارة هو العرف ، ومنه كذلك امتناعه مختارا عن النطق بالشهادتين .

ومن القول المكفر سب الدين والطعن فى نزول القرآن الكريم وفى السنة النبوية الثابتة بطريق مقطوع به ، وكذلك سب النبى صلى الله عليه وسلم أو أحد الأنبياء .

ومن الفعل المكفر السجود لصنم وإهانة المصحف بمثل إلقائه فى القاذورات أو وطئه بالأرجل ، والاستخفاف بأى مظهر من المظاهر بشخصية الرسول أو أحد الرسل ، أو باسم من أسماء الله أو أمره أو نهيه أو وعده أو

---

١ ـ سورة المائدة ١٠٣
٢ ـ سورة الأنعام ١٣٨
٣ ـ سورة النحل ١١٦

وعيده ، ومنه رفض أمر الله والتكبر عليه ، أو الطعن فى صدقه وصلاحيته كرفض إبليس أمر الله بالسجود لآدم ، ورفض اليهود حكم التوراة برجم الزانى على ما سيأتى توضيحه بعد ، فى حكم الله عليهم بأنهم غير مؤمنين . يقول العز بن عبد السلام : ضابط ما يكفر به ثلاثة : أحدها ما يكون نفس اعتقاده كفرا كإنكار الله أو صفاته التى لا يكون إلها صانعا بدونها ، وجحد النبوات . والثانى صدور ما لا يقع إلا من كافر ، كرمى المصحف فى القاذورات ، والتردد على الكنائس فى أعيادهم ومباشرة أحوالهم ، وثالثها إنكار ما علم من الدين بالضرورة كالكليات الخمس ، حرمة القتل والسرقة والزنى وشرب الخمر والردة ، وأركان الإسلام : الصلاة والصيام والزكاة والحج .

هذا بعض ما يتحقق به الكفر على الرأى المعتمد فى الإيمان بأنه التصديق بالقلب ، أما من جعلوا الإقرار باللسان والعمل بالجوارح ركنا من أركانه ، فإن الكفر عندهم يتحقق بترك ذلك كلا أو بعضا عند الخوارج أما عند المعتزلة فيسلب الإيمان عن المؤمن ويجعل فى منزلة بين الإيمان والكفر ويسمونه فاسقا . وإن كان بعض الخوارج عدل عن الحكم بالكفر الذى يخلد فى النار ، وجعلوه كفر نعمة لا كفر عقيدة .

خامسا : الفسوق

قال تعالى « وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » (١) الفسوق هو الخروج عن حد الشرع ، وذلك من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، وهو أعم من الكفر ، لأن الكفر خروج عن حد الإيمان ، أما الفسق فخروج عن الحدود أيا كانت ومنها حدود التكاليف العملية لا الاعتقادية ، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير منها ، لكن تعورف فيما كان كثيرا ، وأكثر ما يقال « الفاسق » لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها ، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة ، كما قال تعالى في إبليس « ففسق عن أمر ربه » (٢) وفي المترفين « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » (٣) وقال : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا » (٤) أي كافرا ، وقال « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » (٥) .

قال تعالى في وصف المؤمن العاصي بغير الكفر بأنه فاسق « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » (٦) وقال « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (٧) ، فالفاسق أعم من الكافر ، والظالم أعم من الفاسق ، لأن الظلم يقع ولو بقليل من الذنوب ، كما يختص بالكفر الذي ليس فيه رفض لما قبله والتزمه الإنسان من تكاليف ، قال تعالى « والكافرون هم الظالمون (٨) كما يلاحظ في الظلم أن فيه إيذاء للغير غالبا ، وإن كان فيه ايذاء للنفس كما قال تعالى « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » (٩) وذلك لأنه قصر في حقها بعدم تكميلها وبتعريضها للعقاب .

---

١ ـ سورة الحجرات ٧
٢ ـ سورة الكهف ٥٠
٣ ـ سورة الأسراء ١٦
٤ ـ سورة السجدة ١٨
٥ ـ سورة النور ٥٥
٦ ـ سورة النور ٤
٧ ـ سورة الحجرات ١١
٨ ـ سورة البقرة ٢٥٤
٩ ـ سورة الطلاق ١

قال تعالى فى الظلم الواقع من الإنسان على غيره « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (١) وقال فى شأن اليهود الذين لم يحكموا بما فى التوراة من قصاص عادل فى الجرائم « ومن لم يحكم بما أنزل الله أولئك هم الظالمون » (٢) وذلك إذا أخذوا نفسا بغير نفس ، أو عينا بغير عين أو بأكثر منها ألخ ما جاء فى الآية .

وقال عن أهل الإنجيل « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٣) فالفسق يكون بالكفر وبالمعاصى الأخرى سواء منها ما تعدى النفس وما لم يتعدها ، وقد عبر به إجمالا بالنسبة إلى أهل الانجيل ، بعد أن فصل نوع المخالفات التى حدثت من اليهود فجعل بعضها كفرا وبعضها ظلما ، لأنهم كانوا هم الكثرة فى المدينة ، ولأن التوراة فيها تشريعات مفصلة لم توجد فى الإنجيل ولأنهم كانوا كثيرى الجدل ومثيرى الفتنة ضد الدعوة الإسلامية .

---

١ ـ سورة البقرة ٢٧٩
٢ ـ سورة المائدة ٤٥
٣ ـ سورة المائدة ٤٧

سادسا : العصيان

العصيان هو الخروج عن الطاعة ، وهو كالفسق فى مطلق الخروج على حدود الله ، وإن كان الأخير يغلب فى الخروج الكثير وبالمعاصى الكبرى ، يقول علماء اللغة : أصل العصيان أن يمتنع الإنسان بعصاه فلا يقربه أحد .

ويحصل العصيان بالكفر كما قال تعالى فى شأن فرعون عند غرقه وإعلان إيمانه « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » (١) ويحصل بما دونه من الذنوب كما قال تعالى فى شأن آدم بعد أن نسى عهد ربه وأكل من الشجرة « وعصى آدم ربه فغوى » (٢) .

والمعاصى نوعان على الرأى المعتمد ، كبائر وصغائر ، وإن كانت كل معصية تعد كبيرة بالنسبة إلى مقام الله سبحانه ، فليست معصيته كمعصية غيره ممن تفاوت مقاماتهم .

وهذان النوعان مذكوران فى القرآن والسنة ، قال تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (٣) وقال « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة » (٤) وجاء فى الحديث الصحيح أن من أكبر الكبائر ، الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور ، وجاء الأمر باجتناب السبع الموبقات .

وقد وضع العلماء حدودا لبيان الكبائر والصغائر ، من أحسنها أن الكبائر ما جعل الله لها عقوبة فى الدنيا كالقتل والسرقة والزنى وشرب الخمر والقذف ، أو جعل لها وعيدا شديدا بالعذاب فى الآخرة بالنار أو الغضب واللعن ، كأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وأكل الربا ، واختلفوا فى حصرها ويمكن الرجوع فى ذلك إلى كتاب « الزواجر » لابن حجر ، وكتاب « الكبائر » للذهبى .

---

١ ـ سورة يونس ٩١
٢ ـ سورة طه ١٢١
٣ ـ سورة النساء ٣١
٤ ـ سورة النجم ٣٢

والإنسان بحكم تكوينه معرض للمعصية كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » (١) ومن رحمة الله الذى يعلم من خلق أنه لم يحكم بطرد عبده عند وقوع معصية منه ، بل جعل له أملا فى العودة إلى الله بالتوبة من الكفر بالإيمان ومن كبائر الذنوب بالندم والعزم على عدم العود ورد الحقوق إلى أربابها ، ومن صغائرها بذلك وبعمل الصالحات قال تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » (٢) وقال « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » (٣) وقال « إن الحسنات يذهبن السيئات (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» (٥) إلى غير ذلك من النصوص الواردة فى الكتاب والسنة .

كما أن من رحمة الله سبحانه بالعصاة أنه لا يعجل بعقوبتهم كما قال « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » (٦) بل يترك لهم الفرصة ليتوبوا إلى آخر لحظة فى حياتهم الخاصة بالغرغرة عند الموت ، وفى حياتهم العامة بظهور علامات الساعة عند طلوع الشمس من مغربها ، وهو لا يرد عبده إذا وقف ببابه ليتوب فى أى وقت من ليل أو نهار، وقد صحت بذلك كله الأحاديث النبوية .

وإذا كانت هذه هى رحمة الله العليم بعباده وبمدى ما يبذلون من جهد ضد الشيطان والنفس والمغريات الأخرى ، فكيف يغلق الإنسان باب الأمل أمام العاصى ، ويعجل بالحكم عليه بالطرد من رحمة الله ؟ إنه هو القائل «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم»(٧) والقائل فيمن يموتون على عصيانهم

---

١ ـ رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم ، قال الترمذى حديث غريب ، وقال الحاكم صحيح الاسناد .
٢ ـ سورة الأنفال ٣٨ — ٣ ـ سورة طه ٨٢
٤ ـ سورة هود ١١٤ — ٥ ـ رواه مسلم
٦ ـ سورة فاطر ٤٥ — ٧ ـ سورة الزمر ٥٣

ولم يتوبوا « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١) والذى يفرح بتوبة عبده فرح من وجد ناقته بعد أن ضلت وهو فى أشد الحاجة إليها كما صح فى الحديث ، والقائل فى الحديث القدسى الصحيح « من تقرب الى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهرول » (٢) وقال رسول الله عليه وسلم « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذى يتألى على ـ يحلف ـ ألا أغفر له ؟ إنى قد غفرت له وأحبطت عملك» (٣).

رفقا يا إبن آدم ببنى آدم ، فبالذى تحكم عليهم سيحكمون عليك ، ولست أنت وحدك المعصوم الناجى وكل من بعدك هالك مطرود ، ففى الحديث « إذا رأيت الرجل يقول : هلك الناس فهو أهلكهم » (٤) وفى الأمثال : من كان بيته من زجاج فلا يرم الناس بالحجارة .

ليس أحد معصوما من الخطأ الا الأنبياء بوصفهم أنبياء يقتدى بهم ، فهم لا يأتون الكبائر ولا الصغائر التى تخل بمقامهم . ولا يجوز أن يدعى ذلك غيرهم ، ونحن مأمورون بحسن الظن بالناس قبل أن نتبين أمورهم ، ولا يرضى الإسلام عن نظرة التشاؤم وإساءة الظن التى قد تشتط ببعض المغرورين فينتقصون من قدر كبار المؤمنين ، كالصحابة الذين مدحهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم خير القرون (٥) . وقال فيهم « لاتسبوا أحدا من أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » (٦) .

---

١ ـ سورة النساء ٤٨ ، ١١٦
٢ ـ رواه البخارى
٣ ـ رواه مسلم
٤ ـ رواه مسلم
٥ ـ رواه مسلم

سابعا : النفاق

النفاق هو إظهار خلاف الباطن ، وهو فى الشرع يطلق على نفاق العقيدة ونفاق العمل ، وفى كل منهما مخالفة ظاهر الإنسان لباطنه ، يدخل فى الشرع من باب ويخرج من باب آخر بغية كسب الخير واتقاء الشر ، وقد سماه القرآن فاسقا لخروجه من الشرع ، قال تعالى « إن المنافقين هم الفاسقون » (١) والنفاق مأخوذ من « نافقاء» اليربوع وهو حيوان أشبه بالجرذ ، جحره فى نشز أى مرتفع من الأرض ثم يحفر بيته فى مهب الرياح الأربع ، ويتخذ فيه كوى ـ أى منافذ ـ فإذا طلب من إحداها هرب من الأخرى ، وظاهر بيته تراب وباطنه حفر ، قال الجاحظ وغيره : اسم المنافق لم يكن فى الجاهلية لمن أسر الكفر وأظهر الإيمان ، ولكن الله جل وعلا إشتق له هذا الاسم من هذا الأصل من نافقاء اليربوع ، لأنه لما أبطن الكفر وأظهر الإيمان ، وورى بشىء عن شىء ودخل فى باب الخديعة وأوهم الغير خلاف ما هو عليه أشبه فى ذلك فعل اليربوع (٢).

والمنافقون الذين دخلوا فى الإسلام ظاهرا وأسروا الكفر كانوا كثيرين فى المدينة ورئيسهم عبد الله بن أبى بن سلول ، أبوه أبى ، وأمه سلول ، فنسب إليهما معا على الصحيح مما قيل فى ذلك ، كما ذكره النووى فى شرح حديث الإفك بصحيح مسلم . والذى كان يعقد الخرز لتتويجه ملكا على المدينة فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والتف حوله أكثر أهلها وجد أنه لا يستطيع مقاومة التيار مقاومة مكشوفة فلجأ إلى النفاق هو ومن التف حوله ، وتظاهروا أمام المسلمين بالإسلام ، ودبروا فى الخلفاء مكائد لهم بمعاونة اليهود الذين آثروا مسالمة المسلمين ظاهرا ، وقد قبل النبى صلى الله عليه وسلم منهم ظواهرهم ، ووكل بواطنهم الى الله سبحانه وتعالى ، على الرغم من ظهور بعض الأمارات فى سلوكهم تدل على أنهم غير صادقين فى الإيمان ، وكان من رأى بعض الصحابة التخلص ممن تظهر منهم هذه

---

١ ـ سورة التوبة ٦٧

٢ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميرى يربوع

الأمارات ، ولكنه كان حكيما فى سياسته معهم فقال فى بعض الأحيان « حتى لايتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » (١) وقد أنزل الله فى القرآن الكريم آيات كثيرة وسمى باسمهم سورة منه تكشف عن أوصافهم وتحذرهم من النفاق ، وتحذر المؤمنين أن ينخدعوا بهم .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعرف بعضهم ، وأخبر حذيفة باثنى عشر منهم يموت ثمانية منهم على النفاق ، ونهاه عن ذكر أسمائهم للصحابة حتى كان عمر يأتى حذيفة فيسأله عن رأيه فيه : هل هو منافق ، فيقول : لا ، وبعض هؤلاء لم يعرفهم كما قال تعالى « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » (٢) وقال « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول (٣) .

إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحكم عليهم بالكفر بما يظهر منهم فهو لم يعلم مافى قلوبهم ، وما حكم عليهم به الا بوحى من الله سبحانه أو بشهادة شاهدين ، فثعلبة الذى نزل فيه قول الله « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » (٤) أطلعه الله على كفره بقوله « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » (٥) وابن أبى الذى قال « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » (٦) لم يحكم النبى بكفره ، لأن الشاهد على قوله واحد هو زيد بن أرقم ، ثم نزل القرآن مصدقا لمن أخبره فعلم أنه منافق كما ذكره البخارى، وكان ذلك فى غزوة المريسيع كما قال بعض أهل المغازى .

ومنهم من فعل فعلة الكفر كالمعتذرين بعذر ظاهرى يوم الأحزاب وقال الله فيهم « ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا » (٧) .

---

١ ــ رواه البخارى فى غزوة بنى المصطلق
٢ ــ سورة التوبة ١٠١
٣ ــ سورة محمد ٣٠
٤ ــ سورة التوبة ٧٥
٥ ــ سورة التوبة ٧٧
٦ ــ سورة المنافقون ٨
٧ ــ سورة الأحزاب ١٣

١ ـ معنى الحكم :

الحكم هو اعطاء وصف لشيء ما ، كما يقال : هذا الرجل أبيض ، فقد حكمنا عليه بوصف البياض ، وكما يقال هذا الشعر بليغ ، فقد حكمنا عليه بالبلاغة ، وكما يقال هذا الرأى سديد ، فقد حكمنا عليه بالسداد .
وهو فى الشرع إعطاء حكم تكليفى أو وضعى لعمل من أعمال المكلفين ، كما يقال : الصلاة واجبة ، فقد حكمنا عليها بالوجوب ، وكما يقال : الطهارة شرط لصحة الصلاة ، فقد حكمنا عليها بأنها شرط .

وهذا قريب من قول علماء الأصول عن الحكم الشرعى بأنه خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييرا ، أو وضعا ، ومن قول الفقهاء إنه الأثر المترتب على خطاب الشارع ، وقالوا : إن الحكم التكليفى خمسة أقسام :

(أ) الوجوب أو الواجب ، وهو ما يثاب المرء على فعله ويعاقب على تركه كالصلاة .

(ب) الحرمة أو الحرام ، وهو ما يثاب المرء على تركه ويعاقب على فعله كالقتل .

(جـ) والندب أو المندوب ، وهو ما يثاب المرء على فعله ولايعاقب على تركه كالسواك .

(د) والكراهة أو المكروه ، وهو ما يثاب المرء على تركه ولايعاقب على فعله ، كرفع البصر إلى السماء أثناء الصلاة .

(هـ) الإباحة أو المباح ، وهو ما لا يثاب المرء على فعله ولايعاقب على تركه كالمشى والنوم وغيرهما من المباحات .

كما قالوا : إن الحكم الوضعى يكون سببا كطلوع الفجر لدخول وقت الصيام ويكون شرطا كالطهارة للصلاة ، ومانعا كالحيض فى الصوم إلى غير ذلك مما يطلب تفصيله من مظانه المعروفة .

لكن من الذى يضع هذا الحكم أو يصف العمل التكليفى به ؟ لا شك فى أن الذى يملك إعطاء الأحكام لأعمال المكلفين هو الله سبحانه ، كما

يحكم أيضا الحاكم والقاضى والمفتى والمعلم ، باعتبار أنهم منفذون لأحكام الله ومبلغون لها ومرشدون إليها ، لا أنهم مستقلون بوضعها ، وهذا كله فى الأحكام المنصوص عليها الواردة فى كتاب الله وسنة الرسول ، والموضوعة لأعمال معينة إما بالنص الخاص أو النص العام ، فإذا لم ينص على حكم لعمل معين اجتهد العلماء فى استنباط حكم له على الأسس المعتمدة فى الاستنباط والتى سبق ذكرها عند الكلام على الاجتهاد . وقد يصيب المجتهد فيكون حكمه مطابقا لما فى علم الله الذى لم يطلع عليه وقد يخطىء فلا يطابقه ، لكنه قد بذل جهده والله لا يؤاخذه على خطئه بل يثيبه كما تقدم ذكره فى الحديث الصحيح . وقد أثر عن أكثر من واحد عند استنباط حكم قوله : إن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمعنى ، أى لا يجرؤ أحد أن يجزم بأن ما استنبطه هو الحكم الصحيح الموافق لحكم الله .

هذا ، وكما يكون الحكم بمعنى إعطاء وصف لشىء ما يكون بمعنى الملك والتسلط والإدارة ، فيقال : فلان حكم هذا البلد أى تولى إدارته وجعله تحت أمره ، مأخوذ من حكمة الفرس ، وهى ـ كما يقول ابن الأثير فى النهاية ـ حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه .

كما يكون الحكم بمعنى الحكمة وهى الاصابة أو وضع كل شىء فى موضعه ، ومنه قوله تعالى فى شأن سيدنا يحيى عليه السلام « وآتيناه الحكم صبيا » (١) وقول النبى صلى الله عليه وسلم «الصمت حكم» أى حكمة (٢) .

ومن هنا نرى أن « الحكم » له عدة معان يمكن على ضوئها فهم النصوص الواردة فى القرآن والسنة بشأنه .

من ذلك قوله تعالى « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم » (٣) رد بذلك سيدنا يوسف على من يعبدون غير الله معلنا أن المعبود بحق والمالك للأمر كله هو الله سبحانه .

---

١ ـ سورة مريم ١٢
٢ ـ رواه البيهقى فى الشعب بسند صحيح موقوفا أو مرفوعا .
٣ ـ سورة يوسف

وقوله تعالى « إن الحكم إلا لله عليه توكلت » (١) قاله سيدنا يعقوب لأولاده حين نصحهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة لا من باب واحد ، معلنا أن القضاء والقدر والحكم كله على الرغم من الاحتياطات هو بيد الله سبحانه، وقوله « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » (٢) يعنى له السلطان يوم القيامة .

وقوله « ذلكم حكم الله يحكم بينكم » (٣) أى الحكم الشرعى فى معاملة المؤمنات المهاجرات .

وقوله « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » (٤) يعنى أن الله هو الذى يبين المصيب من المخطىء يوم القيامة .

وقوله « فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (٥) أى حتى يقضى .

والآية التى معنا وهى « ومن لم يحكم بما أنزل الله » معناها من لم يعط حكما شرعيا لعمل من الأعمال يوافق الحكم الذى أنزله الله فهو كافر كالذى يقول : إن الربا حلال ، مع أن الله حرمه بقوله « وأحل الله البيع وحرم الربا » (٦) فقد خالف حكم الله ، وقد نهى الله عن ذلك بمثل قوله تعالى فى تحريم العرب للبحيرة والسائبة والوصيلة ، والحامى ، ولبعض ما فى بطون الأنعام على النساء وحلها للذكور « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » (٧) .

فالحكم بغير ما أنزل الله يمكن أن يكون من الفرد فى سلوكه الشخصى كتحليل شرب الخمر وفى سياسته لأسرته كتحليل حرمان البنت من الميراث ، أو وأدها كما كان عند عرب الجاهلية ، وفى معاملته مع الناس كتحليل السرقة والرشوة ، كما يكون فى العقيدة بإنكار ما ثبت كإنكار البعث والحساب .

---

١ ـ سورة يوسف ٦٧
٢ ـ سورة الأنعام ٦٢
٣ ـ سورة الممتحنة ١٠
٤ ـ سورة الأنعام ٥٧
٥ ـ سورة الأعراف ٨٧
٦ ـ سورة البقرة ٤٤
٧ ـ سورة النحل ١١٦

ويمكن أن يكون من القاضى الذى يفصل بين الناس ، كعدم اعتبار الزنى مع رضا الطرفين محرما ، وكتحريم حق الطلاق لمن يملكه ، إذا كان قانون يقضى به .

ويمكن أن يكون من الحاكم بإباحة شرب الخمر مثلا ، وإباحة قتل من لا يستحق القتل ، وتحريم التفرقة بين الذكر والأنثى فى الميراث ، وذلك بوضع قانون أو مباشرة تنفيذه .

هذا فى بيان معنى « ومن لم يحكم بما أنزل الله » أما الكفر الذى هو جواب الشرط فى الآية ، فقد يراد به كفر العقيدة الذى يخرج الإنسان من الإيمان ، وقد يراد به كفر النعمة وعدم شكرها ، وإن كان الظاهر الأول على ما سنبينه .

وقد سبق فى الحديث عن الإيمان والكفر ، أن الرأى المعتمد فى الإيمان هو التصديق بالقلب وليس الإقرار باللسان ركنا فيه وكذلك العمل ، وعلى هذا يحكم بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله إذا اعتقد أنه ليس من عند الله ، أو أنه حكم غير صحيح ، أو استهزأ به ، فذلك كله رفض لحكم الله واحتقار له ، ولا يشك أحد فى أنه كفر .

أما الذى لم يحكم بما أنزل الله بأن عطله أو حكم بغيره دون إنكاره لصدقه أو احتكار له فهو مؤمن عاص فسق بعصيانه وظلم نفسه بتعريضها للعقاب ، ولا يحكم عليه بأنه كافر يخلد فى النار وتجرى عليه فى الدنيا أحكام الكفار .

أما الذين أدخلوا الأعمال فى حقيقة الإيمان فقال بعضهم وهم المعتزلة : من لم يحكم بما أنزل الله فقد ارتكب إثما عظيما إن كان معه جحد وإنكار فهو كافر دون شك وإن لم يكن معه ذلك فهو ليس بمؤمن ولا كافر ، بل فى منزلة بين المنزلتين وهى الفسق ، وقال الخوارج مثل قولهم عند الجحد والإنكار ، أما بغير ذلك فقد حكموا عليه بالكفر ، وقد عرفت قيمة هذه الأقوال فيما سبق فلا داعى لذكرها هنا .

٢ ـ لكن من المراد فى هذه الآية بأنهم إذا لم يحكموا بما أنزل الله فقد كفروا ؟ هل هم جماعة مخصوصون نزلت فيهم هذه الآية تبين حكما لحادثة وقعت منهم ، فحكمها لا يتعداهم ، أو يعم هذا الحكم كل جماعة وقعت منهم هذه الحادثة ويدخلون فيها دخولا أوليا ؟

إن لعلماء الأصول مذهبين فى أسباب النزول والأسباب التى بنيت عليها الأحكام ، فمذهب يقول : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فيشمل هذا الحكم من نزلت بسببهم الآية وغيرهم ، ومذهب يقول : لا عبرة بعموم اللفظ ، بل يكون الحكم خاصا بمن نزلت بسببهم الآية ، وأما غيرهم ممن وقعت بهم أحداث تشبه الأحداث التى نزلت الآية بحكمها ، فلا يؤخذ حكمهم منها بحكم عموم اللفظ، بل يؤخذ من نصوص أو أدلة أخرى كالقياس عليها.

بعد هذا نبين من نزلت فيهم هذه الآية والحادثة التى وقعت منهم فجاءت الآية قاضية به .

إن هذه الآية من سورة المائدة ، والسورة التى تحدثت أكثر آياتها عن أهل الكتاب وبخاصة اليهود بنو اسرائيل ، وهذه الآية مذكورة فى ثنايا آيات يتحدث سابقها ولاحقها عنهم ، فجو الآية من السياق والسباق هو جو بيان أحكام أهل الكتاب وبخاصة اليهود .

وصحت الأخبار بأن هذه الآية نزلت فى اليهود بسبب حادثة زنى غيروا فيها حكم الله الذى أنزله عليهم فى التوراة ، وهو الرجم ، وكانوا يريدون أن يحكم لهم النبى بغيره .

روى أحمد ومسلم وغيرهما عن البراء بن عازب قال : مر على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى محمم أى سود وجهه بالفحم مجلود ، فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا والله ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد

حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا زنى الشريف تركناه ، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا تعالوا حتى نجعل شيئا نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد . فقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم ، فأنزل الله « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » إلى قوله « إن أوتيتم هذا فخذوه » يقولون : ائتوا محمدا فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، إلى قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

وأخرج الحميدى فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : عن جابر بن عبد الله قال : زنى رجل من أهل فدك فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن اسألوا محمدا عن ذلك ، فإن أمر بالجلد فخذوه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ، فسألوه عن ذلك ، فذكر نحو ما تقدم ، فأمر به فرجم فنزلت « فإن جاءوك فاحكم بينهم » الآية ، وأخرج البيهقى فى الدلائل من حديث أبى هريرة نحوه (١) .

فترى من هذا أن الآية نزلت فى اليهود ، وحكم الله عليهم بالكفر لأنهم رفضوا حكم الله فى التوراة بالنسبة للزانى واستبدلوا به حكما آخر فحكموا أهواءهم فيما جاء فى كتابهم ، بل وفيما ينتظرونه من حكم الرسول فيه وفى غيره حيث عرضوا عليه كما رواه ابن اسحاق أن يحكم لصالح جماعة منهم ضد جماعة أخرى ، ليؤمنوا به ويؤمن معهم غيرهم من أتباعهم ، فأبى ذلك وأنزل الله فى قوله « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » (٢) .

وقد بين الله فى الآيات رفضهم لحكم كتابهم فقال « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين » وحكم عليهم بأنهم غير مؤمنين بما فى كتابهم وغير مؤمنين بك

---

١ ــ أسباب النزول للسيوطى على هامش الجلالين .
٢ ــ سورة المائدة ٤٩

ما دمت لا تحكم لصالحهم بغير ما أنزل الله . والآية بعدها تبين أن التوراة فيها هدى ونور يحكم بها المؤمنون الخائفون من الله الحافظون لحدوده ، ثم ختمها بأن من يخالف ما فيها من أحكام فهم الكافرون ، وتأتى الآية بعدها تذكر طرفا من أحكام القصاص وختمت بأن من خالف ما فيها وحكم بغيرها فقد ظلم لأن فيه عدوانا على الغير بدون وجه حق .

وعلى هذا فالآية نزلت فى اليهود وحكمت بكفرهم للأسباب المذكورة لكن هل تنطبق على غيرهم من أهل الأديان الأخرى إذا لم يحكموا بما أنزل الله عليهم ؟

قال فريق من العلماء حكم غير اليهود فى ذلك حكم اليهود ، بناء على صيغة العموم ، وعلى القول بأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد فى شرعنا ما يخالفه .

وقال غيرهم : هذا الحكم لا يتعدى اليهود بالنص ، ويطلب حكم غيرهم من نص آخر ، أو بطريق القياس عليهم ، وبهذا يمكن أن نقول إن الآية ليست نصا فى تكفير المسلمين إذا لم يحكموا بما أنزل الله فى القرآن فلا تصح دليلا على ذلك ، لأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ، أى لا يصلح حجة على المدعى ، وهو : الحكم بكفر المسلم إذا حكم بغير ما أنزل الله فالدليل الظنى لا يقبل فى العقائد إثباتا أو نفيا .

٣ ـ لكن يبقى السؤال قائما ولابد له من جواب . فنقول :

جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تأمر باتباع ما جاء فى القرآن وتحذر من اتباع غيره ، قال تعالى « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون » (١) وقال « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين .

---

١ ـ سورة الأعراف ٢ ـ ٣

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » (١) وقال « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » (٢) وقال فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٣) إلى غير ذلك من الآيات التى تأمر بطاعة الله ورسوله، وتبين أن القرآن يهدى للتى هى أقوم وأن الله أنزله تبيانا لكل شىء ، وليحكم بين الناس بالحق « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » (٤) فيستفاد من هذه الآيات ، الأمر باتباع ما أنزل الله والنهى عن مخالفته ، وأن الذين يعلنون عن إيمانهم وطاعتهم ثم يتولون عن ذلك ليسوا بمؤمنين ، وأن المؤمنين هم الذين يقولون سمعنا وأطعنا إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، وأن المنافقين هم الذين يرفضون التحاكم إلى ما أنزل الله ، وأن الذين يأبون التحاكم الى الرسول أو لا يقبلون حكمه ولم يذعنوا له لا يكونون مؤمنين ، وأن مهمة الكتاب هى الحكم بين الناس بما أنزل الله فيه .

فنرى من هذه النصوص وغيرها أن من لا ينفذ ما جاء فى الكتاب بالذات يكون غير مؤمن . وهذا ما يدل عليه ظاهرها ، والمحققون على أن عدم تنفيذ ما جاء فيه الحكم بما أنزل الله ، يكون كفرا إذا رفض الإيمان به أوشك المؤمن فى أنه من عند الله ، أو زعم أنه غير صالح للحكم ، أو استهزأ به ، أو قال إنه لا يصلح إلا للبيئة التى نزل فيها والعصر الذى جاء فيه، أو ما شابه ذلك من الأقوال والأفعال التى تدل على الطعن فى حكم الله.

وإذا كان التقصير فى التنفيذ لا يصاحبه شىء من ذلك ، فلا يخرج به المقصر عن الإيمان ، بل يكون عاصيا ، وقد تقدم حكم العاصى .

---

١ ـ سورة النور ٤٧ ـ ٥١
٢ ـ سورة النساء ٦١
٣ ـ سورة النساء ٦٥
٤ ـ سورة النساء ١٠٥

٩ ــ رب قائل يقول : هناك تعارض بين قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (١) وقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٢) وقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٣) .

والجواب أنه لا تعارض بين كلام الله سبحانه فكلام الله هو الحق كله وهو الصدق كله ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٤) والتعارض يوجد إذا اتحدت ظروف الحكم ، لكن إذا اختلفت فلا يكون تعارض ، ومن أحسن ما قيل فى هذا المقام أن الحكم بالكفر هو عند الرفض للحكم وتغيير ما أنزل الله كما حدث من اليهود فى رفض حكم الرجم وتغييره إلى الجلد ، والحكم بالظلم يكون عند تجاوز الحد الذى قرره الله فى الحكم ، وكان ذلك فى القصاص : النفس بالنفس والعين بالعين ... فمن أخذ نفسا بغير نفس ، أو أخذ عينا بغير عين أو أخذ عينين بعين واحدة مثلا كان ظالما بهذا التعدى ، وإن اعتبر ظالما أيضا لنفسه بتعريضها لعقاب الله .

وكان هذان الحكمان : الكفر والظلم ، فيما يختص باليهود والتوراة أما الحكم بالفسق فقد جاء بصدد الكلام على النصارى والانجيل ، « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، والفسق خروج عن المشروع عقيدة فيكون كفرا وعملا فيكون ظلما (انظر ص ١٤٦ وما بعدها) .

١٠ ــ ومن الخير أن نذكر نماذج من تفسير العلماء لآية « ومن لم يحكم بما أنزل الله » لنرى عدم قطعية الدلالة فيها على الكفر ، وذلك لتعدد الآراء فى تفسيرها .

(أ) التفسير الكبير للفخر الرازى (٦٠٦ هـ) « مفاتيح الغيب » .

---

١ ــ سورة المائدة ٤٤
٢ ــ سورة المائدة ٤٥
٣ ــ سورة المائدة ٤٧
٤ ــ سورة النساء ٨٢

فيه مسألتان : المسألة الأولى : المقصود من هذا الكلام تهديد اليهود فى إقدامهم على تحريف حكم الله تعالى فى حد الزانى المحصن ، يعنى أنهم لما أنكروا حكم الله المنصوص عليه فى التوراة وقالوا إنه غير واجب فهم كافرون على الاطلاق ، لا يستحقون اسم الإيمان لا بموسى والتوراة ولا بمحمد والقرآن.

المسألة الثانية : قالت الخوارج : كل من عصى الله فهو كافر ، وقال جمهور الأئمة : ليس الأمر كذلك ، أما الخوارج فقد احتجوا بهذه الآية ، وقالوا إنها نص فى أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله ، فوجب أن يكون كافرا .

وذكر المتكلمون والمفسرون أجوبة عن هذه الشبهة .

الأول ـ أن هذه الآية نزلت فى اليهود فتكون مختصة بهم ، وهذا ضعيف ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومنهم من حاول دفع هذا السؤال فقال : المراد : ومن لم يحكم من هؤلاء الذين سبق ذكرهم بما أنزل الله فاؤلئك هم الكافرون ، وهذا أيضا ضعيف ، لأن قوله « ومن لم يحكم » كلام أدخل فيه كلمة « من » وفيه معنى الشرط فيكون للعموم .

الثانى ـ قال عطاء : هو كفر دون كفر ، وقال طاووس الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين ، وهو أيضا ضعيف ، لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر فى الدين .

الثالث : قال الأبيارى : يجوز أن يكون المعنى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلا يضاهى أفعال الكفار ، ويشبه من أجل ذلك الكافرين ، وهو ضعيف أيضا لأنه عدول عن الظاهر .

الرابع ـ قال عبد العزيز بن يحيى الكنانى : قوله « بما أنزل الله » صيغة عموم ، فقوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله » معناه من أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وهذا حق لأن

الكافر هو الذى أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله ، أما الفاسق فإنه لم يأت بضد حكم الله إلا فى القليل ، وهو العمل ، أما فى الاعتقاد والإقرار فهو موافق . وهذا أيضا ضعيف ، لأنه لو كانت هذه الآية وعيدا مخصوصا بمن خالف حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله تعالى لم يتناول هذا الوعيد اليهود بسبب مخالفتهم حكم الله فى الرجم وأجمع المفسرون على أن هذا الوعيد يتناول اليهود بسبب مخالفتهم حكم الله فى الرجم ، فيدل على سقوط هذا الجواب .

الخامس _ قال عكرمة : قوله « ومن لم يحكم .. » إنما يتناول كل من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية ، وهذا هو الجواب الصحيح والله أعلم .

ثم قال الرازى فى الآية الثانية « وكتبنا عليهم » ثم قال تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » : وفيه سؤال ، وهو أنه تعالى قال أولا « فأولئك هم الكافرون » وثانيا « فأولئك هم الظالمون » والكفر أعظم من الظلم ، فلما ذكر أعظم التهديدات أولا فأى فائدة فى ذكر الأخف بعده ؟ وجوابه أن الكفر من حيث أنه انكار لنعمة المولى وجحود لها فهو كفر ، ومن حيث أنه يقتضى إبقاء النفس فى العقاب الدائم الشديد فهو ظلم على النفس، ففى الآية الأولى ذكر الله ما يتعلق بتقصيره فى حق الخالق سبحانه ، وفى هذه الآية ما يتعلق فى التقصير فى حق نفسه .

ثم قال الرازى فى تفسير الآية الثالثة « وليحكم أهل الانجيل » : ثم قال تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » : واختلف المفسرون ، فمنهم من جعل هذه ثلاثة ، أعنى قوله « الكافرون الظالمون ، الفاسقون » صفات لموصوف واحد ، قال القفال : ليس فى إفراد كل واحد من هذه الثلاثة بلفظ ما يوجب القدح فى المعنى ، بل هو كما يقال : من أطاع الله فهو المؤمن ، ومن أطاع الله فهو البر ، من أطاع الله فهو المتقى ، لأن

كل ذلك صفات مختلفة حاصلة لموصوف واحد ، وقال آخرون : الأول فى الجاحد ، والثانى والثالث فى المقر التارك ، وقال الأصم : الأول والثانى فى اليهود ، والثالث فى النصارى .

(ب) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للبيضاوى (٦٨٥ هـ) :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله » مستهينا به منكرا له « فأولئك هم الكافرون » لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره ، ولذلك وصفهم بقوله : الكافرون والظالمون والفاسقون ، فكفرهم لإنكاره ، وظلمهم بالحكم على خلافه ، وفسقهم بالخروج عنه ، ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حال انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها أو لطائفة ، كما قيل هذه فى المسلمين لاتصالها بخطابهم والظالمون فى اليهود ، والفاسقون فى النصارى أهـ .

ولم يعلق البيضاوى على الآية التى فيها « الظالمون » أما فى الآية التى فيها « الفاسقون » فقال : الفاسقون عن حكمه أو عن الإيمان به إن كان مستهينا به .

(جـ) تفسير الزمخشرى ٥٢٨ هـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله » مستهينا به « فأولئك هم الكافرون » والظالمون والفاسقون ، وصف لهم بالعتو فى كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهانة ، وتمردوا بأن حكموا بغيرها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الكافرين والظالمين والفاسقين أهل الكتاب . وعنه : نعم القوم أنتم ما كان من حلو فلكم وما كان من مر فهو لأهل الكتاب ، من جحد حكم الله كفر ، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق ، وعن الشعبى : هذه فى أهل الإسلام ، والظالمون فى اليهود والفاسقون فى النصارى . وعن ابن مسعود : هو عام فى اليهود وغيرهم .

(د) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى (١٢٧٠ هـ) .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » احتجت الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر غير مؤمن ، ووجه الاستدلال بها أن كلمة « من » عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله تعالى فيدخل الفاسق المصدق أيضا لأنه غير حاكم وعامل بما أنزل الله تعالى . وأجيب بأن الآية متروكة الظاهر ، فإن الحكم وإن كان شاملا لفعل القلب والجوارح لكن المراد به عمل القلب وهو التصديق ، ولا نزاع فى كفر من لم يصدق بما أنزل الله تعالى . وأيضا أن المراد عموم النفى ، بحمل «ما» على الجنس ، ولا شك أن من لم يحكم بشىء مما أنزل الله تعالى لا يكون إلا غير مصدق ، ولا نزاع فى كفره وأيضا أخرج ابن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما أنزل الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون فى اليهود خاصة . وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال : الآيات التى فى المائدة « ومن لم يحكم .. » ألخ ليس فى أهل الإسلام منها شىء ، هى فى الكفار . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة ، وابن جرير عن الضحاك نحو ذلك .

ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة ، فلانكارهم ذلك وصفوا بالكافرين ولوضعهم الحكم فى غير موضعه وصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين ، أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم المنضمة إلى الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حال تقتضى الكفر، وتارة على أخرى تقتضى الظلم أو الفسق .

وأخرج أبو حميد وغيره عن الشعبى أنه قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة أولها لهذه الأمة ، والثانية فى اليهود ، والثالثة فى النصارى ويلزم على هذا أن يكون المؤمنون أسوأ حالا من اليهود والنصارى ، إلا أنه قيل : إن الكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أشعر بعتوه وتمرده فيه ، ويزيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر

والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الكفر الواقع فى أولى الثلاث أنه ليس بالكفر الذى تذهبون إليه ، إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ، كفر دون كفر .

والوجه أن هذا كخطاب عام لليهود وغيرهم ، وهو مخرج مخرج التغليظ ، أو يلتزم أحد الجوابين ، واختلاف الأوصاف لاختلاف الاعتبارات والمراد من الأخيرين منهما الكفر أيضا عند بعض المحققين ، وذلك بحملهما على الفسق والظلم الكاملين ، وما أخرجه الحاكم وصححه وعبد الرزاق وابن جرير عن حذيفة رضى الله عنه أن الآيات الثلاث ذكرت عنده فقال رجل إن هذا فى بنى إسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، كلا والله لتسلكن طريقهم قد الشراك ـ يحتمل أن يكون ذلك ميلا منه إلى القول بالعموم ، ويحتمل أن يكون ـ كما قيل ـ ميلا إلى القول بأن ذلك فى المسلمين ، وروى الأول عن على ابن الحسين رضى الله عنه ، إلا أنه قال : كفر ليس ككفر الشرك ، وفسق ليس كفسق الشرك ، وظلم ليس كظلم الشرك .

(هـ) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا :

بعد تفسيره للآيات كتب عنوانا « بحث عدم الحكم بما أنزل الله وكونه كفرا وظلما وفسقا » فقال :

الكفر والظلم والفسق كلمات تتوارد فى القرآن على حقيقة واحدة وترد بمعان مختلفة ... وقد اصطلح علماء الأصول والفروع على التعبير بلفظ الكفر عن الخروج عن الملة وما ينافى دين الله الحق دون لفظى الظلم والفسوق ، ولا يسع أحد منهم إنكار إطلاق القرآن لفظ الكفر على ما ليس كفرا فى عرفهم ، ولكنهم يقولون : كفر دون كفر . ولا إطلاقه لفظى الظلم والفسق على ما هو كفر فى عرفهم ، وما كل ظلم أو فسق يعد كفرا عندهم ، بل لا يطلقون لفظ الكفر على شىء مما يسمونه ظلما أو فسقا . لأجل هذا كان الحكم القاطع بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله محلا للبحث والتأويل عند من يوفق بين عرفه ونصوص القرآن .

ثم استعرض ما ذكره المفسرون نقلوه عن الصحابة والتابعين بما لا يخرج عما سبق من هذه النقول ، ثم عقب عليها بقوله :

إن قول من قال : إن هذه الآيات أو خواتم الآيات نزلت على بنى إسرائيل يراد به أنها نزلت فى شأنهم لا أنها من كتابهم ، إذ لا شىء يدل على أنها محكية وإلا فهو خطأ . والأوليان منها فى سياق الكلام على اليهود، والثالثة فى سياق الكلام على النصارى لا يجوز فيها غير ذلك ، وعبارتها عامة لا دليل فيها على الخصوصية ، ولا مانع يمنع من إرادة الكفر الأكبر فى الأولى ــ وكذا الأخريان ــ إذا كان الإعراض عن الحكم بما أنزل الله ناشئا من استقباحه وعدم الإذعان له وتفضيل غيره عليه ، وهذا هو المتبادر من السياق فى الأولى بمعونة سبب النزول كما رأيت فى تصويرنا للمعنى .

وإذا تأملت الآية أدنى تأمل تظهر لك نكتة التعبير بوصف الكفر فى الأولى وبوصف الظلم فى الثانية وبوصف الفسوق فى الثالثة ، فالألفاظ وردت بمعانيها فى أصل اللغة موافقة لاصطلاح العلماء ، ففى الآية الأولى كان الكلام فى التشريع وأنزل الكتاب مشتملا على الهدى والنور والتزام الأنبياء وحكماء العلماء والحكم به بالوصية بحفظه ، وختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له رغبة عن هدايته ونوره مؤثرا لغيره عليه فهو الكافر به ، وهذا واضح لا يدخل فيه من لم يتفق له الحكم به أو من ترك الحكم به عن جهالة ثم تاب إلى الله ، وهذا هو العاصى بترك الحكم الذى يتحامى أهل السنة القول بتكفيره ، والسياق يدل على ما ذكرنا من التعليل .

وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها فى أصل الكتاب الذى هو ركن الإيمان وترجمان الدين ، بل فى عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء بالعدل والمساواة ، فمن لم يحكم بذلك فهو الظالم فى حكمه كما هو ظاهر ، وأما الآية الثالثة فهى فى بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب فى إقامة الشريعة على الوجه الذى يطابق مراد الشارع وحكمته ، لا بحسب ظواهر الألفاظ فقط ، فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا بها فهم الفاسقون بالمعصية والخروج من محيط تأديب الشريعة .

وقد استحدث كثير من المسلمين من الشرائع والأحكام نحو ما استحدث الذين من قبلهم وتركوا بالحكم بها بعض ما أنزل الله عليهم فالذين يتركون ما أنزل الله فى كتابه من الأحكام من غير تأويل يعتقدون صحته فإنه يصدق عليهم ما قاله الله تعالى فى الآيات الثلاث أو فى بعضها كل بحسب حاله ، فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنى غير مذعن له لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعا ، ومن لم يحكم به لعلة أخرى فهو ظالم إن كان ذلك فى إضاعة الحق أو ترك العدل والمساواة فيه ، وإلا فهو فاسق فقط .

ثم قال الشيخ رشيد ما ملخصه : واختلف أهل السنة فى الآية ، فذهب بعضهم إلى إنها خاصة باليهود ، وبعضهم إلى أن الآية الأولى للمسلمين والثانية لليهود والثالثة للنصارى ، وبعضهم إلى العموم فيها كلها ، وأول هذا الفريق الآية بتأويلين ، أحدهما أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوى للتغليظ لا بمعناه الشرعى الذى هو الخروج عن الملة ، وثانيهما أن الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة ، وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله منكرا له ، أو راغبا عنه لاعتقاده بأنه ظلم مع علمه بأنه حكم الله أو نحو ذلك مما لا يجامع الإيمان والإذعان .

هذه نماذج من تفسيرات تمثل مذاهب عصور مختلفة ، يكاد يكون الاتفاق فيها على أن الكفر عند عدم الحكم بما أنزل الله يكون للجاحد المنكر له أو المستهزئ به أما غيره فلا يكون كافرا ، وحتى لو وصف بالكفر فهو من باب التنفير والزجر فإن عمله كعمل الكافرين ، ونؤكد مرة ثانية على أن الاختلاف فى تفسير النص يدل على أن دلالته ظنية ليست قطعية فلا يعتد بها فى العقائد ، ومن اعتد بها وحكم بالكفر على غيره فهو مخطئ، ويدخل تحت وعيد الحديث الذى ينهى عن رمى المؤمن بالكفر .

١١ ـ ما هو الطاغوت الذى يجب الكفر به حتى يتحقق الإيمان ؟

لقد ورد لفظ الطاغوت فى القرآن ثمانى مرات هى :

(أ) « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى» (١) .

(ب) « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » (٢) .

(جـ) « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » (٣) .

(د) « يريدون أن يتحاكمو إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » (٤) .

(هـ) « والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » (٥) .

(و) « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » (٦) .

(ز) « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» (٧)

(ح) « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى» (٨)

يقول الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن : الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ، ويستعمل فى الواحد والجمع .. ولما تقدم سمى الساحر والكاهن والمارد والجن والصارف عن طريق الخير طاغوتا أ هـ .

ولو تتبعنا تفسير هذه الآيات فى مواضعها ما رأيناها تخرج عن ذلك ، جاء فى تفسير الجلالين فى الآية الأولى والثانية أن الطاغوت هو الأصنام أو الشيطان ، وفى الآية الثالثة أن الجبت والطاغوت صنمان لقريش ، وفى الآية الرابعة أن الطاغوت كثير الطغيان وهو كعب بن الأشراف ، وفى الخامسة أنه الأوثان ، وفى الثامنة أنه الأوثان أيضا .

---

١ ـ سورة البقرة ٢٥٦
٢ ـ سورة البقرة ٢٧٥
٣ ـ سورة النساء ٥١
٤ ـ سورة النساء ٦٠
٥ ـ سورة النساء ٧٦
٦ ـ سورة المائدة ٦٠
٧ ـ سورة النحل ٣٦
٨ ـ سورة الزمر ١٧

ويظهر معنى الطاغوت فيما يعبد من دون الله من أصنام ومخلوقات أخرى إذا ذكر معه الإيمان وعبادة الله والكفر بالطاغوت . وهو يطلق على الباطل مطلقا ممن يعقل وما لا يعقل ، فإذا عبد من دون الله أو مع الله فذلك كفر أو شرك ، وإذا فتن به دون عبادة له كان عصيانا وفسوقا ، كالذى يفتنه الشيطان أو السلطان أو المال أو المرأة أو الذهب أو غير ذلك فتنة تلهيه عن الواجب وتغريه بالسوء ، وقد يطلق عليه أنه يعبده أى يحبه حبا شديدا ويستجيب له ويطيعه طاعة العبد لسيده ومنه حديث « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط » (١) والخميصة ـ بفتح الخاء ـ ثوب منقوش أو معلم من خز أى حرير ، أو صوف .

١٢ ـ ما تحقيق ما ورد من أن الذى يدعى أنه يعلم الغيب ، أو يصدقه يكون كافرا ؟

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أتى كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد » (٢) وروى أنه قال « من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا يؤمن بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » (٣) .

الكاهن هو الذى يخبر عن بعض المضمرات فيصيب بعضها ويخطىء أكثرها ويزعم أن الجن تخبره بذلك ، والعراف قيل هو كالكاهن ، وقيل : هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها كالمسروق من سرقة ، ومعرفة مكان الضالة ونحو ذلك . والساحر معروف .

إن علم الغيب علما حقيقيا خاص بالله وحده فيما نص عليه فى القرآن فى قوله تعالى « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » (٤) وهى المقصودة من قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا

---

١ ـ رواه البخارى
٢ ـ رواه البزار باسند جيد قوى
٣ ـ رواه الطبرانى برواة ثقات
٤ ـ سورة لقمان ٣٤

يعلمها إلا هو » (١) كما رواه البخارى ، وكل من يدعى علما بذلك فعلمه ظنى لا يقينى لأنه علم غير مبنى على وسائل يقينية وهو فى الوقت نفسه علم ناقص غير كامل ، وبهذا يمكن تقويم ما توصل إليه العلم من معرفة بعض هذه الأشياء أو ما يزعم الدجالون معرفته .

والذى يدعى العلم بهذه الأمور علما جازما شاملا فقد كذب القرآن الكريم فيما أخبر به عن استئثار الله بعلمها قال تعالى « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول » (٢) وكما يفيده أسلوب الحصر فى الآيتين السابقتين . وقد نفى الرسل عن أنفسهم علم الغيب وجاء فى القرآن قوله تعالى «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء» (٣) . ومن كذب القرآن كفر .

أما من لا يدعى علم الغيب ، بل يعتقد أن علمه ظنى فهو لا يكذب القرآن ولا يكفر بذلك ، لكنه منهى عنه لصورته ولأنه قد تبنى عليه أمور خطيرة ، كما حدث من كثير ممن يقال إنهم يتنبئون بالغيب قديما وحديثا والحديثان المذكوران يحملان على ادعاء العلم الحقيقى بالغيب كله ، وهما وإن كانا ظنيى الثبوت لأنهما لم يبلغا درجة الصحة المعتمدة فى العقائد فالقرآن شهد لهما ، وقد روى فى التنفير من الذهاب إلى الكهان وأمثالهم حتى لو لم يصدقوهم ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد ، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » (٤) لكن أصح حديث فى هذا الموضوع مارواه مسلم « من أتى عرافا فسأله عن شىء فصدقه لم يقبل له صلاة أربعين يوما » .

وهذا الحكم ينطبق على كل من يحاول معرفة الغيب بأية وسيلة من الوسائل كالتنجيم والتطير وزجر الطير وضرب الرمل والاستقسام بالأزلام والورق والودع ، وقراءة الكف والفنجان ، وحساب الجمل وغيرها .

---

١ ـ سورة الانعام ٥٩

٢ ـ سورة الجن ٢٦، ٢٧

٣ ـ سورة الأعراف ١٨٨

٤ ـ رواه الطبرانى عن طريق رشيد بن سعد

قال ابن حجر الهيثمى : إن الخواص يجوز أن يعلموا الغيب فى قضية أو قضايا كما وقع لكثير منهم واشتهر ، والذى اختص تعالى به إنما هو علم الجميع وعلم مفاتح الغيب . فمن ادعى علم الغيب فى قضية أو قضايا لا يكفر ، ومن ادعى علمه فى سائر القضايا كفر (١) .

١٣ ــ هل التعامل مع الكفار يؤدى إلى الكفر ؟

الأصل فى معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الأديان الأخرى قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (٢) وقوله « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » (٣) وقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ... » (٤) وقوله « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولوكانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٥) وقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » (٦) .

وقوله « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » (٧) وقوله « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » (٨) وقوله « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » (٩) .

١ ــ الاعلام بقواطع الإسلام ص ٣٥٩
٢ ــ سورة الممتحنة ٨ ، ٩
٣ ــ سورة التوبة ٧
٤ ــ سورة الممتحنة ١
٥ ــ سورة المجادلة ٢٢
٦ ــ سورة التوبة ٢٣
٧ ــ سورة لقمان ١٥
٨ ــ سورة المائدة ٥
٩ ــ سورة آل عمران ٢٨

وقد عاهد النبى صلى الله عليه وسلم اليهود عقب هجرته إلى المدينة معاهدة شملت بنودا كثيرة من التعاون على المصلحة المشتركة . ورضى أن تدخل معه خزاعة فى صلح الحديبية مع أنها لم تؤمن بعد ، وكان نقض قريش للصلح بالتعدى عليها من أسباب فتح مكة عندما استنصر به عمرو بن سالم الخزاعى :

يارب إنى ناشد محمد حلف أبينا وأبيه الأتلدا

واقترض النبى صلى الله عليه وسلم من يهودى اسمه « أبو الشحم » ثلاثين صاعا ورهن درعه عنده (١) . واستعار سلاحا من صفوان بن أمية ـ وهو مشرك ـ ليحارب به هوازن بعد فتح مكة ، وأمر سعد بن أبى وقاص أن يتداوى عند الحارث بن كلدة الثقفى وهو غير مسلم (٢) . بهذه النصوص وغيرها وبالتطبيقات التى طبقها من يقتدى بهم من الصحابة يعرف حكم العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، وخلاصة ما قيل فيها أن التعامل الظاهرى بالمعاملات المباحة كالتجارة والزيارة والهدايا والتعاون على المصلحة بالاتفاقات الفردية والجماعية كل ذلك لا يمنعه الإسلام مادام لا يضر بالمسلم ، فالإسلام لا ضرر فيه ولا ضرار . وعليه فاتخاذهم أولياء تضر موالاتهم بالمسلمين حرام.

أما الحب والمودة فإن كان ذلك حبا لعقيدتهم ودينهم فهو حرام بل كفر، وإن كان حبا لسلوكهم كأمانتهم وعلمهم ونشاطهم فلا حرمة فيه ولا كفر ، ومثله الحب الجنسى للزوجة ، فهو مباح حيث أبيح الزواج نفسه .

قال ابن حجر الهيثمى فى قول بعض الناس : الكفار خير من المسلمين فى أداء الحقوق ، وما يشبه ذلك من أقوال الإعجاب بسلوكهم : لو قصد الخيرية المطلقة ، وهى التى تشمل عقيدتهم ودينهم كله ، كفر وإن أراد الخيرية فى أداء الحقوق لم يكفر ، ا هـ بتصرف (٣) .

---

١ ـ رواه البيهقى ـ الزرقانى على المواهب ج ٣ ص ٣٧٩

٢ ـ رواه أبو داود بسند صحيح

٣ ـ الاعلام بقواطع الاسلام ص٣٦٣

وعلى ضوء هذا يمكن فهم النصوص المانعة من التعامل معهم والمبيحة له ، كما يفهم ما جاء في بعض كتب الفقه من التعاون مع التتار ومن سار في ركابهم ، فهو حرام إن كان فيه ضرر بالمسلمين ، وهو كفر إن كان فيه إعجاب بدينهم .

الفرق والمذاهب الدينية (★)

ذكرنا فى الجزء الأول من هذا البيان ، أن اختلاف الآراء والمذاهب هو من طبيعة الوجود الإنسانى ، وظاهرة من ظواهر الاجتماع البشرى ، ضرورة اعتداد كل فرد بعقله واعتزازه برأيه ، وأنفته أن يخضع لغيره بأى نوع من أنواع الخضوع حتى فى مجرد المتابعة الفكرية ، ولو كان بعيدا عن مجال التطبيق ، ولئن حدث شىء من هذه المتابعة فإنه يراه مضطرا إليه ، نتيجة لعيشه وسط أسرة يوجهها ، أو وسط مجتمع كبير تفرض عليه قوانينه ليعيش متماسكا .

وإذا كان المجتمع الإسلامى الخاص ، فى ضمن المجتمع البشرى العام ، تكثر فيه الآراء والمذاهب على نحو ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه معاوية بن أبى سفيان « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون منها فى النار وواحدة فى الجنة » (١) فإن هذه الفرقة الناجية تتنازعها وتدعيها كل الفرق ، بل تحاول بوسيلة أو بأخرى أن تفرض رأيها على غيرها ، وذلك كله على الرغم من أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وآثار السلف الصالح تدعوا إلى اتباع الطريق المستقيم ، ونبذ الطرق الملتوية كما فى قوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (٢) وقوله «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» (٣) وقوله « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » (٤) وقوله فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » (٥) وقول النبى صلى الله عليه وسلم «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٦) وقوله « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (٧) .

---

١ ــ رواه أحمد وأبو داود
٢ ــ سورة آل عمران : ١٠٣
٣ ــ سورة الأنعام : ١٥٣
٤ ــ سورة النساء : ١١٥
٥ ــ سورة النساء : ٥٩
٦ ــ رواه البخارى ومسلم
٧ ــ رواه أبو داود والترمذى عن العرباض بن سارية ، وقال : حسن صحيح .

(★) من كتاب "بيان للناس" ج٢ الصادر عن جامعة الأزهر ١٩٩٤

نقول : على الرغم من هذا وغيره فقد حدث الخلاف بين المسلمين وكثرت الآراء والأفكار ، وكانت الدواعى الى ذلك متنوعة ، تتردد بين الظروف السياسية والعصبية القبلية والمآرب الشخصية ، واشتد الخلاف بعد التلاقح الفكرى بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى ، فكانت هناك الدوافع العلمية الثقافية والسلوكية الخلقية ، ونشأت فى ظلها فرق ومدارس للمتكلمين والفلاسفة والمتصوفة ، وامتد أثرها إلى فقهاء الشريعة وعلماء الأدب وكتاب التاريخ ·

وإذا كان هناك عدد ضخم من الفرق ظهر على مدى التاريخ الإسلامى ، فإن المذاهب الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها مما نشأ فى الأوساط غير الإسلامية أضخم عددا وأقوى أثرا وأوسع انتشارا ، لأنها تستخدم من وسائل الدعاية أساليب جديدة سخرها لها العلم ، ورصدت لها الإمكانات الضخمة ، إلى جانب الحرية الفكرية المطلقة التى لا تعرف الحدود ·

وأهم هذه الفرق أو بقاياها التى تعيش بيننا الآن ، وتمس الدين من قريب أو من بعيد ، تتنوع أنواعا ثلاثة ، أولها فرق قديمة النشأة والتسمية حدثت فى المجتمع الإسلامى الأول ، وحافظت على كيانها وامتد نشاطها الى عصرنا الحاضر ، كالشيعة بأقسامها الهامة ، وهى الزيدية والإمامية والإسماعيلية والنصيرية أو العلوية ، وكالخوارج التى عاشت إحدى فرقها الى الآن وسميت باسم الأباضية ، وثانيها فرق حديثة النشأة فى المجتمع الإسلامى ، كالقاديانية والبابية أو البهائية ، وثالثها فرق أو مذاهب واتجاهات أو تنظيمات تحمل أسماء معينة كالماسونية ·

وإلى القارىء نبذة بسيطة عن كل منها :

١ ـ الشيعة

الشيعة هم أتباع سيدنا على رضى الله عنه والموالون لآل البيت ، والمسلمون جميعا مأمورون بحب آل البيت وتكريمهم ، وقد وردت فى ذلك عدة نصوص ، منها قول الله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » (١) ، وقوله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (٢) وذلك على خلاف بين المفسرين فى تحديد القربى وأهل البيت » (٣) وقوله صلى الله عليه وسلم : « أذكركم الله فى أهل بيتى » ثلاث مرات ، وقوله : « يا أيها الناس ارقبوا محمدا فى أهل بيته » (٤) .

غير أن بعضا من المسلمين اشتد حبهم لسيدنا على وذريته ، وتغالوا فى تكريمهم ، لدرجة أن بعضهم اعتقد ألوهية سيدنا على ، وبعضهم اعتقد أنه النبى المرسل وغلط جبريل فنزل بالوحى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من قال : إنهما شريكان فى النبوة ، وقالوا إنه الإمام بعد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالنص الجلى أو الخفى . دون أبى بكر وعمر وعثمان ، وأن الإمامة لا تخرج عنه ولا عن أولاده ، وإن خرجت فبظلم أو بتقية .

وأشهر فرقهم الموجودة الآن خمسة :

١ ـ الزيـــدية :

وهم أتباع زيد بن على بن الحسين ، لما دعا الشيعة لحرب الأمويين سألوه رأيه فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فأثنى عليهما ، فرفضوه ، وسموا بالرافضة ، وهم يوجدون الآن فى اليمن ، ومذهبهم قريب من مذهب أهل السنة ، وهم وإن اعتقدوا أفضلية على على أبى بكر وعمر ، أجازوا إمامة المفضول مع قيام الفاضل .

---

١ ـ سورة الشورى : ٢٣
٢ ـ سورة الأحزاب : ٣٣
٣ ـ رواه مسلم
٤ ـ رواه البخارى

٢ ـ الإمامية :

وهم الذين قالوا بإمامة اثنى عشر من آل البيت ، ويسمون بالاثنى عشرية وبالموسوية ، لأن الأئمة عندهم هم : على ، الحسن ، الحسين ، على زين العابدين بن الحسين ، وكانت الإمامة لابنه الأكبر « زيد » فلما رفضوه كما تقدم ولوا بدله أخاه محمدا الباقر ، ثم جعفر الصادق ، وكان له ستة أولاد ، أكبرهم إسماعيل ثم موسى. ولما مات إسماعيل فى حياة أبيه أوصى والده بالإمامة إلى ابنه موسى الكاظم ، وبعد وفاة جعفر انقسم الأتباع ، فمنهم من استمر على إمامة إسماعيل وهم : الإسماعيلية أو السبعية ، والباقون اعترفوا بموسى الكاظم ، وهم الموسوية . ومن بعده على الرضا ، ثم ابنه محمد الجواد، ثم ابنه الحسن العسكرى ، نسبة إلى مدينة العسكر « سامرا » وهو الإمام الحادى عشر ، ثم ابنه محمد الإمام الثانى عشر ، وقد مات ولم يعقب، فوقف تسلسل الأئمة . وكانت وفاته سنة ٢٦٥ هـ . ويقول الإمامية : إنه دخل سردابا فى « سامرا » فلم يمت ، وسيرجع بعد ذلك باسم المهدى المنتظر .

وهذه الطائفة منتشرة فى إيران والعراق وسوريا ولبنان . ومنهم جماعات متفرقة فى أنحاء العالم . ولهم كتب ومؤلفات كثيرة من أهمها كتاب «الوافى» فى ثلاثة مجلدات كبيرة ، جمعت كثيرا مما فى كتبهم الأخرى ، كتب عليه أحد أهل السنة نقدا سماه « الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة » وكان ذلك فى فبراير سنة ١٩٣٥ م كما كتب رئيس أهل السنة بباكستان « محمد عبد الستار التونسوى » رسالة فى ذلك .

ومن أهم أصولهم :

١ ـ تكفير الصحابة ولعنهم ، وبخاصة أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلا عددا قليلا جدا كانوا موالين لعلى رضى الله عنه . وقد رووا عن الباقر والصادق : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . من ادعى إمامة ليست له ، ومن جحد إماما من عند الله ، ومن زعم أن أبا بكر وعمر لهما نصيب فى الإسلام . ويقولون : إن عائشة وحفصة رضى

الله عنهما كافرتان مخلدتان ، مؤولين عليهما قول الله تعالى « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامـرأة لوط » (١) .

٢ ـ ادعاء أن القرآن الموجود فى المصاحف الآن ناقص ، لأن منافقى الصحابة (هكذا) حذفوا منه ما يخص عليا وذريته ، وأن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد سبعة آلاف آية ، والموجود الآن ٦٢٦٣ والباقى مخزون عند آل البيت فيما جمعه على ، والقائم على أمر آل البيت يخرج المصحف الذى كتبه على ، وهو غائب بغيبة الإمام .

٣ ـ رفض كل رواية تأتى عن غير أئمتهم ، فهم عندهم معصومون ، بل قال بعضهم : إن عصمتهم أثبت من عصمة الأنبياء .

٤ ـ التقية : وهى إظهار خلاف العقيدة الباطنة ، لدفع السوء عنهم .

٥ ـ الجهاد غير مشروع الآن ، وذلك لغيبة الإمام والجهاد مع غيره حرام ولا يطاع ، ولا شهيد فى حرب إلا من كان من الشيعة ، حتى لو مات على فراشه .

وهناك تفريعات كثيرة على هذه الاصول . منها :

عدم اهتمامهم بحفظ القرآن ، انتظارا لمصحف الإمام ، وقولهم بالبداء ، بمعنى أن الله يبدو له كل شىء لم يكن يعلمه من قبل ويتأسف على ما فعل، والجمعة معطلة فى كثير من مساجدهم ، وذلك لغيبة الإمام ، ويبيحون تصوير سيدنا محمد وسيدنا على ، وصورهما تباع أمام المشاهد والأضرحة ، ويدينون بلعن أبى بكر وعمر .

٣ ـ الإسماعيلية :

وهى تديـن لإسماعيل بن جعفـر الصادق ، وهـم أجـداد الفاطـميين

---

١ ـ سورة التحريم : ١٠

والقرامطة ، يعتقدون التناسخ والحلول ، وبعضهم يدعى ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، وبعضهم يدعى رجعة من مات من الأئمة بصورة التناسخ .

وهذه الفرقة طائفتان ، إحداهما فى الهند وتسمى « البهرة » ويتركزون فى بومباى ، يعترفون بالأركان الخمسة الواردة فى الحديث وهو : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » (١) ويزيدون عليه ركنا اسمه : « الطهارات » ويتضمن تحريم الدخان والموسيقى والأفلام . وهم فى صلواتهم يجتمعون بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، ولا يصلون الجمعة ، ويحتفلون بغدير « خم » فى ١٨ من ذى الحجة كل عام ، حيث تمت فيه الوصية لعلى (٢) .

والطائفة الأخرى فى « سلمية » بسوريا وفى زنجبار وشرقى أفريقيا ، وتسمى « الأغاخانية » نسبة إلى زعيمهم « أغا خان » .

٤ ـ النصيرية :

وهم أتباع أحد وكلاء الحسن العسكرى ، واسمه محمد بن نصير ، والذين تسموا فى عهد الاحتلال الفرنسى بسوريا باسم « العلويين » .

ومن كتاب « تاريخ العلويين » لمحمد أمين غالب الطويل ، وهو نصيرى ، ومن غيره من الكتب والمراجع نوجز أهم مبادئهم فيما يلى :

(أ) الولاية لعلى ، زاعمين أن النبى صلى الله عليه وسلم بايعه ثلاث مرات سرا ، ومرة رابعة جهرا .

(ب) عصمة الأئمة ، لأن الخطايا رجس وقد قال الله فى أهل البيت

---

١ ـ رواه البخارى ومسلم .
٢ ـ مجلة العربى سبتمبر ١٩٧٥ ، المصور ١٩٧٨/١/٢٠ ، الأهرام ١٩٧٥/٥/٢ .

« ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . وبناء على ذلك يعتقدون أن الإمام أعلى من بعض الوجوه من الأنبياء ، لأنهم معرضون للخطأ ، ولم يرد فى القرآن ما ينزههم عنه ، أما الأئمة فمعصومون بنص القرآن .

(ج) التقية : أو التكتم فى الدين ، فإخفاء عقيدتهم من كمال الإيمان.

(د) علم الباطن : فهو فى زعمهم مختص بهم ، وهم على صواب دائم فى تفسير القرآن وعلم أسراره لأنهم معصومون .

وبناء على هذه الأصول قالوا بألوهية متحدة الحقيقة مثلثة الأجزاء ، فالألوهية معنى وحقيقة ، وهو على ، ولها اسم وحجاب ، وهو محمد ، ولها باب يوصل اليها ، وهو سلمان ، فعلى رب العالمين ، والقرآن منه ، وكل نبى بعث ليتكلم بلسانه ، وكان هو مع كل رسول متجسدا فى صورة وصى له ، ويرمزون الى هذا الثالوث برمز « ع . م . س » .

ولهم تفريعات على ذلك : فالعبادات الواردة فى القرآن بما فيها من أوامر ونواه هى أسماء أماكن ، والأشهر الحرم عندهم هى : فاطمة والحسن والحسين وعلى ابنه ، والقيامة عندهم هى قيامة المحتجب صاحب الزمان .

والمنتسبون الى هذا المذهب طبقات ، منهم متعلمون لا يدينون به لكن لا يجدون عوضا عنه ، ومنهم الشيوخ والرؤساء المتمسكون ، ومنهم العامة الذين يعيشون على غير هدى ، وسيأتى حكم الإسلام عليهم مع الدروز .

الـــــدروز :

وهم أتباع أبى محمد الدَّرزى ـ بفتح الدال المشددة ـ وكانوا أولا من الإسماعيلية ثم خرجوا عليهم ، ويسكنون سوريا ولبنان .

تقوم عقيدتهم على تألية الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وبرجعته ، ويتخذون سنة ٤٠٨ هـ مبدأ لتاريخهم الذى أعلن فيه الدعاة ألوهية الحاكم ، وهم يعتبرون فى الرسميات مسلمين ، وإن كانت مبادئهم الدينية سرية لا يصرحون بها ، فنشأت شائعات عن عقائدهم وعباداتهم ، حتى كانت حملة الجيش السورى على جبل الدروز فى أواخر عهد « الشيشكلى » فعثر على بعض مخطوطاتهم التى شرحت مذهبهم ، وألف بعض مؤرخى العصر الحديث كتابا عنهم .

يقولون بالتقية أى التظاهر بموافقة الآخرين ، ويقولون أيضا بالتناسخ ، وهم ثلاث درجات : العقل أو العقّال ـ بتشديد القاف المفتوحة ـ ، وهم رجال الدين ذووا النفوذ الكبير ، والثانية : الأجاويد ، المطلعون على تعاليم الدين والملتزمون بها ، والثالثة : العامة أو الجهال .

وليس لهم مساجد ، بل خلوات خاصة لا يدرى ما يجرى فيها ، ولا يصومون ، إلا ما يقال عن الشيوخ العقل من صيام أيام غير رمضان ، ولا يحجون إلى الكعبة ، بل إلى خلوة البياضية فى بلدة « حاصبية » التابعة لبيروت ، ويقال إنهم لا يقرون تعدد الزوجات ، ولا الرجعة فى الطلاق ، ولا يورثون البنات .

هذا بعض ما تسرب من المعلومات عنهم فى الكتب والأخبار ، ونظرا للسرية التامة ولتشددهم فى مبدأ التقية فإن حقيقة مذهبهم لا يعرف منها إلا القليل ، لكن كتب عنهم « عصام الجيتاوى » كلاما تفصيليا نشرته مجلة « المجتمع » التى صدرت بالكويت بتاريخ ١٩٧٨/٤/٢٥ م ، فيرجع إليه .

وقد صدرت عن دار الإفتاء المصرية فتوى فى ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ م مأخوذة عن ابن عابدين (١) نصها : تنبيه ، يعلم مما هنا حكم الدروز والتيامنة فإنهم من البلاد الشامية يظهرون الإسلام والصوم والصلاة مع أنهم يعتقدون تناسخ الأرواح ، وحل الخمر والزنا ، وأن الألوهية تظهر فى

---

١ ـ رد المحتار ـ الجزء الثالث ـ باب المرتد .

شخص بعد شخص ، ويجحدون الحشر والصوم والصلاة والحج ، ويقولون : المسمى بها غير المعنى المراد ، ويتكلمون فى جناب نبينا صلى الله عليه وسلم كلمات فظيعة ، وللعلامة المحقق عبد الرحمن العبادى فيهم فتوى مطولة ، وذكر فيها أنهم ينتحلون عقائد النصيرية والإسماعيلية الذين يلقبون بالقرامطة والباطنية الذين ذكرهم صاحب المواقف ، ونقل عن علماء المذاهب الأربعة أنه لا يحل إقرارهم فى ديار الإسلام بجزية ولا غيرها ، ولا تحل مناكحتهم ولا ذبائحهم . أ. هـ .

وقال ابن عابدين أيضا فى رد المحتار فى فصل المحرمات عند قول المصنف وحرم نكاح الوثنية بالإجماع ما نصه : قلت : وشمل ذلك الدروز والنصيرية والنيامنة ، فلا تحل مناكحتهم ولا تؤكل ذبيحتهم ، لأنهم ليس لهم كتاب سماوى . أ. هـ (٢) .

....

١ ـ الفتاوى الإسلامية : مجلد ١ ص ٢٠٢

٢ ـ الخـوارج

أصل حركتهم هو ما كان من جهاد الإمام على رضى الله عنه معهم ، حتى انتهى الى اغتياله على يد أحدهم وهو ابن ملجم (١) .

وهم ـ كما يقول صاحب المواقف فى علم التوحيد ـ سبع فرق ، لكن أكثرها اندثر وما يعرف منها الآن فرقة « الإباضية » التى تنتسب الى زعيمهم « عبد الله بن إباض » ويكثرون فى ساحل الخليج العربى وزنجبار وشرقى أفريقيا وفى شماليها ، وبخاصة ليبيا والجزائر فى وادى «ميزاب» .

وهم فى عقيدتهم على رأى الخوارج الأصليين الذين يكفرون مرتكب الكبيرة ، لكنهم يقولون : إن المراد بالكفر كفر النعمة ، ويعترفون بالقرآن والحديث مصدرين للعلم ، ويصرون على أن القدوة الحسنة بعد النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويكفرون عليا وأكثر الصحابة ، ويوجبون على المسلمين إقامة الإمامة عند القدرة و العلم ، ويرون أن العزلة أفضل من الاختلاط بالمجتمع ، وهم أعدل فرق الخوارج كالزيدية فى الشيعة . وقد ألف أحد الكتاب الليبيين كتابا فى ثلاثة أجزاء بعنوان « الإباضية فى موكب التاريخ » حاول أن يقطع صلتهم بالخوارج ، ويجعل لهم مذهبا مستقلا أساسه حرية الرأى ٠

---

١ ـ ولعل موقفهم المتشدد نحو الحكم والمجتمع يرجع الى أن أكثرهم كانوا من قبائل ربيعة التى تنافس قبائل مضر منذ زمن بعيد ، فهم ينفسون على قريش المضرية التى تريد أن تحصر الخلافة فيهم ، ونادوا بأن تكون حقا لكل من عنده أهلية لها من أية قبيلة ، ليسهل عزل الخليفة حيث لا تكون له عصبية تحميه .

كما أن أسباب سخطهم على المجتمع أن أكثرهم كان يعيش فى البادية بخشونتها وفقرها وصلابة رأيها ، ولما جاء الإسلام لم يغير من حالهم كثيرا لأنهم لزموا عيشة البدو ولم يتأثروا بعيشة الحضر ، فاعتنقوه بقوة امتزجت بما ورثوه من سذاجة فكر وضيق صدر ، فكان لذلك أثره فى الحكم على المجتمع الذى انصرفوا عنه إلى العبادة التى تزملهم إلى الحياة الطيبة فى الآخرة ٠ أنظر « تاريخ المذاهب الإسلامية » للشيخ محمد أبو زهرة ٠

وقال « الأيجى » صاحب المواقف : إن الإباضية من الخوارج افترقوا أربع فرق وعد منها « اليزيدية » أصحاب يزيد بن أنيسة ، الذين قالوا سيبعث نبى من العجم بكتاب يكتب فى السماء ، ويترك شريعة محمد إلى ملة الصابئة ، وكل ذنب عندهم شرك .

وفى الحق أن تنوع الفرقة الواحدة عدة أنواع لكل منها مبدأ يخالف به ما فى الأنواع الأخرى ، يجعل الحكم على أى فرقة حكما غير محدد ، وذلك لتأثر الأفكار بعضها ببعض ، ولعدم تكون وحدة واحدة جامعة لأفكار واضحة يستمر عليها الاعتقاد ولعدم قيام الأفكار على أدلة ثابتة يسهل التحول عنها إلى أفكار أخرى ، حتى ليكاد يكون لكل فرد فكره الخاص به .

* * * * * * * * *
* * * * * * *
* * * * *
* * *
*

٣ _ القاديانية

تنسب هذه النحلة إلى غلام أحمد القادياني ، الذى نادى بها فى أواخر القرن التاسع عشر فى بلاد الهند ، وهى امتداد لفرية ادعاء النبوة التى ظهرت على يد مسيلمة الكذاب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

ولد غلام أحمد فى بلدة « قاديان » سنة ١٨٣٦ م ، وتعلم بعض القرآن واللغة العربية ، ولم يتلق العلوم الدينية على يد أحد من الأساتذة ، بل اعتمد على نفسه فيها كما يقول ابنه محمود فى كتابه « أحمد رسول آخر الزمان ».

ولما بسط الانكليز نفوذهم على إقليم البنجاب تقلد إحدى الوظائف فى إدارة نائب المندوب السامى فى « سيالكوت » . وفى سنة ١٨٧٦ م مرض أبوه فزعم أحمد أن الوحى نزل عليه بأن أباه سيموت ، وكانت هذه بداية زعمه أنه نبى يوحى إليه .

عارضه المسلمون وناظره العلماء كثيرا ، لكنه كان تحت حماية الانكليز فلم يمسه أحد بسوء . وفى سنة ١٩٠٥ م زعم أن الوحى أخبره بقرب أجله ، فكتب الكتاب المعروف عندهم بالوصاية ، ولكن أجله امتد ثلاث سنوات ، مات فى إحدى جولاته فى « لاهور » فى ٢٦ من مايو ١٩٠٨ م ، ونقل إلى قاديان ودفن بها .

وبعد موته انقسم الأتباع إلى شعبتين : شعبة قاديان ورئيسها هو « ميزرا بشير الدين محمود » ابنه ، وشعبه لاهور التى من أكبر زعمائها « محمد على » الكاتب الإسلامى الذى ترجم القرآن إلى الإنجليزية ، ونصف الأتباع فى باكستان والباقون موزعون فى سائر أنحاء العالم .

والدارسون لهذه النحلة ونشاطها يؤكدون أن مؤسسها غامض الشخصية غير واضح الهدف ، ولكن عنده طموح إلى الزعامة الدينية باسم النبوة ، وغرضه السياسى هو خدمة الانجليز الذين شجعوه . لقد قال فى «ص ١٠» من كتاب ملحق بشهادة القرآن : لقد ظللت منذ حداثتى ، وقد ناهزت اليوم

الستين ، أجاهد بلساني وقلمي لأصرف المسلمين الى الإخلاص للحكومة الانجليزية والنصح لها والعطف عليها ، وأنفى فكرة الجهاد التى يدين بها بعض جهالهم ، والتى تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة وكان من أبرز المقاومين لهذه الحركة الشاعر «محمد إقبال» ومن أهم مبادىء هذه النحلة :

(أ) ادعاء زعيمهم أن الوحى ينزل عليه كما ينزل على الأنبياء ، بل ينزل على أتباعه أيضا .

(ب) ومادام الوحى ينزل عليه فهو نبى ، وقد صرح بذلك فى خطبته الإلهامية ، مستندا إلى أن القرآن يقول : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » (١) . حيث إن الفعل المضارع للاستقبال ، فلا مانع من اصطفائه من يشاء من الناس وجاء فى الشهادة التى يطلب فيها الانضمام إلى الجماعة « وانى لأومن أيضا بالنبى أحمد » وهذه الصيغة تستخدم فى المسجد القائم بمنطقة كولومبيا بواشنطن (٢) .

(جـ) ادعاء أن له معجزات تدل على صدقه ، التى عد منها براءته من قضايا القذف التى كانت تقام عليه ، ونجاته من أذى العامة عندما يكون محاطا بالشرطة ، وذلك ثابت فى خطبته الإلهامية.

(د) غروره وتفضيله لنفسه على بعض رسل الله ، حيث جاء فى كتاب « أحمد رسول العالم الموعود » : فالواقع أن الله قد أبلغنى أن مسيح السلالة الإسلامية ـ يعنى غلام أحمد ـ أعظم من مسيح السلالة الموسوية ـ يعنى عيسى .

(هـ) تكفيره لمن لم يؤمن برسالته .

(و) موالاته للإنجليز فى إبطال الجهاد ضدهم .

---

١ ـ سورة الحج : ٧٥   ٢ ـ دائرة المعارف الإسلامية

هذا ، وشعبة لاهور تقول : إن غلام أحمد ليس نبيا ولكنه مجدد فقط، غير أن لهم فرية مؤداها أن المسيح عيسى بن مريم ولد من أب ويصرح زعيمهم « محمد على » بأنه ابن يوسف النجار ، ويحاول تحريف بعض الآيات لتوافق هذا الرأى كما جاء فى كتابه « عيسى ومحمد ص ٧٦ » . وتقول دائرة المعارف الإسلامية : إن الأحمدية تخالف الإسلام فى طبيعة المسيح ، فتدعى أنه لم يصلب ، بل مات فى الظاهر ودفن فى قبر خرج منه بعد ذلك وهاجر إلى الهند ، ويقال إنه توفى بها .

إن إدعاءات هذه النحلة باطلة ، فالوحي الذى ينزل على زعيمهم إن كان بمعنى الإلهام فليس هو وحده مختصا بذلك ، فالنحل يوحى اليه كما ذكر القرآن الكريم « وأوحى ربك إلى النحل » (١) وإن كان عن طريق جبريل فباطل ، لأنه يستلزم النبوة التى ختمت بالنبى صلى الله عليه وسلم ، والنصوص فى ذلك كثيرة .

ولو كانوا يعتمدون على قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٢) حيث يفسرون الخاتم بالحلية والزينة ، وذلك لا يستلزم انتهاء النبوة به ، فنقول : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى » (٣) وحديث على «أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى» (٤) .

وما استندوا إليه من أن الفعل المضارع فى قوله « الله يصطفى » يدل على الاستمرار مردود بأن الاصطفاء قد مضى وانتهى . وقد يعبر عما مضى بالحال ـ أى المضارع ـ عند الاقتضاء كما قرره علماء البلاغة ، وذلك كاستحضار الصور الماضية وعرضها على الحاضرين لغرابتها وأهميتها ، كما أن التعبير « يصطفى » يدل على تجدد الاصطفاء ، بمعنى أنه لم يقع مرة واحدة ثم انقطع ، حتى لا يفهم أنه حدث مرة واحدة لأحد الأنبياء ثم انقطع .

---

١ ـ سورة النحل : ٦٨
٢ ـ سورة الأحزاب : ٤٠
٣ ـ رواه البخارى
٤ ـ رواه مسلم

وزعمه أن معجزاته فى نجاته من أعدائه مردود ، فلماذا لا يكون من باب استدراج الضالين كما قال تعالى « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين (١) .

وتفضيل نفسه على عيسى باطل ، فهناك فرق كبير بين الدجال الكذاب والرسول الصادق .

وكونه يحكم على غيره بالكفر ليس جديدا على أصحاب الدعوات الكاذبة ، وموالاته للانجليز ودعوته إلى منع الجهاد ضدهم تدل على خروجه على مبادىء الإسلام ، وادعاء شعبة لاهور أن غلام أحمد مجدد لا نبى ، نفاق واضح ، لأنهم يؤمنون بكتبه المحشوة بالأباطيل .

هذا وقد صدرت فتوى من دار الإفتاء المصرية فى ٢٧ من يوليو سنة ١٩٥٩ م خاصة بمن يؤمنون بنزول نبى فى باكستان بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقالت ما نصه :

إن من الثابت شرعا أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين . وبثبوت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع . فمن قال : « بظهور نبى بعده نص الفقهاء على أنه يكون مرتدا » (٢) .

وأكد فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر فى إجابته على أسئلة وردت اليه من رئيس المجلس الاسلامى لجنوب أفريقيا ورئيس المجلس الشرعى لإقليم الكاب ، فقرر أن طائفة الأحمدية وهى فرقة من القاديانية تعتبر مرتدة عن الإسلام ، وليس لها أن تدخل مساجد المسلمين لقوله تعالى « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله (٣) ولا أن تدفن موتاها فى مقابر المسلمين (٤) .

---

١ ــ سورة آل عمران : ١٧٨
٢ ــ سورة التوبة : ١٧
٣ ــ الفتاوى الإسلامية : مجلد ٦ ص ٢١٣٣
٤ ــ مجلة الأزهر عدد ذى الحجة ١٤٠٥ هـ

هذه نبذة بسيطة عن النحلة ونشاطها ومبادىء الحكم عليها ، لم نرد بها الاستيعاب ، ونحيلك أيها القارىء على ما كتب فيها من الكتب ونشر من المقالات ، مثل :

١ _ القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام تأليف « أبو الحسن على الحسنى الندوى » .

٢ _ القاديانية للشيخ محمد الخضر حسين ، مقال نشر بمجلة الأزهر وطبع منفصلا ووزع معها .

٣ _ كتاب للدكتور حسن عيسى عبد الظاهر عن القاديانية .

٤ _ كتاب « دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة » وفيه بحث كبير عن القاديانية .

٤ ـ البابية والبهائية

البابية نسبة إلى « الباب » وهو لفظ متداول عند بعض الفرق الباطنية ، يطلقونه على أركان دعوتهم ، من قبيل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » (١) .

والباب وسيلة لمعرفة ما يوجد داخل البناء الذى جعل له باب ، وهو لفظ أطلقه على نفسه أحد دعاة نحلة البابية وهو « ميزرا على محمد الشيرازى » المتوفى فى تبريز سنة ١٨٤٥ م أو ١٨٥٠ م .

والبهائية نسبة الى « البهاء » وهو لفظ أطلقه على نفسه أحد دعاة هذه النحلة بعد الشيرازى وهو « حسين على نورى » الملقب ببهاء الدين ، فسميت النحلة أيضا بالبهائية .

وهذه النحلة أساسها فكر شيعى ، تنقلت مع الدعوة الباطنية عبر التاريخ ، وظهرت بوضوح قبل القرن الثالث عشر الهجرى فى إيران والعراق والهند وجزيرة العرب .

تزعمها أولا « أحمد الاحسائى » المتوفى سنة ١٨٢٦ م ، وقال بعض المؤرخين إن ظهورها كان لغرض سياسى اختفى وراء المظهر الدينى ، فإن الاحسائى وزميله « كاظما الرشتى » أصلهما قيسان استخدمهما الاستعمار لتشويه محاسن الإسلام وتفريق صفوف المسلمين (٢) ، كما استخدم القاديانية فى الهند من أجل هذا الغرض .

ومن أكبر دعاتها « ميزرا على محمد الشيرازى » وقد ادعى ، وهو فى سن الخامسة والعشرين ، أنه المهدى المنتظر ، وألف كتبا ادعى أصحابه أنها وحى ، وكذلك من دعاتها : ميزرا محمد على المازندرانى ، يحيى نور الملقب بصبح أزل ، وأخوه حسين على نورى .

---

١ ـ رواه الترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه .

٢ ـ مجلة التوعية الإسلامية بالسعودية العدد ٧ من ذى الحجة ١٣٩٨ هـ .

قاوم الناس هذه البدعة وحملوا الحكومة على وقف نشاطها وقتل كثير منهم ، ثم حدث نزاع بين زعمائها انتهى إلى تكوين مركزين كبيرين ، أحدهما فى عكا والآخر فى قبرص ، وكان زعيم الأول حسين نورى الذى توفى فى عكا سنة ١٨٩٢ م وزعيم الثانى أخوة يحيى الذى توفى سنة ١٩١٢م وتولى الزعامة بعد حسين نورى «بهاء الله» ابنه عباس المتوفى سنة ١٩٢٢ م، وخلفه على الزعامة شوقى أفندى الذى توفى سنة ١٩٥٧ م .

وأهم المبادىء التى قامت عليها هذه البدعة :

(أ) الحلول ، فهم يزعمون أن الله بعد ظهوره فى الأئمة الإثنى عشر ظهر فى أحمد الاحسائى ومن جاءوا بعده ، وما يدل على ذلك أن شعارهم العام هو اللافتات المعلقة فى بيوتهم وعليها عبارة « يا إلهى بهاء » .

(ب) عدم ختم النبوة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(جـ) ظهور المعصوم ، وهو من أهم معالم بدعتهم .

(د) عدم الاعتراف بالقيامة وما بعدها ، وتأويلهم الجنة بالحياة الروحية ، والنار بالموت الروحانى .

(هـ) إنكارهم معجزات الأنبياء ، مع قولهم بالنبوات ، وهذا دليل على الخلط فى أفكارهم .

(و) الإسراف فى تأويل القرآن ، زاعمين أن الألفاظ القرآنية لها معان باطنية لا بد أن تحمل عليها ، ففى تفسير سورة يوسف الذى ألفه « الباب » عند قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » قال : يوسف هو حسين بن على ، والشمس فاطمة ، والقمر محمد ، والنجوم هم أئمة الحق ، فهم الذين يبكون على يوسف سجدا ، ومن هذه التأويلات كثير فى كتاب « الدرر البهية » الذى ألفه داعيتهم بمصر أبو الفضل الجرفادقانى وطبع بالقاهرة سنة ١٩٢٠ م .

(ز) مناصرتهم لكل عدو للمسلمين ، وتمنياتهم لليهود أن يكون لهم الوطن الموعود .

ولهم تفريعات كثيرة على عقيدتهم منها :

أن عدد ١٩ يحظى بنصيب كبير فى تشريعاتهم ، لأنه مقدس ، وجاء تقديسه من أنه حاصل جمل كلمة « واحد » أو كلمة « وجود » حسب النظام اليهودى فى دلالة الأحرف على أرقام ، فالواو = ٦ والألف = ١ والحاء = ٨ والدال = ٤ ، والجيم = ٣ ، والسنة عندهم ١٩ شهرا ، والشهر ١٩ يوما ، والجمعية المؤلفة للنظر فى بيت العدل الذى يدير شئونهم بعد موت الزعماء عدد أعضائها ١٩ ، والصلاة ٩ ركعات . والقبلة حيث يكون « البهاء » . والحج إلى الكعبة باطل .

وفى كتاب « العهدة » الذى وضعه البهاء وفيه وصية لولده عباس ، حظر عليه ادعاء الألوهية ألف سنة ، لينفرد هو بها هذه المدة . ولما رأى عباس نفور الناس من هذه البدعة حول نشاطها إلى خدمات إنسانية .

إن هذه النحلة مصنوعة من أديان ونحل وفلسفات مختلفة ، كما يقول صاحب كتاب « مفتاح باب الأبواب » فى وصفه للبهائيين ، وهى ليست حركة إصلاحية ، بل حركة استغلها الاستعمار لصالحه ، وتلتقى مع الماسونية فى هدفها ، وهو صرف الناس عن أديانهم السماوية والعمل لصالح الإنسانية تحت شعار جديد ، وقد جاء ذلك مصرحا به من « عباس أفندى » حيث قال : الجميع يجدون فيها دينا عموميا فى غاية الموافقة للعصر الحاضر وأعظم سياسة للعالم الإنسانى ... إنه يريد أن يوحد بين المسلمين والنصارى واليهود ويجمعهم على أصول ونواميس موسى عليه السلام الذى يؤمنون به جميعا (١) .

أما مناقشة مبادئهم فيكفى أن نوجزها فى أن قولهم بالحلول فكرة

١ ـ كتاب عبد البهاء والبهائية ص ٨٧ ، ٩٣ .

قديمة أدين بها بعض المتصوفة ، وتحدث عنها علماء الكلام فى كتبهم ، فالله سبحانه وتعالى منزه عن الحلول لأنه غنى قائم بنفسه ليس كمثله شىء .

وعدم ختام النبوة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مرفوض بما سبق ذكره عن القاديانية · وظهور المعصوم فكرة شيعية مردود عليها ، وبخاصة إذا كان مع تجسد الإله فيه على ما يصرحون به · وعدم اعترافهم بالقيامة تكذيب صريح لما جاءت به النصوص القاطعة ، وإنكارهم للمعجزات إنكار للواقع الذى أثبته التاريخ وأخبر به القرآن الكريم ، وإسرافهم فى تأويل آيات القرآن خروج بالألفاظ العربية عما وضعت له دون ضرورة تدعو إلى ذلك ، وهو قول فى القرآن بالرأى والهوى ، وهو منهى عنه .

وإذا بطلت عقائدهم فلا داعى لمناقشة فروعهم ما دام الأصل الذى قامت عليه باطلا .

وبعد عرض آرائهم والرد الموجز عليها يكون من يعتنق هذه النحلة مرتدا ، وقد حكم علماء ايران على « الباب » بذلك بعد عدة مناظرات ثم أعدم .

وفى مصر قاومها علماء الأزهر والقضاء الشرعى والحكومة فكان ما يأتى :

١ ـ أفتى الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر بكفر « ميرزا عباس » زعيم البهائيين ، ونشر ذلك فى جريدة مصر الفتاة بالعدد ٦٩٢ فى ١٩١٠/١٢/٢٧ م .

٢ ـ صدر حكم قضائى فى ١٩٤٦/٦/٣٠ م من محكمة المحلة الكبرى الشرعية بطلاق امرأة اعتنق زوجها البهائية لأنه مرتد (١) .

٣ ـ أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر فى ١٩٤٧/٩/٢٣ م (٢) وفى ١٩٤٩/٩/٣ م (٣) فتوى بردة من يعتنق البهائية .

---

١ ـ مجلة الأزهر مجلد ٢٥ ص ١١٠٢   ٢ ـ الأهرام ١٩٨٥/٥/٢٢

٣ ـ مجلة الأزهر مجلد ٢٥ ص ١١٩٣

٤ ـ صدرت فتوى من دار الإفتاء المصرية فى ١١/٣/١٩٣٩ م (١) وفى ٢٥/٣/١٩٦٨ م (٢) وفى ١٣/٤/١٩٥٠ م بأن البهائيين مرتدون (٣) وفى ٨ من ديسمبر ١٩٨١ م ببطلان عقد الزواج (٤) بين المسلمة والبهائى .

٥ ـ حكمت محكة القضاء الإدارى بمجلس الدولة فى القضية رقم ١٩٥ لسنة ٤ قضائية بتاريخ ١١/٦/١٩٥٢ م بأن البهائيين مرتدون .

٦ ـ صدر قرار جمهورى بالقانون رقم ٢٦٣ لسنة ١٩٦٠ م بحل المحافل البهائية ووقف نشاطها .

وهناك إجراءات أخرى تضمنها بيان شيخ الأزهر عن هذه النحلة الذى أذاعه سنة ١٩٨٦ م (٥) .

وللاستزادة يمكن الرجوع إلى :

١ ـ حاضر العالم الإسلامى مع تعليق شكيب أرسلان .

٢ ـ رسالة بالفرنسية للشيخ عبد الرحمن تاج .

٣ ـ البابية والبهائية تاريخا ومذهبا نشر المكتب الفنى لإدارة الوعظ بالأزهر.

٤ ـ قراءة فى وثائق البهائية للدكتورة بنت الشاطىء .

٥ ـ دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة .

٦ ـ مقالات الشيخ محمد الخضر حسين ومحمد فريد وجدى بمجلة الأزهر .

٧ ـ الفتاوى الإسلامية ـ المجلد الثامن ص ٢٩٩٩ .

---

١ ـ الفتاوى الإسلامية مجلد ٤ ص ١٢٦٩

٢ ـ الفتاوى الإسلامية مجلد ٦ ص ٢١٣٨

٣ ـ مقارنات على منصور ص ٢٥٥

٤ ـ الفتاوى الإسلامية المجلد الثامن ص ٢٩٩٩

٥ ـ مجلة الأزهر جمادى الآخرة ١٤٠٦ (فبراير ـ مارس ١٩٨٦ م) .

٥ ـ المهدى المنتظر

سنذكر كلمة موجزة عن المهدى المنتظر ملخصة من عدة كتب ومقالات قديمة وحديثة . فنقول :

القول الأول :

أن المهدى هو المسيح بن مريم عليهما السلام ، ودليله حديث ابن ماجه « لا مهدى إلا عيسى بن مريم » وهو حديث ضعيف ، لتفرد محمد بن خالد به ، ولورود أحاديث بوجود المهدى وصلاته مع عيسى بن مريم تمنع الحصر الوارد فى هذا الحديث فى عدم وجود مهدى إلا عيسى . على أن هذا الحديث لو صح لم تكن فيه حجة ، لأن سيدنا عيسى عليه السلام أعظم مهدى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة ، فيكون الحصر إضافيا ، والمراد لا مهدى كاملا إلا عيسى عليه السلام .

القول الثانى :

أن المهدى رجل من آل البيت من ولد الحسين بن على ، يخرج آخر الزمان ليملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما ، وأكثر الأحاديث تدل على هذا ، وهى وإن كانت ضعيفة يقوى بعضها بعضا . وقد صحح بعضهم بعضها منها حديث أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه « لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله فيه رجلا من أهل البيت يملؤها عدلا كما ملئت جورا » ورواية أبى داود هذه وثقها الهيثمى فى مجمع الزوائد .

القول الثالث :

أنه المهدى الذى تولى الخلافة فى الدولة العباسية فى القرن الثانى الهجرى ، والأحاديث التى رويت فى هذا ضعيفة ، وعلى فرض صحتها فالمهدى هذا أحد المهديين ، وهناك غيره ، ويصح أن يقال : إن عمر بن عبد العزيز كان مهديا ، بل هو أولى بهذه التسمية من مهدى بنى عباس .

القول الرابع :

الأقوال السابقة هى لأهل السنة ، وهذا القول هو للشيعة الإمامية ، حيث يقولون : إنه محمد بن الحسن العسكرى المنتظر ، من ولد الحسين بن على ، ويقولون فى صفته : الحاضر فى الأمصار ، الغائب عن الأبصار ، وأنه دخل سردابا فى « سامرا » وقيل فى مدينة تدعى « جابلقا » وهى مدينة وهمية ليس لها وجود . وزعم أحمد الإحسانى المهد للبهائية أنه فى السماء وليس فى الأرض .

دخلها وكان طفلا صغيرا منذ أكثر من خمسمائة عام ، فلم تره بعد ذلك عين ولم يحس فيه بخبر ، وهم ينتظرونه كل يوم ، يقفون بالخيل على باب السرداب ، ويصيحون به أن يخرج إليهم ثم يرجعون ، وقال فى ذلك بعض الشعراء :

ما آن للسرداب أن يلد الذى ... كلمتموه بجهلكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

هذا ، وهناك مهديون كثيرون ظهروا فى التاريخ ، فى الشرق وفى الغرب ، واليهود ينتظرون الذى يخرج آخر الزمان لتعلو كلمتهم وينصروا به على سائر الأمم . ويعتقد هذا سبعون ألفا من يهود أصفهان ، وكذلك النصارى ينتظرون المسيح يوم القيامة. وبهذا تكون الملل الثلاثة منتظرة للمهدى.

إن المهدى وردت فيه أحاديث كثيرة ، صحح بعضها وضعف الكثير منها ، ويؤخذ من مجموعها أنه من آل البيت ، وسيخرج آخر الزمان ، ويلتقى مع سيدنا عيسى عليه السلام ، فقد أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لو لم يبق من الدهر إلا يوم واحد لبعث الله فيه رجلا من عترتى يملؤها عدلا كما ملئت جورا»

ويؤخذ من الأحاديث أن اسمه « محمد » وأن اسم والده « عبد الله » كاسم والد النبى صلى الله عليه وسلم . وتقول الشيعة إنه اختفى بعد موت والده . وذكر محيى الدين بن العربى فى « فتوحاته » : أن والده هو الإمام حسن العسكرى ، وساق نسبه الى النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر ابن حجر فى « الصواعق » أن ظهوره يكون بعد أن يخسف القمر فى أول ليلة من رمضان ، وتكسف الشمس فى النصف منه ، وذلك لم يوجد منذ أن خلق الله السموات والأرض كما قرره علماء الفلك فهل سيكون ذلك من باب الإعجاز ؟

بل ذكر الشعرانى فى « اليواقيت والجواهر » أنه يولد فى ليلة النصف من شعبان سنة ١٢٥٥ هـ قائلا : إنه تلقى ذلك من الشيخ حسن العراقى ووافق عليه الخواص .

هذه صور من أفكار المسلمين عن المهدى ، وفى بعضها بعد يصعب تعقله ، ولا يجوز أن نبنى العقائد على مثل هذه القواعد غير الثابتة .

لقد استغل كثير من الناس قضية المهدى فتكونت دول وظهرت شخصيات على مسرح التاريخ ، وقامت دعوات تتمسح بها ، وكل يدعى أن آخر الزمان المقصود فى الكلام عنه هو زمانه الذى كثر فيه الظلم ، وكل زمان لا يخلو من ذلك كما يتصوره بعض الناس .

لقد استغلها الفاطميون وأقاموا دولتهم أولا بالمغرب ، ثم انتقلت إلى مصر واتسع نطاقها ، استغلها « ابن تومرت » فأسس دولة الموحدين بنى عبد المؤمن ، وفى أيام الدولة المرينية بفاس قام رجل اسمه « التويزرى » مدعيا أنه المهدى أيضا ، كما ادعاها مغربى من طرابلس قابل نابليون بين دمنهور ورشيد . وقيل إن المهدى صاحب ثورة السودان كان أتباعه يطلقون عليه المهدى المنتظر .

يقول القلقشندى فى ادعاء الشيعة الإمامية لوجود المهدى : إنهم يقفون عند باب السرداب ببغلة ملجمة من الغروب إلى مغيب الشفق ، وينادونه ليخرج حتى يقضى على الظلم الذى عم البلاد .

ويروى ياقوت أنهم كانوا فى « كاشان » من بلاد الفرس يركبون كل صباح للقائه ، وذلك فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، ويروي مثل ذلك ابن بطوطة ، والكيسانية يدعون أنه « محمد بن الحنفية » وكان من العادات فى زمن ملوك الصفوية فى فارس إعداد فرسين مسرجين دائما فى القصر لاستقبال المهدى وعيسى .

وهذا يشبه عمل المتهوسين من الإفرنج فى القدس الذين ينتظرون مجىء المسيح يوم الدينونة . يقول « حوارث » الفرنسى فى « تاريخ العرب » : إن انكليزيا ذهب الى بيت المقدس وأقام بالوادى الذى ستكون فيه الدينونة ، وفى كل صباح يقرع الطبل منتظرا للحشر . وجاءت امرأة انكليزية إلى القدس ، وكانت تعد الشاى كل يوم لتحيى به المسيح عند ظهوره . ويقول «لامرتين» عند زيارته لجبل لبنان : إنه رأى فى قرية « جون » السيدة « استير ستانهوب » بنت أخى « بيت » الوزير الإنكليزى الشهير ، فرأى عندها فرسا مسرجا ، زعمت أنها تعده ليركبه المسيح .

إن ظهور المهدى ليس له دليل صريح فى القرآن الكريم ، وقد رأى ابن خلدون عدم ظهوره كما جاء فى الفصل الذى عقده فى مقدمته خاصا بذلك (١) والشوكانى ألف كتابا سماه « التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر والدجال والمسيح » جاء فيه أن الأحاديث الواردة فى المهدى التى أمكن الوقوف عليها ، منها خمسون حديثا فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر ، وهى متواترة بلا شك ولا شبهة .

ومهما يكن من شيىء فإن ظهوره ليس ممنوعا عقلا ، ولم تثبت استحالته بدليل قاطع ، كما أن أدلة ظهوره لم تسلم من المناقشة ، والعقائد لا تثبت بمثل هذه الأدلة على ما رآه المحققون . فمن أثبت فهو حر فيما يرى ، لكن لا يجوز أن يفرض رأيه على غيره ، ومن نفى لم يخرج من الإيمان إلى الكفر .

---

١ ــ ص ٢١٨ الطبعة البهية

وأولى لنا أن نتناقش فى أمر عملى يعيد لنا قوتنا الأولى ، أو على الأقل يخلص المسلمين من الوضع الذى هم فيه الآن ، والعقائد الأساسية واضحة ، وأدلتها موفورة .

يمكن الرجوع للاستزادة إلى :

١ _ المنار لابن القيم .
٢ _ صبح الأعشى للقلقشندى .
٣ _ التوضيح للشوكانى .
٤ _ مقالات الصديق الغمارى فى مجلة الإسلام فى السنوات الأولى .
٥ _ سيد البشر يتحدث عن المهدى المنتظر ، جمع حامد ليمود .
٦ _ القطرة من بحار مناقب النبى والعترة · تأليف رضى الدين الموسوى التبريزى .
٧ _ القول المختصر فى علامات المهدى المنتظر . لابن حجر الهيتمى .
٨ _ المشرب الوردى فى أخبار المهدى للا على القارى .

٦ ـ التصوف والطرق الصوفية

لقد ألفت فى هذا الموضوع كتب كثيرة ، من أقدمها « طبقات الصوفية » لأبى عبد الرحمن السلمى المتوفى بنيسابور سنة ٤١٢ هـ ، ثم « الرسالة القشيرية فى علم التصوف » لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ .

ولقب المتصوف والصوفى يقول عنه القشيرى فى رسالته : ليس له من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب ، ثم بين خطأ من قالوا : إنه من الصوف ، أو من الصفة التى كانت فى المسجد النبوى ، أو الصفاء ، أو الصف .

ثم قال : تكلم الناس فى التصوف ما معناه ؟ وفى الصوفى من هو ؟ فكل عبر بما وقع عليه ، ومن ذلك قول بعضهم : التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به · وذكر أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زمانه إلا أثرهم ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم الاقتداء ، وذكر ألوانا من الانحراف عن الطريقة الصحيحة فى العقيدة والسلوك .

ثم تحدث عن أصل هذه الجماعة فقال : إن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم ، سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا فضيلة له فوقها ، فقيل لهم الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة بالتابعين ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، أى علامة ، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعى أن فيهم زهادا ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارئ الغفلة ـ باسم التصوف ـ واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الكبار قبل المائتين من الهجرة .

يقول بعض المؤرخين : إن حذيفة بن اليمان الصحابى له كلام فى الوجدانيات أخذها عنه الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ ، وعنه أخذ المتصوفون .

ولما اتسعت رقعة الإسلام ودخلت بعض التيارات المنحرفة فى القرن الثانى الهجرى زاد الترف فظهر التصوف كرد فعل للانحراف ، وبدأ هادئا ثم اشتد فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وبلغ الذروة فى القرن السابع لوجود فتن التتار والصليبيين ولفساد الأندلس ، فظهر فى المغرب واضحا فى شكل دولة المرابطين ، وفى المشرق بنى صلاح الدين الأيوبى « الخانقاه » للفقراء ، وهو أول من بناها كما يقول المقريزى فى خططه ، وفى تلك الفترة اتجه الأدب الى التصوف ، فظهرت المدائح النبوية وغيرها ، ثم ظهرت غرائب فى حياة المتصوفين .

إن التصوف والطرق الصوفية أمر قديم ، وقد كثر الكلام حوله تارة بالتأييد وتارة بالتجريح ، لكن المقياس الصحيح الذى يجب أن تقاس به الأفكار والسلوك وتوزن به هذه الطرق وكل التشكيلات المنسوبة الى الدين هو قوله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون · الذين آمنوا وكانوا يتقون · لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » (١) . وقوله « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (٢) وقول النبى صلى الله عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٣) .

فإن كانت الطرق الصوفية ملتزمة للدين عقيدة وشريعة فهى محمودة ، وينبغى تشجيعها ، وإن انحرفت فهى مذمومة ويجب تقويمها ، والتقويم يكون على المنهج الذى رسمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (٤) . وذلك لتحول

---

١ ـ سورة يونس : ٦٣ ، ٦٤
٢ ـ رواه البخارى ومسلم
٣ ـ سورة النحل : ١٢٥
٤ ـ سورة الأنعام : ١٥٣

هذه الطاقات الهائلة إلى الانتاج المثمر فى كل مجال ، إن الطرق الصوفية أشبه بالمدارس التربوية ، التى تضم إلى العلم والثقافة ممارسة عملية تطبيقية ، فهى تنطلق فى نشاطها على ضوء الفكر والوجدان ، لأن علاقة المريدين « التلاميذ والطلاب » بشيخهم علاقة حب واحترام لا نجدها فى كثير من المؤسسات التربوية الأخرى ، وبهذا الرباط الروحى يمكن توجيههم بيسر وسهولة ، وكانت لهم وقفات صامدة على مدى التاريخ فى مقاومة الاستعمار وفى إقامة المنشآت الدينية .

وبتوالى الأجيال واختلاف المؤثرات شاب نقاؤها شوائب ، حاول بعض شيوخها تنقيتها ، ولم يحاول بعضهم الآخر ، ومن هنا كثرت التعليقات عليها، ووجدت مؤلفات فيها أمور غريبة ، فى ظاهرها مخالفة للشريعة ، يلتمس بعض المتعصبين لها الأعذار ، إما بأنها مدسوسة ، وإما بأنها تعلو على أفهام العامة لا يعرفها إلا من عايشوها ، وهناك توجيهات من العقلاء بالحذر من شطحات الصوفية وبعض الألفاظ التى تجرى على ألسنتهم أو تنقل عنهم قد تكون محاولة للتعبير عن الأحاسيس التى يحسونها ، والألفاظ قاصرة عن الدقة فى التعبير عنها .

والمهم أن نتريث فى الحكم على أى شىء ، وأن نوازن بين الإيجابيات والسلبيات فكرا وسلوكا ، وأن نحاول الإصلاح بالحكمة ، دون العمل على الهدم من أجل الهدم ، مع الحذر من خطورة الفراغ الروحى ، والإسراع إلى ملئه قبل أن تغزوه الواردات الأخرى ، بأساليبها القوية ومغرياتها السخية ، التى تحاول غسل العقول والقلوب ، وإقصاء القيادات الدينية عن الساحة ليخلوا لها الجو فتعبث كما تريد « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وللاستزادة يمكن الرجوع إلى :

١ ـ الرسالة القشيرية .

٢ ـ إحياء علوم الدين .
٣ ـ عوارف العارف للسهروردى .
٤ ـ مدارج السالكين لابن القيم .
٥ ـ صفة التصوف لابن الجوزى .
٦ ـ حكم بن عطاء الله السكندرى وشرح بن عجيبة .
٧ ـ التعرف لمذاهب أهل التصوف للكلاباذى .
٨ ـ مدخل إلى التصوف الإسلامى للدكتور أبو الوفا التفتازانى .
٩ ـ تاريخ التصوف الإسلامى للدكتور عبد الرحمن بدوى .
١٠ ـ نشأة التصوف الإسلامى للدكتور إبراهيم بسيونى .
١١ ـ التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام للدكتور أبو العلا عفيفى .
١٢ ـ التصوفالإسلامى الخالص لمحمود أبو الفيض المنوفى .

٧ ـ الوهابيـــة

ظهرت فى التاريخ الإسلامى حركات إصلاحية متنوعة فى ميدان العقيـدة ، أو فى ميدان الأحكام الشرعية الفرعية ، أو فى ميدان الأخلاق والسلوك ، أو فى ميدان النظم الاجتماعية والسياسية وغيرها من الميادين ٠

وقد جاء فى الحديث الشريف قول النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» (١) .

ولا يعنينا الآن تحديد أسماء المجددين ، ولا تحديد المدة بمائة سنة ، فالكلام فى ذلك كثير ، والمقصود بيان أنه فى كل فترة من الزمان يظهر من يحيى ما اندرس من معالم الدين ، أو يعيد شبابه فى الفكر والسلوك ، ليظل الإسلام هو الدين الخاتم الوافى بحاجات البشرية إلى أن تقوم الساعة .

وقد ظهرت فى القرن الثامن عشر الميلادى حركة إصلاحية بالجزيرة العربية عرفت باسم « الوهابية » نسبة إلى زعيمها «محمد بن عبد الوهاب» الذى ولـد فى « العوينة » من بلاد نجد سنة ١١١٦ هـ (١٧٠٤ م) الذى توفى فى شوال سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢م) على ما جاء فى بعض المصادر (٢)٠

وكانت حالة المسلمين فى زمانه على غير ما يسر ، من ضعف سياسى وعلمى وسلوكى ، فقام بدعوته التى آزرها آل سعود حكام المنطقة ، واتسع نطاقها وتأثر بها كثيرون خارج الجزيرة العربية ، وأخذت صبغة سياسية إلى جانب الصبغة الدينية ، وكان لها موقف معروف من الخلافة العثمانية .

تقوم هذه الدعوة على تنقية الدين من الشوائب عقيدة وسلوكا ، وهذا أمر يتفق عليه جميع العقلاء ، غير أن كل دعوة إصلاحية لابد لها من أمريـن أساسيين ، أولهما العبقرية الفذة التى تخلص الفكر والسلوك من

---

١ ـ رواه الحاكم وصححه ، ورواه البيهقى وغيرهما

٢ ـ لزم الدرعية ٤٦ سنة وخلف ١٨ ولدا

الشوائب على نسق الأئمة السابقين فى بحوثهم الدقيقة الوافية ، وثانيهما الحكمة البالغة فى التطبيق ، ومن مظاهر هذه الحكمة السماحة وعدم التعصب للرأى الإجتهادى ، والتخطيط المتأنى الدقيق ، فهل توافر لهذه الدعوة هذان الأمران ؟

الناس فى الإجابة على هذا السؤال فريقان ، فريق معجب ومؤيد ، وفريق رافض مناهض ، ولسنا بصدد الحكم عليه الآن ، ولكن حسبنا إلقاء بعض الضوء على بعض المسائل التى اشتملت عليها الدعوة ، والتى تبنتها أو دعت إليها جمعيات ذات أسماء مختلفة .

والذين علقوا على هذه الحركة قالوا : إن المتأخرين أطلقوا عليها اسم « السلفية » إما لأن بعض الناس لا يرتاحون إلى التسمية القديمة ، وإما لأن بعض مبادئها يقوم على الإيمان بالآيات المتعلقة بصفات الله إيمانا يتمسك بظاهرها دون تأويل لها ، وذلك فى مثل الآيات التى تثبت لله اليد والعين والوجه والجلوس على العرش ، وما جاء فى نصوص نبوية من إثبات الإصبع والرجل والمشى وما إليها ، وذلك هو مذهب السلف الذين يقولون فى الآيات المشتبهات « وما يعلم تأويله إلا الله » واقفين على هذا المقطع فى الآية الكريمة ، فهم يثبتون هذه الأشياء لله مفوضين العلم بحقيقتها إلى الله تعالى .

ومما أيدوا به مذهبهم بوجه عام قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » (١) ، وقوله : « إنكم فى زمان من ترك فيه عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم عشر ما أمر به نجا » (٢)، وقوله : « إنكم فى زمان علماؤه كثير ، وخطباؤه قليل ، من ترك عشر ما يعلم هوى ، أو قال هلك ، وسيأتى على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا » (٣) .

---

١ ـ رواه مسلم والنسائى عن رافع بن خديج
٢ ـ رواه الترمزى عن أبى هريرة
٣ ـ رواه أحمد عن أبى ذر مرفوعا

الفرق والمذاهب الاخرى

١ ـ الماسونيـــة

الماسونية جمعية سرية يهودية يرجع تاريخها إلى العصر الرومانى ، تأسست فى مدينة « أورشليم » زمن الوالى « هيرودوس أغريبا » ملك اليهودية من سنة ٣٧ ـ ٤٤ بعد الميلاد ، وهو حفيد « هيرودوس الكبير » الذى قتل أطفال بيت لحم ، خشية أن يكون فيهم المسيح الذى سيقضى على ملكه .

وكان الغرض من تأسيسها مناهضة الدين المسيحى ، ثم تطور غرضها إلى مناهضة الأديان عامة وإعادة مجد إسرائيل والعودة إلى أرض فلسطين ، ثم عدل اسمها وظهرت بنشاطها فى المحاربة وسميت « الجمعية الماسونية » أو البنائين الأحرار ، وكان ذلك سنة ١٧١٧ م وشعارهم : المثلث والفرجار ، وأسسوا فى بريطانيا أول محفل ماسونى ، جعلوا شعاره : الحرية والإخاء والمساواة ، وأصدر فى لندن القرار التالى الذى يبين حقيقة أغراضهم :

١ ـ المحافظة على اليهودية .

٢ ـ محاربة الأديان عامة والكاثوليكية خاصة .

٣ ـ بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب .

ثم تأسست لها محافل فى أمريكا وغيرها ، وقد اغتر بشعارها بعض المسلمين فانضم إليها ، حتى إذا ما ظهر له هدفها تبرأ منها ، وخاف أكثرهم أن يذيع أسرارها حتى لا يقتل ، وتوجد شهادات لكبار الكتاب الغربيين ونشرات رسمية يهودية وأبحاث من مختصين تبين تخطيط اليهود الواسع لإفساد العالم تحت شعارات براقة يجب أن يتنبه إليها المسلمون فمن أكبر شعاراتهم : الأديان تفرقنا والماسونية تجمعنا .

جاء في دائرة المعارف الماسونية الصادرة في « فيلادلفيا » سنة ١٩٠٦ م : يجب أن يكون كل محفل رمزا لهيكل اليهود ، وهو بالفعل كذلك ، وأن يكون كل أستاذ على كرسيه ممثلا لملك اليهود ، وكل ماسوني تجسيدا للعامل اليهودي .

وجاء في نشرة ماسونية صادرة في لندن سنة ١٩٣٥ : إن أمنيتنا هي تنظيم جماعة من الناس يكونون أحرارا جنسيا ، نريد أن نخلق الناس الذين لا يخجلون من أعضائهم التناسلية ، ولذلك أسسوا نواد للعراة في دول كثيرة ، وسعوا بكل وسيلة لتدمير مقومات الشعوب غير اليهودية والقضاء على القيم الأخلاقية .

وحتى لا يفتضح أمرها أكثر ، وللحرص على انتشارها بشكل أوسع ، ظهرت الماسونية تحت عناوين مختلفة ، وأنشأت فروعا متعددة ، منها : البناي برث ، والكيواني ، والليونز ، والإكستشانج ، وشهوديهوه ، ومنها الاتحاد والترقي ، ونادي القلم ، ونادي الصلبان ، الزاهرة ، وكذلك الروتاري .

وقد ذكر بعضها « تشارلس ماردن » في كتابه « الروتاري وأخوته » الذي نشره سنة ١٩٣٦ م ، وهذه نبذة بسيطة عنها :

١ ـ بناي برث ، أو أبناء العهد ، أنشئت في نيويورك سنة ١٨٤٣ م على نظام الماسونية ، واقتصرت في قبول الأعضاء بمحافلها على اليهود ، ثم انتشرت فروعها في العالم كله . يقول « فوستر دالاس » في حفل أقامته هذه المؤسسة في ٨ من مايو سنة ١٩٥٦ م : إن مدنية الغرب قامت في أساسها على العقيدة اليهودية ، ولذلك يجب على الدول الغربية أن تعمل بعزم أكيد من أجل الدفاع عن المدنية في معقلها الحالي « إسرائيل » .

٢ ـ الكيواني ، أصل التسمية من الكلمة الهندية « كي ـ واني » أي اعرف بنفسك كيف تجعل صوتك مسموعا ، ومع عدم وضوح العلاقة

بين العنوان والهدف ، فقد أسسه بعض الماسونيين فى « ديترويت » بأمريكا ، ورخص لهم به فى ٢١ من يناير سنة ١٩١٥ م بولاية متشجان ، وفى سنة ١٩١٧ م تأسس الاتحاد الوطنى لأندية الكيوانى بأمريكا .

٣ ـ الليونز ، أى الأسود ، أسسه « ملفين جونس » وكان أول ناد فى مدينة « سانت أنطونيو » تكساس · تأسس سنة ١٩١٥ م · وفى مايو سنة ١٩١٧ م ظهرت المنظمة العالمية لنوادى الليونز إلى الوجود ، وعقدت اجتماعاتها الأولى فى شيكاغو ، الوطن الأم لنوادى الروتارى .

وجاء فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٨٥/١٢/٢ م أن وزيرة التأمينات والدولة للشئون الإجتماعية تدشن اليوم فى فندق شيراتون القاهرة أحدث ناد لسيدات الليونز ويحمل رقم ١٩ فى قائمة نوادى الليونز سيدات ورجال ، ويتم فى حفل التدشين تسليم الإشارات والشهادات للمؤسسات البالغ عددها ٢٧ مؤسسة ، وذكر الخبر أسماء هيئة النادى الذى أطلق عليه اسم « نادى سيدات ليونز شمال القاهرة » .

٤ ـ الإكستشانج ، تأسس فى ديترويت فى ١٩١٦/٣/٢٧ م ، بمساعى تاجر المجوهرات « تشارلس باركى » وفى أغسطس سنة ١٩١٧م عقد المؤتمر الوطنى الأول .

٥ ـ شهود يهوه مؤسسة يهودية ترتدى ثوبا مسيحيا ، أخذت اسم « يهوه » كما جاء فى التوراة ، تأسست فى ولاية بنسلفا بأمريكا سنة ١٨٨٤ م ثم انتقلت إلى نيويورك سنة ١٩٠٩ م · ومن طرق دعوتها اقتحام البيوت لإلقاء دروس دينية من التوراة ، وهى من أخطر الجمعيات اليهودية ، لأنها تخدع الجماهير المسيحية الساذجة تدخل نبوءات التوراة المحرفة فى النفوس بعودة اليهود إلى أرض الميعاد .

لقد كشف أمر الماسونية سنة ١٩٥١ م فى مجلة القوات المسلحة حين تظاهر صحفى باعتناقها وعرف أسرارها · وفى صحف سرية كانت مرسلة إلى

جهة ما بمعرفة ضابط أمريكى ، عبث ولده برباطها فتبعثرت ، فقرأ ما فيها ونشرها ، فقتلوه ، والضابط إسمه « سبير سفيتش » ألف كتابا بالعنوان «الدنيا لعبة إسرائيل» ترجم إلى العربية ، وقدم له وزير التعليم بالسعودية (١).

وكان للماسونية محافل وجمعيات في مصر صدر قرار وزارة الشئون الاجتماعية بحلها فى ١٨/٤/١٩٦٤ .

ولزيادة المعلومات عنها يراجع ما يأتى :

١ ـ أسرار الماسونية ، تأليف جواد رفعت أتلخان .

٢ ـ الماسونية فى العراء ، تأليف الدكتور محمد على الزغبى .

٣ ـ الماسونية « دراسة نقدية » تأليف مصباح الإسلام فاروقى .

٤ ـ الماسونية بين الشيوعية والصهيونية ، تأليف الدكتور عفيفى إبراهيم حسن .

٥ ـ حقيقة نوادى الروتارى، من رسائل جمعية الإصلاح الإجتماعى بالكويت .

٦ ـ الحكومة الخفية .

٧ ـ أحجار على رقعة الشطرنج .

٨ ـ مجلة اللواء الإسلامى عدد ١٧٣ بتاريخ ١٦ من مايو ١٩٨٥ . وبها أنواع ودرجات الماسونية ، وأشهر الكتب المؤلفة عنها .

---

١ ـ محاضرات رابطة العالم الإسلامى بمكة سنة ١٣٩٨ هـ

الروتــارى

جاء في المصادر التي كتبها المنتسبون إلى الروتارى ، والمعلقون عليه أن المحامي اليهودى « بول هاريس » الذى كان يعيش فى شيكاغو أحس بالوحدة وبحاجته الملحة إلى الزمالة والصداقة ، ففكر فى جمع بعض الأصدقاء فى مكتبه فى روح أخوية ، ليتدارسوا كيفية رفع مستوى كل منهم .

وأول اجتماع كان فى ٢٣ من فبراير سنة ١٩٠٥ م حضره أربعة من الأصدقاء، واتفقوا على أن يكون الإجتماع أسبوعيا فى مكان عمل واحد منهم، ومن هنا جاء اسم « الروتارى » . ولما كثر عددهم وضاقت بهم أماكن العمل أصبحت اجتماعاتهم حول موائد للطعام مع مناقشة ما يرون من مسائل .

ثم أنشأوا ناديا ثانيا فى « فرنسيسكو » فى كندا سنة ١٩١٢ م ، ثم انتشرت فى كثير من البلاد ، حتى صار عددها ١٧٨٠٠ فى ١٥٤ دولة ومنطقة جغرافية حسب إحصاء نوفمبر سنة ١٩٧٨ م .

وهذه النوادى تعقد مؤتمرات كان أولها فى شيكاغو سنة ١٩١٠ م وكان أول مؤتمر خارج أمريكا سنة ١٩٢١ م فى « أدنبرة » باسكوتلاندا ، حيث أطلق عليه اسم الروتارى الدولى . وفى سنة ١٩٢٢ م عقد المؤتمر فى « لوس أنجلوس » بأمريكا ، واستمرت المؤتمرات تنعقد سنويا منذ ذلك التاريخ ، وكان آخرها رقم ٦٩ فى طوكيو سنة ١٩٧٨ م .

ونوادى الروتارى تعتبر أعضاء فى مؤسسة الروتـارى الدولية ، ومقرها مدينة « أفنستون » بولاية « ألينوى » بالولايات المتحدة الأمريكية .

تبين أن فكرة النادى نبعت من الحاجة إلى طرد شبح الوحدة والعزلة ، وإلى الاندماج مع الناس ، والتفكير فى تحسين حال الزملاء الذين يجمعهم النادى ، ثم وضح نادى الروتـارى فى مصر الغرض من إنشائه وركزه فى أمور أربعة :

١ ـ توسيع مدى التعارف لإتاحة الفرصة للخدمة .

٢ ـ بلوغ مستوى خلقى سام فى الأعمال والمهن .

٣ ـ تمسك كل روتارى بمبدأ الخدمة فى حياته الشخصية العملية والاجتماعية .

٤ ـ تعزيز روح التفاهم الدولى والنية الصادقة وحب السلام ، وذلك بتوثيق أواصر الزمالة فى العالم بين الروتاريين أصحاب الأعمال والمهن .

وهذه الأغراض فى شكلها وفى جملتها قد تغرى بالانضمام إلى هذه النوادى ، أو على الأقل عدم التعرض لنشاطها ما دام يستهدف تحقيق هذه الأغراض . ومن المعلوم أن هناك صلة بينها وبين الماسونية، ومن شواهد ذلك :

١ ـ أن شعار جميع الأعضاء هو « الأديان تفرقنا والروتارى يجمعنا » وهو شعار الماسونية . وقد قرر مجلس إدارة الروتارى الدولى فى اجتماع عام ١٩٤٠/١٩٤١ م أن نوادى الروتارى تضم أعضاء من مختلف الأديان والمبادىء ، ولكل أن يتمسك بعقيدته الدينية ، مع الاحترام الكامل لعقيدة الآخرين .

وقد وضع الأديان كلها فى مستوى واحد من الاحترام ، بصرف النظر عما هو سماوى أو أرضى ، وفى ذلك ـ كما يقال ـ غسل القلوب والعقول تمهيدا لغرس ما يراد فيها مما تخطط له الماسونية التى استغنوا بها عن التوراة .

٢ ـ أن المجموعة الأولى التى اشتركت مع « بول هاريس » فى تأسيس الروتارى كانت أعضاء فى المحافل الماسونية ، بل إنه فى بعض الحالات قصرت عضوية النادى على الماسون فقط مثل نادى « أدنبرة » فى بريطانيا سنة ١٩٢١م .

٣ ـ يقول الصحفى التركى (شهاب طان) ـ كما جاء فى كتاب « فى زنزانات إسرائيل » ـ ... ولكن المحافل الماسونية غيرت اسم بعضها إلى جمعيات الروتارى بعد أن عرفت أسرارها وأهدافها .

٤ ـ حذر الفاتيكان من خطر هذه الأندية ، فصدر مرسوم من المجلس الأعلى فى ٢٠ من كانون أول سنة ١٩٥٠ م قرر فيه الكرادلة ما يأتى : « دفاعا عن العقيدة والفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة بنوادى الروتارى وعدم الاشتراك فى اجتماعاتها .

٥ ـ أن بعض الجمعيات والتنظيمات الحديثة التى دخلت المحيط الإسلامى ظهر أن لها صلة قوية بتنظيمات غربية تستهدف مصالح الغرب وبخاصة اليهود ، كجمعية « أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية » التى يعمل « هوبكنز » نائبا لرئيسها ، وقدكان قسيسا ومنتسبا لطائفة خطيرة وله نشاط واسع فى السياسة لصالح أمريكا أو بريطانياوقد قاطعت شخصيات إسلامية هامة مؤتمره الذى عقد سنة ١٩٥٤ م . فى « بحمدون » بلبنان ، معلنة أن الإسلام ليس فى حاجة إلى توجيهات أجنبية .

إن أقل ما يقال فى الروتارى وأمثاله أنها تشكيلات تحوم حولها الشبهة لما يأتى :

١ ـ أن المؤسسين الأول يهود ، ونحن نعرف ماضيهم وما ارتكبوه من جرائم فى حق الإنسانية كلها ، وسجل القرآن كثيرا منها ، وما يزال العرب والمسلمون يعانون منهم إلى اليوم .

٢ ـ هل عقمت تعاليم الإسلام وأفكار المسلمين أن تضع أهدافا إنسانية كالتى يدعيها المؤسسون للروتارى ؟ وهل نحن فى حاجة إلى ما يضعه لنا الأجنبى المعروف بعدائه ، والذى يصبغه بألوان ينخدع بها المصابون بعقدة الخواجة ؟

٣ ـ إن اللمسة الروحية تنقص هذه النوادى ، فالاهتمام كله فى الخدمة بالمفهوم الذى يعرفه من تورط فيها وقتا أو راقب نشاطها ، دون اهتمام بالشوائب الأخرى فهو أمر ثانوى ، وقد فطن لخطرها آباء الكنيسة المسيحية ، فقد خطب « تشيسترون » فى حفل أقيم سنة ١٩٣١ م فى نيويورك ، ووصف منظمة الروتارى بأنها تنقصها اللمسة الروحية ، وأن شيئا غير أخلاقى يهيمن عليها وعلى علاقات أفرادها أ هـ .

٤ ـ جاء فى جريدة « الشهاب » بتاريخ ١٩٦٤/٥/٣١ م أن أول مؤتمر ماسونى روتارى عقد فى «رامات غان» بفلسطين المحتلة ، وامتدحوا فيه إسرائيل .

هذه هى نوادى الروتارى من كلام أعضائها والمتصلين بها ، والمسلمون بالذات ليسوا فى حاجة إليها ، وإذا كان لبعض أعضائها نشاط دينى فهو ليس نتيجة الإنتساب إليها ، وإذا كان لبعض الشخصيات اتصال بها فى مناسبة ما فليس ذلك شهادة بأنها بعيدة عن الشبهة ، ومن أراد أن يباشر نشاطا اجتماعيا لا شبهة فيه فما أكثر ميادينه البريئة ، ولتكن لنا شخصية مستقلة فى فكرها وسلوكها ، تتخذ مقوماتها من الدين الذى أكمله الله وأتم به النعمة ، ووعد على التمسك به حياة طيبة فى الدنيا والآخرة .

الروتارى فى مصر :

فى مطلع سنة ١٩٢٨ م زار مصر المستر « جلاكستين » وهو من أعضاء نادى « جامر سميث » بانجلترا ، وتقابل مع مجموعة من الرجال كانوا يجتمعون على الغداء مرة فى كل أسبوع ، فدعاهم إلى إنشاء أول ناد للروتارى فى المنطقة ، فوافقوا وأصبح عددهم ١٦ . وفى يناير ١٩٢٩ م بعث الروتارى الدولى مندوبا عنه هو المستر « دافيد سن » من « كالجرى » بكندا لحضور أول إجتماع للنادى فى ١٩٢٩/١/٢ م فى فندق شبرد . وكان عدد الأعضاء ٢٢ عضوا ، وبعث الروتارى الدولى مندوبا عنه هو المستر « كوك بوتيتج » من هولندا ليسلم رئيس النادى وقتذاك المستر « مارتن »

شهادة تأسيس النادى المؤرخة فى ١٩٢٩/٣/١١ م . وتمت تلك المراسم على متن السفينة « مصر » فى ١٩٢٩/١٢/٨م .

وفى الفترة من سنة ٢٩ ـ ١٩٣٩ م كان أغلب الأعضاء من الأجانب ، ولم يكن من بين الأعضاء المؤسسين ، وعددهم ٢٢ ، إلا خمسة من المصريين، منهم اثنان فقط من المسلمين ، وكانت اللغة المستعملة هى الإنجليزية ، ولم يشترك أحد من المصريين فى مجلس الإدارة حتى عام ١٩٣١ م ، وكانت رئاسة النادى لغيرهم حتى سنة ١٩٣٤ م ، ومنذ سنة ١٩٣٩ م أنشئت نواد فى الإسكندرية وبور سعيد والمنصورة والزقازيق وأسيوط ، والمشتركون فيها خليط من المسلمين والمسيحيين واليهود .

والمقر الدائم لنادى الروتارى المصرى رقم ٣ شارع بهلر ، افتتح فى ١٩٥٥/٣/٢١ م . ومن ١٩٥٩/٤/١٤ انتقلت اجتماعاته من فندق سميراميس إلى فندق النيل هيلتون . وهو تابع لوزارة الشئون الاجتماعية .

ومن أراد أن يعرف أسماء الأعضاء والرؤساء فليرجع إلى كتاب « العيد الذهبى للروتارى فى مصر » ١٩٢٩ ـ ١٩٧٩ م فى ١٩٧٩/٣/١٣ ـ ١٩٧٩/٣/١٥م .

وللاستزادة يرجع إلى :

١ ـ الروتارى وإخوته تأليف تشارلس ماردن .
٢ ـ حقيقة نوادى الروتارى . من رسائل جمعية الإصلاح الإجتماعى بالكويت وفيها دلالة على مراجع كثيرة .
٣ ـ مجلة الفكر الإسلامى . بيروت أول يناير ١٩٧٤ .
٤ ـ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية . تأليف عبد الله التل .
٥ ـ جذور البلاء . تأليف عبد الله التل .
٦ ـ كلمة رئيس نادى روتارى الإسكندرية فى الأهرام ١٩٧١/١٢/١١ م .
٧ ـ تحقيق مجلة المصور بتاريخ ١٩٧٦/٣/١٢ م .
٨ ـ الثقل الروتارى ولوبى الليونز . نشر دار الزهراء للإعلام العربى .

٣ ـ العلمانية

مما هو مقرر أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فلا بد من تحديد المفاهيم حتى يمكن الحكم عليها حكما صحيحا ، والعلمانية لفظ وجد فى كتبنا العربية حديثا عند ترجمة ما يقابلها فى اللغات الأجنبية عن طريق الإدارة العامة للتشريع والفتوى بمجلس الأمة المصرى ـ آنذاك ـ كما هو ثابت فى الموسوعة العربية للدساتير العالمية التى أصدرها المجلس المذكور سنة ١٩٦٦ م .

وبعيدا عن صحة النطق بهذه الكلمة ، الذى ذهب فيه الكاتبون مذاهب شتى وكان فرصة استغلت للدعوة إلى وجهة نظر معينة كما هو شأن المتشابه من النصوص الذى جاء فيه قول الله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ... » (١) .

بعيدا عن ذلك ، فإن نسبة العلمانية إلى العلم أو العالم ليست على قياس لغوى وهى ترجمة للكلمة الأفرنجية « لاييك » أو « سيكولاريسم » على أى وجه تكون ، وفى أى ميدان تطبق ، وعلى أى شيء تطلق . وهى نزعة أو اتجاه أو مذهب اعتنقه جماعة فى أوروبا فى مقابل ما كان سائدا فيها فى العصور المظلمة ، التى تسلط فيها رجال الدين على كل نشاط فى أى ميدان ، مما تسبب عنه ركود وتخلف حضارى بالنسبة إلى ما كان موجودا بالذات عند المسلمين من تقدم فى كل المجالات .

وكان معتنقوا هذا المذهب فى أول الأمر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر قد وقفوا من الدين موقف عدم المبالاة به ، وتركوا سلطانه يعيش فى دائرة خاصة ، واكتفوا بفصله عن الدولة . ومن أشهر هؤلاء « توماس هوبز » الانجليزى المتوفى سنة ١٦٧٩ م « جون لوك » الانجليزى المتوفى سنة ١٧٠٤، « ليبنيتز » الألمانى المتوفى سنة ١٧١٦ م ، « جان جاك روسو » المتوفى سنة ١٧٧٨ م .

---

١ ـ سورة آل عمران : ٧

وفى القرن التاسع عشر كانت المواجهة العنيفة بين العلمانية والدين ، وذلك لتغلغل المادية فى نفوس كثير ممن فتنوا بالعلم التجريبى ، إلى حد أنكروا فيه الأديان وما جاءت به من أفكار ، واتهموها بتهم كثيرة كرد فعل للمعاناة التى عانوها من رجال الدين وسلطانهم فى زمن التخلف الذى نسبوه إلى الدين ، ذلك الدين الذى كان من وضع من تولوا أمره ، والدين الحق المنزل من عند الله برىء منه .

ومن أشهر هؤلاء المهاجمين « كارل ماركس » الألمانى المتوفى سنة ١٨٨٣ م « فريدريك أنجلز » الروسى المتوفى سنة ١٨٩٥ م ، « فلاديمير أوليانوف لينين » الروسى المتوفى سنة ١٩٤٢ م . هؤلاء لم يقبلوا أن تكون هناك سلطة ثانية أبدا ، حتى لو لم تتدخل فى شئون الدولة ، وإن كانت هذه العداوة للدين بدأت تخف ، وتعاونت السلطات السياسية والاستعمارية على تحقيق أغراضها .

لقد تأثر بهذا المذهب كثيرون من الدول الغربية ، وقلدها فى ذلك بعض الدول الشرقية ، ووضعت دساتيرها على أساس الفصل بين السياسة والدين ، مبهورة بالتقدم والحضارة المادية الغربية ، اعتقادا أنها وليدة إقصاء الدين عن النشاط السياسى والاجتماعى .

إن العلمانية بهذا المفهوم ، وهو عدم المبالاة بالدين ، يأباها الإسلام ، الذى هو من صنع الله وليس من صنع البشر ، فهو منزه عن كل العيوب والمآخذ التى وجدت فى الأديان الأخرى التى لعبت فيها الأصابع وحرفتها عن حقيقتها . ذلك لأنه دين الإصلاح الشامل ، الذى ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ويوفر له السعادة فى الدنيا والآخرة على السواء ، فهو كما يقال ، دين ودنيا ، أو دين ودولة ، أو عبادة وقيادة ...

ومن مظاهر ذلك ما يأتى :

١ ـ عقائد الإسلام ليست فيها خرافات ولا أباطيل ، فهو يقدس العقل ويأمر بتحكيمه إلى حد كبير .

٢ – الإسلام ليس منغلقا على معلومات معينة يتلقاها بنصها من الوحى ، بل هو ، كما يقال ، دين منفتح على كل المعارف والعلوم ما دامت تقوم على حقائق وتستهدف الخير .

٣ – الإسلام يمقت الرهبنة التى تعطل مصالح الدنيا ، ويجعل النشاط الذى يبذل لتحقيق هذه المصالح فى منزلة عالية ، لأنه جهاد فى سبيل الله ، والتاجر الصدوق الأمين يحشر مع النبيين والصديقين ، فهو دين يعمل للدنيا والآخرة معا .

٤ – الإسلام يقرر أن السلوك الإجتماعى مقياس لقبول العبادة ، فلم لم تثمر عبادته ، بمفهومها الخاص من العلاقة بين العبد وربه ، استقامة فى السلوك فهى عبادة مرفوضة لا يقبلها الله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون » (١) .

٥ – الإسلام ليس فيه كهنوت يتحكم فيه بعض من الناس فى مصائر الناس بإدخالهم الجنة أو حرمانهم منها ، بناء على اعتبارات خاصة ، فمدار ذلك على العقيدة الخالصة والعمل الصالح ، وليس المشتغلون بعلوم الدين إلا معلمين ومرشدين ، والأمر متروك بعد ذلك لمن شاء أن يستفيد أو لا يستفيد بالتطبيق. وقد يكون المتعلم أقرب إلى الله من معلمه ، بالتزام الطريق المستقيم الذى رسمه الله لهم جميعا ، فما دامت العبادة لله وحده فهو وحده الذى يقبل منها ما يشاء .

٦ – الإسلام ليس فيه سلطة مقدسة مستمدة من سلطة الله ، وليس فى البشر من هو معصوم من الخطأ ، إلا من اصطفاه الله لرسالاته ، والحكم من ذوى السلطان ليس لذواتهم ، بل الحكم للدين أولا وآخرا ، فكل شىء فيه اختلاف رأى يرد إلى الله والى الرسول ، أى الكتاب والسنة .

---

١ – سورة الماعون من : ٤ _ ٧

٧ _ مبادىء الشريعة تستهدف تحقيق المصلحة ، فإذا لم يوجد نص واضح فى أمر تعددت فيه وجهات النظر من أهل النظر وكان يحقق المصلحة العامة كان مشروعا ، وبخاصة أمور الدنيا ، فالناس أعلم بشئونها .

٨ _ الإسلام دين تقدم وتطور وحضارة ، ليس جامدا ولا متمسكا بالقديم على علاته فهو ينهى عن التبعية المطلقة فى الفكر أو السلوك الذى يظهر بطلانه ، بل يقرر أن الله يبعث مجددين على رأس كل قرن ، يوضحون للناس ما أبهم ، ويصححون لهم ما أخطأوا فيه ويوائمون بين الدين والحياة فيما تسمح به الموائمة ، لأنه دين صالح لكل زمان ومكان ، ومن مبادىء التربية المأثورة عن السلف : لا تحملوا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم . والمراد بالأخلاق العادات التى تقبل التغيير ، أما أصول الأخلاق فثابتة .

بهذا وبغيره نرى أن الإسلام يرفض العلمانية ، وأن المسلمين ليسوا فى حاجة إليها ، وإنما هم فى حاجة إلى فهم دينهم فهما صحيحا ، وتطبيقه تطبيقا سليما كاملا كما فهمه الأولون وطبقوه ، فكانوا أساتذة العالم فى كل فنون الحضارة والمدنية الصحيحة ، وضعف المسلمين وتأخرهم ناتجان عن الجهل بحقائق الدين وبالتالى عدم العمل بما جاء به من هدى ، وبالجهل قلدوا غيرهم فى مظاهر حضارتهم ، وآمنوا بالمبادىء التى انطلقوا منها دون عرضها على مبادىء الإسلام ، لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل .

ولئن رأينا بعض دول المسلمين الآن قد نقلوا معارف غيرهم ممن يدينون بالعلمانية ، فليس ذلك دليلا على أنهم آمنوا بما آمنوا به ، وإنما هو للاطلاع على ما عندهم حتى يعاملوهم على أساسه ، وإذا كانوا قد قبسوا من مظاهر حضارتهم فذلك للاستفادة من نتائج علمهم وخبرتهم فيما يقوى شوكة المسلمين ويدفع السوء عنهم ، والتعاون فى المصالح أمر تقتضيه طبيعة الوجود، وهو مشاهد فى كل العصور على الرغم من اختلاف العقائد والأديان . والمهم ألا يكون فى ذلك مساس بالعقيدة أو بالأصول المقررة وأن يستهدف الخير والمصلحة .

هذا ، والأدلة على ما قلناه مما جاء به الإسلام كثيرة تركناها للاختصار ، والمقصود هو إلقاء بعض الضوء على هذا المصطلح وموقف الدين منه .

راجـع :

١ ـ جذور العلمانية ، للدكتور سيد أحمد فرج .
٢ ـ الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر ، للدكتور محمد البهى .
٣ ـ مجلة الأزهر عدد رجب ١٤٠٥ هـ .
٤ ـ العلمانية ونهضتنا الحديثة ، للدكتور محمد عمارة .

٤ ـ الوجودية

الوجودية مذهب أو اتجاه فكرى يعنى بالبحث فى الوجود الإنسانى . ويصورها « ريجيس جوليفييه » فى كتابه « مذاهب الوجودية » بأنها اعتقاد أن أساس وجود الإنسان هو ما يفعله ، بمعنى أن أفعاله هى التى تحدد وجوده ، كما قال سارتر : أنا موجود فأنا أفكر ، على عكس ما قال ديكارت : أنا أفكر فأنا موجود .

إن هذا المذهب ليس جديدا ، فقد اهتم به كثيرون من الفلاسفة والأدباء والمتصوفين وغيرهم من قديم الزمان ، وإن كان أبرزهم حديثا هو «كيركجارد» الدانمركى المتوفى سنة ١٨٥٥ م ، وآخرهم « جان بول سارتر » الفرنسى المولود فى ٢١/٦/١٩٠٥ م والمتوفى فى يوم الثلاثاء ١٥/٤/١٩٨٠ م .

وبعض المعتنقين لهذا المذهب يؤمنون بوجود الله الذى خلق الإنسان ، لكن يرون أنه رمى به فى تيه يعيش فيه بين الألم والخوف والقلق . ومن هؤلاء : كيركجارد ، جبرييل مارسيل . وبعضهم لا يؤمنون بأن الله خلق الإنسان ، بل هو الذى خلق نفسه بنفسه ، وذلك لعدم اليقين بمصدر وجوده الحقيقى ، ومنهم : هيدجر ، سارتر .

والذين درسوا تاريخ هؤلاء تبين لهم أن ظروف حياتهم هى التى أملت عليهم هذا الاتجاه فى التفكير ، فقد كان « كير كجارد » منطويا على نفسه منعزلا ، ولذلك حلل الوجود البشرى تحليلا يعيش فى جو الحصر النفسى والتمزق الداخلى والشعور بالخطيئة ، وكذلك « سارتر » حيث اهتم اهتماما كبيرا باعتباره داخلا فى نسيج الوجود ، فالفرد عنده يعيش فى مواقف تتصف بالتميع ، ويحاول أن يتخطى حدود نفسه ويخدعها ، ومن أجل أن وجوده مرتبط بوجود الآخرين يرى تصارع إرادتهم مع إرادته فى جو كله غثيان ، والفرد يسعى جاهدا إلى تحقيق رغباته لكن ذلك غير ممكن ، لأن إمكاناته لا تسعفه .

ويمكن أن نحدد أهم الصفات المميزة للوجوديين فيما يلى :

١ ــ الإيمان بأن التجربة الفردية هى أساس المعرفة ، وليس العقل أو غيره موصلا الى معرفة الحقيقة .

٢ ــ الاغراق فى تقديس الحرية الشخصية فكرا وسلوكا ، وعدم الاهتمام بالآخرين بقدر الاهتمام بالنفس ، ولذلك كثر فيهم الشذوذ والتطرف والآراء الغريبة ، والإنسان هو صانع وجوده بنفسه ، لأنه رب أفعاله .

٣ ــ التشاؤم والقلق والتمزق ، فالوجودى يحاول أن يخلع نفسه من نفسه ليعيش نفسا أخرى ، لأنه إما أن يكون قد قذف به فى الكون وترك مع الطوفان بلا مدد أو وقاية ، كما يقول الملحدون ، وإما أن يكون الله قد ترك له حرية الاختيار ، وإن كان الاختيار نفسه محدودا بحواجز خارجة عن إرادته وهو يشعر بها عند الفشل والمقاومة ، فالوجود عندهم يتأرجح دائما بين الوجود والعدم أو بين الاختيار والجبر .

وهى تجرد الإنسان من كل ثقة فى الحياة ، وتهدم كل أساس ينطلق منه العمل . يقول « هيدجر » : إننا قد ألقى بنا إلى هذا العالم ولست أعرف لماذا ولا كيف ، والشىء الوحيد الذى أعرفه حق المعرفة هو أننى سأموت يوما من الأيام . فالإنسان مستقبله محدود ومتناه ، وأنا أعرف ذلك .

إن لهم تعبيرات غريبة عن التجربة الفردية التى يعيشونها . يقول عنها « كارل ياسبرز » : إنها الإحساس بمدى هشاشة الوجود الإنسانى ، ويقول عنها « هيدجر » : هى المعنى نحو الموت ، ويقول عنها « سارتر »: الإحساس بالغثيان والتقزز ، بل إن كثيرا منهم لا يرضى أن يقال عنه : إنه فيلسوف ، وإنما يقال : كاتب أو أديب ، لأن الفيلسوف الوجودى يقصر بحثه على الوجود الخاص به ، وهو يرى أن فلسفة البحث عن الوجود هى العدم ، وذلك ما قاله هيدجر . ومن هنا اعتبر كبار النقاد أن سارتر أديب أولا ، ثم فيلسوفا ثانيا .

٤ ــ تقوم الوجودية على إنكار وجود الله ، وبالتالى إنكار حياة بعد الموت ،

أو على عدم الرضا بقضاء الله وحكمته فى هذا الوجود ، وأنه بقدرته يمكن أن يغير أى حال الى حال آخر ، الأمر الذى جعلهم يعيشون حياة القلق والتشاؤم ، والاهتمام بالذات وانتهاز الفرص التى ربما لا تتاح بعد.

إن الناظر إلى هذا الفكر يراه مخالفا للإسلام ، وذلك لما يأتى :

(أ) أن الإسلام يقوم على الإيمان بوجود الله وبالحياة الآخرة ، فالوجود الزمنى فى الدنيا معه وجود آخر دائم بعد الموت ، فالعدم ليس نهاية الوجود كله ، بل إن الحياة الآخرة خير لمن اتقى واستقام أمره .

(ب) ليست وسائل المعرفة الصحيحة قاصرة على إحساس الفرد نفسه بما يعانيه من تجربة ، فهناك العقل وميدان التفكير واسع غير محدود ، وهناك الوحى المنزل من عند الله على رسله .

(جـ) ليست الحرية الشخصية فى الإسلام أو فى أى دين آخر ، بل فى أى تشريع أو عرف ، حرية مطلقة بغير حدود ، فهناك ضوابط موضوعة لاستقامة السلوك وللمحافظة على حقوق الآخرين ، ضرورة أن الإنسان مدنى بطبعه ، لابد أن يعيش فى مجتمع له حقوقه ، ومعلوم أن الأهواء الشخصية مختلفة ، وفى بعضها تضارب كبير، والإنسان ليس كالحيوانات التى تسيرها غرائزها فى أكثر أحوالها.

(د) الإسلام لا يرضى عن التشاؤم المطلق ، أو اليأس المقنط ، بل فتح باب الأمل ، ودعا إلى النشاط والعمل ، ووعد بالعفو عن المسىء إذا أناب إليه ، وباليسر والفرج لمن توكل عليه وآمن برحمته وحكمته وهو يباشر نشاطه المأمور به .

وكل ذلك له أدلته من الكتاب والسنة وآثار السلف وواقع التاريخ الذى أثبت أن المسلمين انطلقوا بإيمانهم العميق بالله وبالحياة الآخرة ، وبالأمل

الواسع فى نصره وتأييده ، وبالتزامهم الصادق للحدود التى وضعها الله للسلوك ـ انطلقوا إلى الآفاق الواسعة ، ينشرون كلمة الحق ويعمرون الدنيا بالخير .

ولا حاجة بالمسلمين اليوم إلى استيراد أفكار وفلسفات وأنماط سلوك وضعية هى نتاج عقول تخطىء وتصيب ، وهى نضح لمعاناة شخصية فى ظروف خاصة « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١) . يقول « بول فولكييه » فى كتابه « هذه هى الوجودية » إن غموض شخصيات من اعتنقوا هذا المذهب جعل تعبيراتهم غامضة وليس من السهل فهمها أو تحديد المعانى المرادة منها ، ولذلك لما اعترض على سارتر بهذا الغموض قال « لا عجب فى عدم فهم ما أكتب لأن الواقع محال ولا يدركه الفهم » أمثل هؤلاء يتخذون زعماء ؟

يمكن الرجوع الى ما يأتى :

١ ـ دائرة معارف الشعب ، المجلد ٣ ص ٥٦٩ .

٢ ـ دراسات فى الوجودية ، للدكتور عبد الرحمن بدوى .

٣ ـ الفلسفة الوجودية ، للدكتور زكريا إبراهيم .

٤ ـ المذاهب الهدامة ، لعباس العقاد .

٥ ـ الوجودية ، للدكتور محمد الفيومى .

٦ ـ قضايا العصر ، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية .

٧ ـ الأهرام ١/١٠/١٩٨٣ ، ٢٦/٤/١٩٨٥ م .

٨ ـ اللواء الإسلامى ١١/٤/١٩٨٥ م .

٩ ـ الوجودية فى الميزان ، للدكتور مصطفى غلوش .

١٠ـ الوجودية فى الميزان ، للشيخ محمد أبو المكارم .

---

١ ـ سورة المائدة : ٥٠

٥ ـ الشيوعية

الشيوعية لون من ألوان الاشتراكية ، التى هى نظام تعاونى قائم على جعل الوسائل الرئيسية للإنتاج والتوزيع ملكا للمجتمع ، وموجهة بطريقة ديموقراطية نحو الصالح العام ، بإيجاد فرص عمل لجميع الأفراد ، ومستوى الإنتاج ومستوى المعيشة مع الضمان الاجتماعى وعدالة التوزيع .

وهذا المعنى يفكر فيه الناس من قديم الزمان وإن كانت وسائلهم إلى تحقيقه مختلفة ، فكان قدماء اليونان يدعون إلى المساواة ، والراهب «ميزليه» نادى بنزع الملكية الخاصة ، وأتباع « توما الأكوينى » المتوفى سنة ١٢٧٢م . كانوا يدعون إلى ذلك ، لكن هذا المعنى ظهر بوضوح فى القرون الأخيرة بعد النهضة الصناعية فى أوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر ، ويعزى إلى « لوى بلان » هذا المبدأ : من كل حسب مقدرته ، ولكل حسب حاجته .

كان من أعظم الاشتراكيين المحدثين « كارل ماركس » المتوفى سنة ١٨٨٣م . وجاء عنه فى موسوعة المعرفة « ص ٦٠٨ » أنه من أسرة يهودية متوسطة ، تحول أبوه المحامى إلى المسيحية سنة ١٨٢٤ م وعمدت أسرته كلها طبقا للبروتستانتية . درس القانون والتاريخ والفلسفة فى جامعات بون وبرلين ، ونال الدكتوراه سنة ١٨٤١ م فى الفلسفة .

ولما ذهب إلى فرنسا طرد منها لآرائه السياسية ، فذهب إلى بروكسل ، ولحق به « أنجلز » وكتبا البيان الشيوعى ، فقامت الثورات فى أوروبا فهربا إلى ألمانيا ، ثم انتهى ماركس إلى لندن وتوفى بها ، ودفن فى مقبرة « هاى جيت » .

أصدر ماركس وفريدريك أنجلز المتوفى سنة ١٨٩٥ م هذا البيان سنة ١٨٤٨ م ، الذى يحث جميع العمال على الاتحاد والاستيلاء بالقوة على جميع الأجهزة السياسية والاقتصادية .

وكان ماركس قد أصدر الجزء الأول من كتابه « رأس المال » سنة ١٨٦٧م وهو أعظم وثيقة فى تاريخ الاشتراكية قامت على أثره ثورات كثيرة فى أنحاء أوروبا ، ويعتبر انجيل الثورة الشيوعية فى روسيا ، التى كانت تعرف أولا باسم « البلشفية » وكان « لينين » ، و « تروتسكى » زعيما ثورة ١٩١٧ م من تلاميذه ، والجزآن الآخران أتمهما « انجيلز » ونشرا بعد موت ماركس ١٨٨٣ م .

تقوم الشيوعية على مبادىء تتصل بالدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، من أهمها :

١ ـ الكفر بالأديان ومكافحة سلطان الكنيسة بالذات ، حيث كان هو السائد عند قيام الثورة ، لقد قال ماركس ، وهو فى سن الخامسة والعشرين كما يقول روجيه جارودى (١) : إن الدين أفيون الشعب ، فهو يزهد فى الدنيا ويزرع فى النفوس الخضوع للقضاء والقدر والرضا بالواقع وعدم الكفاح لتغييره مهما كانت قسوته لقد كفر بالله على الرغم من أن أصله يهودى انتقلت أسرته إلى المسيحية .

وقال « لينين » فى مؤتمر الشباب الشيوعى المنعقد فى ٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٠ م : إننا معشر الشيوعيين لا نستمد قوانين الأخلاق والسلوك الاجتماعى من أوامر الدين ، لأننا نخرج على جميع الأخلاق والآداب التى تنفصل عن المجتمع البشرى ونرى أنها خداع وتضليل .

وجاء فى الموسوعة السوفياتية «الطبعة الثانية سنة ١٩٦٤ م مجلد ٢٢» أن القرآن من عند محمد ومن بعده ، ويقول « أ . سمير نواف » عضو المجمع العلمى وزعيم الدراسات الإسلامية فى الإتحاد السوفياتى فى كتابه « تاريخ الإسلام فى روسيا » إن وجود محمد خرافة وكذلك هجرته » (٢) .

---

١ ـ مجلة الطليعة عدد آذار ١٩٧٠ م .

٢ ـ الإسلام أقوى ، تأليف جهاد قلعجى .

وطالب الزعيم السوفياتى « ميخائيل جورباتشوف » بشن حملة لا هوادة فيها ضد الدين فى الجمهوريات الإسلامية السوفيتية بوسط آسيا ، وقالت جريدة « برافدا فوستوكا » الناطقة باسم الحزب السوفيتى فى جمهورية « أوز باكستان » : إن تعليمات جورباتشوف صدرت خلال إجتماع مع قادة الحزب فى طشقند وهو فى طريقه الى الهند _ موسكو _ روتر _ الأهرام فى ١٩٨٦/١١/٢٩ م .

٢ _ ديكتاتورية عامة الشعب « البروليتاريا » من أجل إيجاد مجتمع شيوعى، وعند عدم تهيؤ الشعب للسلطة ينوب عنه الحزب الشيوعى .

٣ _ ملكية وسائل الإنتاج : الأرض ورأس المال والعمل ، لتكون للشعب عامة ، والقضاء على الملكية الخاصة . ومناهضة الإقطاعيين من النبلاء ورجال الكنيسة الذين يملكون الأرض بعبيدها ، وكذلك مناهضة البورجوازيين للأموال فى الثورات الصناعية والمتحكمين فى العمال . ويلزم ذلك إهدار كرامة الفرد ، والقضاء على حرية النقد .

٤ _ تفسير التاريخ تفسيرا ماديا ، بمعنى حتمية الصراع بين الطبقات ليقوم المجتمع الشيوعى ، وانكار أن تكون هناك سنن موضوعة من الدين للوجود ، فلا بد من أخذ الفقراء حقوقهم من الأغنياء بالصراع . إنها حرب على الغنى ودعوة إلى الفقر باسم المساواة .

هذه هى أهم الأسس التى تقوم عليها الشيوعية ، والأديان بوجه عام ، والإسلام بوجه خاص لا يقرها ، وليس هو فى حاجة إليها ، لما يوجد فيه من مبادىء تحقق الرخاء والتقدم للمجتمع فى ظل استقرار روحى ومودة وتكافل ، ينبع من إحساس داخلى يغرسه الإيمان فى النفوس .

ولا يصح أن يقال عن الإسلام : إنه دين اشتراكى بالمعنى الموجود عند الغرب فهو نظام متميز عن كل هذه الألوان المتعددة للاشتراكية ، والحكم على دين أو مذهب يكون بالحكم على جميع أصوله ككل ، فالمسلم الذى ينكر

مبدأ واحدا من المبادىء الأساسية فى الدين لا يعد مسلما ، وكذلك الشيوعى بالذات لا يعد شيوعيا اذا أنكر مبدأ من مبادئها . ومن هنا لا يمكن أن يقال عن المسلم إنه شيوعى ، لأنه إن أنكر دينه لا يكون مسلما بل كافرا ، وإن أخذ ببعض مبادىء الشيوعية لا يكون شيوعيا حتى يأخذ بها جميعا .

ولسنا فى حاجة إلى مناقشة مبادىء الشيوعية ، فالإسلام يرفضها جملة وتفصيلا ، ذلك لأنه قائم على الإيمان بالله وبكل ما جاء به الدين من الحياة الآخرة والأمور المغيبة ، ومن قضاء الله وقدره وتدبير خلقه على سنن حكيمة ، ومن احترام الحقوق لجميع الناس من أغنياء وفقراء ، ومن حل المنازعات عن طريق الصلح والقضاء ومن الإسهام بقوة فى النهوض بالمجتمع من كل نواحيه الاقتصادية والسياسية والثقافية لتحقيق خيرية هذه الأمة وإسعادها فى الدنيا والآخرة على السواء ، مع ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس الشورى والتناصح والتعاون ، والاحتفاظ بكرامة الانسان وصيانة حريته فى حدود المصلحة العامة ، والأدلة على ذلك كثيرة فى القرآن والسنة وغيرهما من مصادر التشريع .

هذا ، وقد جاء فى جريدة « الفاينانيشال تايمز » (١) أن القضاء على الملكية الخاصة لما كان مثبطا للهمم مساعدا على عدم المبالاة ، قاضيا على روح التنافس لجأ الروس إلى العودة إلى احترام هذه الملكية بعد أن رأت العواقب الوخيمة من جراء القضاء عليها ، فقد أفردت جريدة « إزفستيا » مساحة كبيرة لتجربة فسح المجال لقدر أكبر من الحافز الفردي فى مجال مشاريع الخدمات ، وأشارت إلى تجربة تمت فى « استونيا » حيث سمح لرجال الصيانة بالاحتفاظ بمكاسب من عملهم فى أحد محلات اصلاح أجهزة التليفزيون ، ليمولوا المشروع بأنفسهم ، وظهر أن الجهاز الذى كان يستغرق إصلاحه قبل ذلك حوالى أسبوعين أصبح الآن يتم إصلاحه فى ثلاثة أيام على الأكثر ، كما قام العمال بإصلاح إدارى لجذب الزبائن إلى المحل وقد ارتفعت أرباح المشروع بنسبة من ١٠ ــ ١٥ ٪ عن ذى قبل وجاء فى أهرام ١٩٨٧/١/٤ م نقلا عن « النيويورك تايمز » وفى أهرام ١٩٨٧/٣/١٧ م نقلا عن « الهيرالد تريبيون » بعنوان كارل ماركس :

---

١ ــ الأهرام ١٩٨٥/٨/٣١

يقول ماركس : إن الدين هو آفة الإنسان المقهور ، وإن الدين أيضا هو أفيون الشعوب ، وكان الأفيون معروفا فى ألمانيا حينذاك بأنه قاتل الألم .

وفيه : ومن أجل الإعداد للثورة يجب إزاحة التأثير المخدر للدين وترك الطبقة العاملة تعانى حتى يصل الألم إلى درجة لا يمكن احتمالها ، وحينئذ سيأتى الشفاء على يد الشيوعية : فالقضاء على الدين هو الشرط الأول لسعادة الشعب وعلى نهجه سار لينين .

لكن بدأ تغيير فى تعليم الملحدين فى عهد جورباتشوف ، فظهر فى الصحف رسائل تقول : إن لم تكف السلطات السوفيتية عن محاربة الدين فإن إدمان الخمور لن يتوقف ، أصبحت الفودكا هى المهرب من المعاناة ، وذلك يهدد الإنتاج ويهدد الأسر بالانهيار ، لقد أصبحت الشيوعية هى الإله الذى فشل فى توفير الخبز لعباده .

راجـــع :

١ ـ الشيوعية والإنسانية فى الإسلام ، لعباس العقاد .
٢ ـ نظرات إسلامية فى الاشتراكية الثورية، للدكتور معروف الدواليبى .
٣ ـ طبقية المجتمع الأوروبى وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامى المعاصر ، للدكتور محمد البهى .
٤ ـ الاشتراكية العربية ، للعميد سيد عبد الحميد مرسى ، وعبد الرحمن عبد المتعال .
٥ ـ الإسلام أقوى ، لجهاد قلعجى .
٦ ـ المحاضرات الثقافية بقاعة محمد عبده بجامعة الأزهر سنة ١٩٥٩ م .
٧ ـ موسوعة المعرفة .
٨ ـ الفتاوى الإسلامية . المجلد ٤ ص ١٣٦٧ .
٩ ـ آخر ساعة فى ١٩٧٥/٨/٢٠ م .
١٠ـ الماركسية بين النظرية والتطبيق ، للدكتور عبد المنعم النمر .

طريقة دين الاسلام (★)

أمثل طريق لتكوين خلق الانســـان

سلك الاسلام فى تكوين خلق الانسان مسلكا شملهم من جميع نواحيهم فاتخذ من الوسائل أوفاها وأقربها ، ومن الذرائع أنبلها وأنجعها (هٰذَا القرآن يَهْدِى لِلتِى هِىَ أَقْوَمُ) .

واليك البيان :

الذريعة الأولى

تأديبه فى مأكله ومشربه

إن من أهم الأمور وآكدها الاعتناء بتربية النشء الصغار ، وتعويدهم التخلق بالكمال فى حال نشأتهم ، لأن الصبى عندما يولد يكون ساذجاً خالياً من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ماينقش عليه ، ومائل إلى كل مايمال به إليه ، فان عود الخير وعمله نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والمتولى أمره ، انظر قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنوا قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً) .

(★) من كتاب "الخلق الكامل" لمحمد أحمد جاد المولى بك ج ٢ ١٩٦٥

وإذا كان الأب يصونه عن نار الدنيا فلأن يصونه عن نار الآخرة أولى،
وصيانته بأن يؤدبه ويعلمه مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات . وإذ إن أول
ما يغلب عليه شره الطعام وجب على المربى أن يؤدبه فيه ، حتى لا يكثر من
الطعام ، ولا يسرف فيه ، فان الله سبحانه يبغض من يفعل ذلك ، وان يقبح
عنده كثرة الأكل بتشبيه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، ويذم بين يديه كل
من يكثر الأكل من أمثاله ، وألا يطعمه إلا حلالا طيبا طاهراً من ربا أو
غصب أو سرقة ، ويبين له الحلال منه وطرق تحصيله ، والحرام ويباعده عنه
ويبين له المواضع التى أباح الله له الأكل منها من بيوت أقاربه : كأبيه وأمه
وأخيه، وأخته ، وعمه، وعمته ، وخاله ، وخالته ، أو صديقه . ويبين له آدب
الأكل منفرداً أو مع غيره ، وقبل الأكل وبعده .

وقد بين الله جل شأنه هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله . فقال تبارك
اسمه فى النهى عن كثرة الأكل والشرب . والاسراف فيهما وبغضه لذلك
(كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) فأرشدنا إلى
ماعلمنا من الطب والحكمة، وهدانا إليه، مما تصح به أبداننا وتقوى به أجسامنا ،
وتطيب به معيشتنا ، وتهنأ به حياتنا من عدم الافراط فى الأكل والشرب
والاسراف فيهما ، لأن كثرة الأكل والشرب تفسد المعدة ، وتضعف
الجسم ، وبذلك يضعف الفكر ، ويخمد الذهن ، وينحط الادراك . وإذا حجب
القلب عن الادراك ، ومنع الذهن عن الحركة فى المعقولات ، خسر صاحبه
بابا كبيرا من العبادات ، لأن المقصود من العبادات إنما هو الفكر الموصل
إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، وكثرة الأكل كما علمت مانعة منه .
ولهذا قال لقمان لابنه « إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة،
وقعدت الأعضاء عن العبادة » وقد بينت السنة حد السرف المنهى عنه فقال
رسول الله ﷺ : « إنَّ مِنَ السَّرَفِ أنْ تأكُلَ كُلَّ ما اشْتَهَيْتَ »
كما بينت القدر اللازم والمقدار الواجب استعماله منهما فقد قال صلى الله

عليه وسلم : «مَاملأ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شرًّا منْ بَطْنِهِ . حسْبُ ابن آدمَ لقَيْمات يُقمن صلْبَهُ ، فانْ كانَ فاعلاً لامحالةَ ، فثلثٌ لطعامِهِ ، وثلثٌ لشرابه ، وثلثٌ لنفسه » هذا وبعد أن نهى جل شانه عن الاسراف فى الأكل والشرب ، أخذ يتوعد ويهدد من خالف أمر الله فأسرف فيهما ، ولم يقتصر على استعمال القدر الواجب استعماله منهما فقال : « إنّه لايحبُّ المسرفينَ » أى يبغضهم ، وناهيك بغضب الله تعالى وعدم رضاه فانه داعية الهلاك ، وسبب كل المصائب ، وأى عاقل يجرؤ على أن يغضب الله تعالى فى مقابلة مرضاة نفسه باتباعها فى شهوة هى سبب هلاكه ، وداعية لأسقامه وآلامه ؟

الذريعة الثانية

تأديبه فى حديثه

إن أعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فانه لاتعب فى إطلاقه ، ولامئونة فى تحريكه ، ولذا ترى أغلب الخلق قد تساهل فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصايده وحبائله ، فأوردهم المهالك ، وجر بهم إلى المصائب . وما كبَّ الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم . فاللسان خطره عظيم ، ولا نجاة من خطره إلا بإلجامه بلجام الشرع ، ووقوف صاحبه عند الحدود والآداب التى أدبه بها الشرع ، وعليه إياها فى محادثاته ومخاطباته ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله ، وذلك بأن يعقله إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه ، أوحكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها ، ولا يتكلم به إلا بقدر الضرورة والحاجة ، وأن يقتصر فى التكلم به على ما يقيم حجته ، ويُبلغ

حاجته ، وألا يغالب أحدا على كلامه ، وإذا سئل غيره فلا يجيب عنه ، وإذا حدث بحديث فلا ينازعه ، ولا يقتحم عليه فيه ، ولا يريه أنه عالم به ، وأن يكلم كل إنسان بما يليق ، فلا يخاطب السوقة بكلام الملوك ، ولا الملوك بكلام السوقة ، وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام ، فإن ما لا داعى له هذيان ، وأن يجتنب فى محادثته ثلاثة أشياء ، هى أعظم الأشياء خطراً على الانسان وأبغضها لله ، وأقبحها عند الناس ، وهى : الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، وألا يتجاوز فى مدح ، ولا يسرف فى ذم ، لأن السلامة من الكذب فى المدح والذم متعذرة ، وألا يتكلم إلا فيما يعنيه ، وأن يضع الكلام فى موضعه ، لأن لكل مقام مقالا ، وأن يجتنب فى حديثه كل ما يستكره مخاطبه ، وألا يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه ، فإن ذلك كله مما ندب إليه الشرع ، وحكم به سليم الطبع .

فإن لاحظ المتكلم فى حديثه هذه الاعتبارات السابقة ، وألزم نفسه رعايتها فى كل أحواله ، كان من كمال أخلاقه ، وتمام قدره ، واستوى عقله ، فإن عقل المرء مخبوء تحت لسانه ، بمصداق قول على كرم الله وجهه : (لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه) .

[illegible] فى اللباقة فى القول ، والإجادة فى الحديث ، ومكانة الشريعة فيه : وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ، فأرشدنا إلى حسن الأدب فى المحادثة والمخاطبة .

فقد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم : الكلمة الطيبة ، وهى الكلام الحسن [illegible] فإنهم إن لم يفعلوا نزغ الشيطان بينهم ، [illegible] المخاصمة والشحناء ، لأنه العدو المبين للإنسان يتربص به الدوائر ، [illegible]

الفرص في حصول الشحناء بين بعض أفراده .

فالعاقل من لم يجعل الشيطان حظا من قلبه ، حتى يملكه من غرضه ويبذله أمنيته ، ويحقق له رغبته ، وإلا كان قد أسلم نفسه لعدوه يفعل فيها كيف يشاء ، وهو لعمري فعل غير حكيم .

وقال تعالى في النهي عن التكلم فيما لا يعني . والسؤال عما لا يعود على السائل منه أدنى فائدة . بل ربما ساءه وأضر به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ . فأرشدت الآية الكريمة الى بيان تأديب الله تعالى عباده المؤمنين ، وتعليمهم الأدب معه ومع رسوله صلى الله عليه وسلم وقت التشريع ، إذ نهاهم عن أن يسألوا عن وجوب مالم يجب أو حرمة مالم يحرم من التكاليف التي تشتهي نفوسهم الوقوف عليها ، ولم ترد على لسان الشارع صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم لو سألوا عنها لكان سؤالهم داعية إلى مشقتهم بتكليفهم مالا يطيقون ، مما يضعفون عن القيام به فيحل بهم غضب الله ، وهذا ما يفيده قوله صلى الله عليه وسلم لعكاشة بن محصن ، أو سراقة بن مالك ، حين سأله عن وجوب الحج في كل عام : (ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم . فاتركوني ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) .

فأدب المرء بالنسبة لله سبحانه وتعالى هو أن يسكت عما ترك الله ذكره لأنه جل شأنه هو العالم بالمصالح والمحيط علمه بكل شيء ، ولو علم أن في ذكر هذه الأشياء خيراً كثيراً لذكرها .

وقال جل شأنه في الحث على التكلم مع الناس بالحسنى ، واللين والرفق ،

ومجانبة الفظاظة فى القول والغلظة فى الحديث : أخذ العهود والمواثيق من بنى إسرائيل على ذلك : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » فأفادت الآية الكريمة بيان ما أمر الله به بنى إسرائيل وأوجب عليهم أن يؤدوه من الحقوق والآداب نحوه جل شأنه، ونحو عباده وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك، فأعظم هذه الحقوق وأولاها بالرعاية أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، لأنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الأوقات والحالات ، فهو المستحق أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته . ثم يليه حق الوالدين وهو برهما وحسن معاشرتهما والتواضع لهما والرحمة بهما ، والنزول عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ، ويوصل اليهما ما يحتاجان اليه ولا يؤذيهما ، وإن كانا على غير دينه . ولعناية الله تعالى ببر الوالدين ، وأداء ما يجب لهما من الحقوق قرن ذلك بأعظم الأشياء لديه وهو عبادته وحده لا شريك له، وذلك فى غير موضع من القرآن فمنه قوله تعالى : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » وقوله « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » إلى غير ذلك من الآيات .

ثم من بعده حق اليتامى وهم الذين مات آباؤهم وهم صغار ، وحقهم أن يتولى تربيتهم ، ويحسن تأديبهم ، ويكفل مصالحهم ، ويسعى فى صالحهم ، وبالجملة يجلب لهم كل خير ، ويدفع عنهم كل شر وضير .

ثم من بعده حق المساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم . وحقهم أن يقوم بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم ويكفيهم مئونة ذل السؤال، ولا يلجئهم إلى تكفف الناس، ثم بعد أن أمرهم جل شأنه بالاحسان بالفعل على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك أمرهم بالاحسان بالقول مع سائر الناس ، ليجمع بين طرفى الاحسان الفعلى والقولى فقال : « وقولوا للناس حسناً » أى كلموهم كلاما طيباً عند محادثتكم

لهم، وبخاطبتكم إياهم ولينوا لهم جانبا، وليكن حديثكم معهم هينا لينا وسطا ليس بالغليظ المرتفع فيمج، ولا بالمنخفض بحيث يكلف المستمع طلب إعادته ويدخل فى ذلك كل حسن من القول، سواء أكان أمرا بمعروف أم نهيا عن منكر. وقال تعالى فى الحث على خفض الصوت عند المحادثة: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) وقال تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) فبين حرمة صحبة من لا خلاق لهم من الناس، ومجانبة المجالسة والمحادثة معهم، وعدم طاعتهم فى كل ما يقولون بقوله: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) فهذه سبعة أوصاف كلها مثالب ومعايب، نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن طاعة المتصفين بها وهو تعليم لنا، وإرشاد لما يجب أن نتخلق به من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة، ونتركه من الأخلاق الفاسدة والصفات الكاسدة.

ووجه النهى والله أعلم أن الحلاف وهو كثير الحلف سواء فى الحق أو فى الباطل — قلما يتحرى الصدق فى أيمانه، فهو عرضة على الدوام للكذب والحنث فيها، فضلا عما له من الجراءة على الله تعالى وعلى أسمائه، ومثل هذا تجب مجانبته وتحرم مخالطته، ولذا جعله جل شأنه فاتحة المثالب ومقدمة المعايب. وإن طاعة المهين وهو حقير الرأى والتدبير — ربما أوردته المهالك وجرت عليه أخبث المسالك، لأنه يريد أن ينفع فيضر، فطاعة مثل هذا لا نتيجة لها سوى الضرر.

وإن الهماز وهو العياب الطعان لا تؤمن غوائله فهو اليوم له، وفى غد عليه فضلا عن أنه بطاعته يعد شريكا له فى هذه المنقصة، وتلك الرذيلة، لأنه لا يعيب غيره ولا يطعن عليه إلا لزمانة فى مروءته، وخسة فى أصله، ولؤم فى طبعه.

وإن المشاء بالنميم هو النقال للحديث من قوم إلى آخرين ليفسد بينهم لا هم له إلا الايقاع بين الناس والافساد بينهم. والقاء بذور الشقاق والخصومات فيما بينهم، وإيغار الصدور وتوليد الشرور، ومثل هذا تجب مخالفته وتحرم

طاعته وتعاف مجالسته ، لأن صحبته غرر ، وطاعته ضرر ، ومجالسته خطر فكثيرا ماهلك وأهلك ، وأراق الدماء وسفك ، وما حمد أيما سلك .

وإن المناع للخير وهو البخيل الممسك يمنع أحوج مايكون اليه صاحبه . ومثل هذا لا خير فى صحبته وطاعته ، وإن المعتدى وهو الظالم لا يؤمن شره ولا يؤمل خيره ، فهو أولى بالاجتناب ، وأحرى بنبذ طاعته سداً للباب .

وإن الأثيم وهو كثير الاثم والمعصية لم يبال المجاهرة بمعصية خالقه ولم يخش من جلاله وعظمته فلا يبالى أن يجاهر صاحبه بأذيته ، وينابذه بعداوته . ومثل هذا تنبذ طاعته وتجنب مخاطبته . .

وقال فى النهى عن الكذب فى القول وقت المحادثة : (إنَّ الذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ) فبين قبح الكذب وذم فاعله ، وذلك بما أخبر الله تعالى به عن الكذابين من عدم الفلاح والنجاح ، وكفى بأى صفة ذما أن تكون نتيجتها عدم الفلاح والنجاح .

الذريعة الثالثة

تأديبه فى مجالسته

من خلق الاسلام أن يوسع المرء لجليسه إذا أقبل عليه ، ولا يضيق عليه وأن يلتزم معه الأدب والسكينة والوقار ، إذا كان أكبر منه سنا أو علما ، وبخاصة إذا كان أباه أو أستاذه ، وأن يرحب به ويقبل عليه إذا حدثه ولا يضع رجلا فوق أخرى بحضرة من هو أكبر منه ، إن كان ذلك يغضبه ، ولا يبصق ولا يتمخط إلا فى منديل ، مواريا وجهه عن جليسه ، وإذا تثاءب فلا يصحب التثاؤب بصوت بل يضع يده على فمه ، فان مخالفة ذلك مما يستقذره الناس قال الله تعالى مشيرا إلى بعض هذه الآداب : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ

أوتوا العلمَ درَجات واللهُ بِمَا تعمَلونَ خبيرٌ) فبين ما أدب الله به عباده المؤمنين، وأمرهم به من حسن المعاملة والمجاملة ورعاية الأدب في حق بعضهم بعضاً : فمن ذلك إذا كان جماعة في مجلس وقدم عليهم آخر أو جماعة أخرى — فعلى الجالسين أن يوسعوا للقادمين مسرعين في ذلك سواء أكان المجلس مجلس ذكر أم تعليم أم صلاة جماعة أم جمعة أم غير ذلك من مجالس الخير، لأن ذلك يكون سبباً للتوادد والتوافق والتحاب ونبذ التباغض والتحاسد، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله : (يَأيها الذين آمنوا إذا قيلَ لكمْ تفَسَّحوا في المجالسِ فافسَحوا يفسح الله لكم).

وأما القيام منه للقادم فقد جوزه بعض العلماء إذا كان لعظيم لقوله عليه الصلاة والسلام : (قوموا لسيدكم) . وذلك ليكون أنفذ لحكمه ، وأدعى لتوقيره وتمثل عظمته في قلوبهم . وفي غير ذلك لا يجوز فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يقومون النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم عليهم ، ولم يكن أحب اليهم ، ولا أمكن هيبة في قلوبهم منه وذلك لما كانوا يعلمون من كراهته لذلك أما القادم نفسه فليس له أن يقيم أحداً من مجلسه ليجلس مكانه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يقيم الرجل الرجلَ من مجلسه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا) .

ولما كان الغرض من التوسعة في المجلس للقادم غرس المودة والمحبة في قلوب المؤمنين ، ولا يكون ذلك إلا حيث كانت التوسعة مصحوبة بشيء من الحفاوة بالقادم والاحتفال بأمره والاعتناء بشأنه . ومن ذلك أن ينهض مسرعا في التوسعة ، فلما كان الغرض من التوسعة ذلك حث جل شأنه على النهوض بسرعة للتوسعة في المجلس للقادم فقال : (وَإذَا قيلَ انشُزُوا فانشُزُوا يرفَعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكمْ والذينَ أوتوا العِلمَ درَجات واللهُ بما تعمَلونَ خبيرٌ) أي وإذا قيل لكم انهضوا للتوسعة في المجلس للقادمين عليكم فانهضوا وأسرعوا ولا تتبطأوا فانكم إن فعلتم ذلك يرفع الله الذين آمنوا منكم في الدنيا والآخرة درجات عظيمة جزاء امتثالهم لأمر الله تعالى في قيامهم من

مجالسهم ، وتوسعتهم لاخوانهم ، ويرفع الله الذين أوتوا العلم منهم خاصة درجات أعظم وأرفع ، لانهم إنما يفعلون ما يؤمرون به عن بينة وقوة يقين . وإنما خص جل شأنه أولى العلم مع دخولهم فى عموم الذين آمنوا ، لأنه لما علم جل شأنه أن أهل العلم بمكانة بها يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك مالهم من الرفعة فى المجلس ، تواضعاً لله عز وجل . وفى الآية مما يدل على فضل العلم والعلماء على غيرهم مالا يخفى .

وإن لم تفعلوه بأن كرهتم أن تتأدبوا بآداب الله ، واستعظمتم أن توسعوا مجالسكم للقادمين عليكم حسبما أمركم ربكم فان الله بما تعملون خبير ، لا تخفى عليه خافية من أعمالكم من خير أو شر ، فيجازيكم بالخير خيراً وبالشر شرا .

ومما جاء فى آداب المجالسة قوله عليه الصلاة والسلام : « إذَا كنْتُمْ ثَلاثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دونَ الآخر، حتى تختلطوا بالنَّاسِ . أجل إنَّ ذلك يُحزِنُهُ » ، والحديث صريح فى أن التسار بين الاثنين دون الآخر منهى عنه ، لأنه يدخل على قلبه الوحشة والريبة فيحزن ويتألم ، ومن هذا القبيل أن يتحدث الاثنان جهرة بلغة يجهلها الثالث، مع اشتراكهم جميعاً فى معرفة لغة أخرى .

الذريعة الرابعة

تأديب جوارحه ومشاعره

قصد الاسلام أن يجعل من الإنسان فى ذاته مثلا صالحا ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا يقع منه ما يخل بالمروءة أو يقلل من قيمته أو يحط من قدره . فلا تلقاه إلا محمود الخصال ، ولا تراه إلا شريف الشمائل جميل الخلال : إن نطق صدق ، وإن وعد وفى وحقق ، وإن ائتمن لم يخن . وإن تمكن من فعل محرم عف وكف ، وإن رأى منكرا غيره . وإن تكلم غض من صوته ، وإن مشى لم يختل فى مشيته ، وإن رأى كبيراً وقره ، وإن

من يلغو من القول أو الفعل تجنبه وإن لم يقدر على دفعه . وهكذا من كل خصلة حميدة وصفة جميلة . من أجل ذلك سلك به فى التأديب الطرق الآتية :

الأولى : غض البصر وحفظ الفرج وعدم التبرج وعدم فعل أى شىء من دواعى الميول الحيوانية أو إثارة الفتنة سواء أكان ذلك للرجال أم للنساء : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

فبين أكمل الآداب التى يجب على الرجال والنساء أن يتخلقوا بها ، ويتحلوا بحلاها ، وهى بالنسبة إلى الرجال أن يغضوا أبصارهم عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه : من أجنبية غير محرم لهم ، وأن يحفظوا فروجهم من التعدى على عرض الغير ، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) لأن العين مبدأ الزنا . والنظر يزرع فى القلب الشهوة التى هى مجلبة لسائر الدنايا ، ومهلكة لصاحبها ، بما تجر إليه من أعظم المصائب ، وأكبر المعايب . ولذا كان حفظ العين من الأمور المهمة الدالة على جلالة قدر صاحبها ونزاهة نفسه ، وبعد همته ، وصلاح شيمته ، وقد حذر صلى الله عليه وسلم الأخذ فى أسبابه ، ونهى عن دواعيه سداً لبابه ، فقال : « إياكم

والجلوس على الطرقات ، قالوا : يارسول الله لا بد لنا من مجالسنا نقعد فيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فان أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، هذا ومن اتفق وقوع بصره على مايحرم نظره إليه من غير قصد فعليه أن يصرف بصره عنه سريعاً ، بتحويل وجهه إلى جهة أخرى ، أو إطباق عينيه ، أو إطراقه إلى الأرض أو يسترهما بأى ساتر مما يحول دون نظره ، فان ذلك أدعى لعصمته وأحفظ لميوله .

وأما هذه الآداب بالنسبة للنساء فهى أن يغضضن أبصارهن ويمنعنها النظر إلى غير أزواجهن ، ولايظهرن شيئاً من زينتهن للأجانب إلا ماظهر منها ، ولا يمكن إخفاؤه : كالرداء والثياب الظاهرة . وأن يلقين على صدورهن ونحورهن مقانع ليسترنها عن أعين الناظرين ، فلايرون منها شيئاً ، ولا يبدين زينتهن إلا لأزواجهن ، أو آبائهن ، أو آباء أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء أزواجهن أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن المختصات لخدمة أو صحبة بشرط أن يكن مسلمات ، لأن غيرهن لايتحرجن من وصفهن للرجال وذلك يجر للمفسدة ، أو ماملكت أيمانهن من الاماء . أما الذكور فلايجوز إبداء الزينة لهم ، لأنهم فحول ليسوا أزواجاً ، والميول متحققة فيهم والأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولاحاجة لهم إلى النساء أو الأطفال الذين لايميزون — فهؤلاء لابأس من ظهور الزينة أمامهم .

أما وجه جواز إظهار زينتهن لآبائهن، وآباء أزواجهن، وأبناء أزواجهن وإخوانهن وبنى إخوانهن ، وبنى أخواتهن ، فلأنهم محارم لهن يجوز للمرأة أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج ، بل بالحشمة والوقار ، لقلة توقع الفتنة من جهاتهم ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى السفر للنزول والركوب وغير ذلك .

وأما وجه الجواز بالنسبة لنسائهن المختصات بهن المسلمات ، وماملكت

أيمانهن من الاماء والأجراء والاتباع الذين لاحاجة لهم إلى النساء والأطفال الذين لايميزون ، فلعدم الضرر من جهتهم إذا أبدين زينتهن لهم .

وقد شدد الشارع الحكيم فى عدم إبداء الزينة للنساء لما يعلم مايترتب على ذلك من المفسدة والمضرة حتى نهى المرأة أن تضرب برجلها الأرض ليعلم ماخفى من زينتها فقال : (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مايُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) .

ومثل ذلك ما لوكان شىء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ماخفى أو تتعطر وتتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها ، فانه يدخل تحت هذا النهى أيضاً ، وكذا مايلبسه أكثر مترفات النساء فى زماننا فوق ثيابهن ويتغطين به إذا خرجن من بيوتهن ، ففيه من أنواع الزينة مايبهر العيون ، ويأخذ بألباب ضعاف العقول ، وقد عمت بذلك البلوى . ومثله ما عمت به البلوى أيضاً عدم احتجاب أكثر النساء من أصدقاء أزواجهن وعدم مبالاة أزواجهن بذلك وكثيراً ما يأمرونهن به ، فان ذلك مما لم يأذن به الله ورسوله وهو دليل على قلة الغيرة وضعف المروءة .

الثانية : عرض عليه طائفة من أحسن الآداب وأجل الأخلاق الذاتية حاكيا عن لقمان عليه السلام يوصى ابنه : (يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) فبين أهم مكارم الأخلاق ، وأعظم صفات الكمال على الاطلاق ولا غرو فقد وصى بها أب حكيم قد ذكره الله بأحسن الذكر ، وآتاه الحكمة والاصابة فى الرأى والفكر ، لابن هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم إليه ، فهو جدير بأن يمنحه أفضل مايعرف ، وذلك من إقام الصلاة والاتيان بها مستوفية الشروط والأركان ، فى أوقاتها المعينة لها ، من غير إبداء ملل ولاضجر ، ولا تقاعد ولا تكاسل ، مع تمثيل عظمة الله تعالى فى قلبه ، ومراقبته

جل شأنه فى كل قول وفعل منها حتى يلازم الأدب قلبه ، وتتبعه فى ذلك سائر جوارحه ، فانه إن أتى بها كذلك نهته عن فعل الفحشاء والمنكر وذلك غاية الأدب ، ونهاية مكارم الأخلاق . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من لقمان عليه السلام لابنه — من باب تذليل النفس وتهذيبها ، وإقبالها على الطاعات ونبذها للمنكرات بلطف . وهذا شأن المعلم الحكيم : فان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تستنكف نفسه وتكره أن يراه الناس حيث نهاهم ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا ما يكون سببا فى عدم سماع كلامه وبلوغ مرامه ، فيفعل المليح ويجتنب القبيح إلى ما يترتب على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من إرشاد الخلق إلى ما فيه صلاح حالهم ، واستقامة أحوالهم ، وانتظام شئونهم ، وتقويم ما اعوج من أخلاقهم .

ولما علم لقمان عليه السلام بما أتاح الله له من الحكمة أن الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر لابد أن يقابل من المأمورين والمنهيين من الناس بأذى كثير ، لأنه إنما يأمر بمفارقة ما عليه أهواؤهم ، وألفته نفوسهم وتعلقت به رغائبهم ومفارقة ذلك أصعب شىء على النفس ، لما علم لقمان ذلك أمر ابنه بالصبر على أذاهم وتحمل الآلام والمشقات التى تحصل له فى أثناء ذلك ، وبين له أن الصبر عليه من عزم الأمور فقال له : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

ولما كان الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر يجب أن يكون متصفا بأحسن صفات الكمال من الأدب والتواضع والحلم وعدم التكبر على الخلق ، وعدم احتقارهم والاستخفاف بهم ، حتى يكون ذلك سببا فى قبول أمره ونهيه أمر لقمان عليه السلام ابنه بما يجمع هذه الخصال فقال : « ولا تصعر خدك للناس » أى لاتعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً لهم ، واستكبارا عليهم ، بل ألن جانبك لهم ، وتواضع لصغيرهم وكبيرهم ، وأقبل عليهم بوجهك بحسن بشاشة معهم ، والطف معاملتك لهم ، [illegible]

لك أمرا فيتبعونه أو نهياً فيجتنبونه وبعد أن بين له عليه السلام كيف يصانع الناس ويعاملهم ويعاشرهم أخذ يبين ما يجب أن يكون هو عليه فى نفسه من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة فقال : « ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » أى إذا مشيت فى الأرض فلا يكن مشيك خيلاء فان الله يبغض من هذه حالته ، وإذ مشيت فليكن مشيك لا بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، فان كلا الأمرين مذموم ، لأن الأول مع ما فيه من التكبر وفتور الهمة . وضعف العزيمة . فيه ضياع الفرص كثيرة . والثانى مع ما فيه من أمارات الطيش والخفة وعـــدم الثبات ، فيه تحميل الأعضاء فوق طاقتها وإضعافها بعمل جهود لا تتحملها قواها العضلية ، فيهدم بذلك أساس قوته ، ويجر الفساد على بنيته ، وإذا تكلمت فاخفض صوتك ، ولا ترفعه زيادة عن الحاجة . فان الجهر بأكثر من الحاجة ما يضر بالسامع ويؤذيه ، ولأن صوته بذلك يكون منكرا يشبه صوت الحمير الذى هو أقبح الأصوات وأقبحها وأنكرها كما قال جل شأنه : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

الثالثة : قبح السخرية بالناس ولمزهم والتنابز بالألقاب وسوء الظن : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) ان هذه الآية الكريمة أرشدتنا [illegible] إلى [illegible] الصفات الحسنة

والأخلاق الكريمة: وهى ألا يسخر أحد من أحد ويستخف به ويستحقره، وألا يعيب أحد على أحد بشىء يكرهه، وألا يسىء ظنه بأحد من إخوانه، وألا يبحث ويفتش عن عورات الناس ومعايبهم، ويستكشف عما ستروه، وألا يذكر أحد أخاه بما يكرهه فى غيبته فان ذلك كله مما نهى الله عنه، ورغب فى التباعد منه، فنهى عن السخرية بالناس والاستخفاف بهم بقوله: (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) أى لا يصح أن يستهزىء أحد من أحد ولا يستخف به ويحقره سواء أكان من الرجال أم النساء، لأنه ربما كان المسخور به عند الله خيرا من الساخر، فلا ينبغى أن يجترىء أحد على السخرية بغيره والاستخفاف به بمجرد أنه رآه رث الهيئة، أو فقيراً أو ذا عاهة فى بدنه أو غير لبيق فى محادثته، أو غير ذلك فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى. والسخرية إنما تحرم إذا كانت فى حق من يتأذى بها أما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح بالسخرية به كما يفعله السفلة من الناس، فان السخرية فى حقه من جملة المزح وليس بمحرم فى حقه وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون: وذلك تارة يكون بالضحك من كلامه إذا تخبط به ولم ينتظم، أو من أفعاله إذا كانت غير منتظمة، كالضحك من صنعته أو صورته وخلقته، إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب. فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها، وقد تكون السخرية بالمحاكاة فى الفعل والقول وقد تكون بالاشارة والإيماء.

ونهى عن أن يعيب أحد غيره بقوله (ولا تلمزوا أنفسكم) أى لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة، لأن الناس كنفس واحدة فمتى عاب الإنسان أخاه فكأنما عاب نفسه، وهذا أدب كبير أدب الله به عباده ليكون سببا فى ألفتهم واتحادهم، وارتباط قلوبهم بعظيم المودة ووثيق المحبة.

ونهى عن أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه، لأن ذلك يزرع فى القلب

الضغينة ، ويمكن فيها الحفيظة ، وهو مما جاء الشرع الشريف بزواله ، ولذا سمى جل شأنه التنابز بالألقاب الذى هو داعية الحقد والبغض فسقا فى قوله : (بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ ومَنْ لَمْ يَتُبْ فأولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُون) ونهى عن كثير من سوء الظن بأحد من الناس بقوله: (يَا أيُّهَا الذينَ آمَنوا اجْتَنِبوا كَثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثْمٌ) أى يا أيها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير من الظن وهو مجرد التهمة التى لا سبب لها ، ولا دليل عليها كأن تتهم غيرك بشىء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا . فليجتنب الكثير منه احتياطا . ويشترط فى حرمة هذا أن يكون المظنون به ممن شوهد منهم التستر ، والصلاح ، والأمانة ، أما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث والمنكرات : كالدخول والخروج فى حانات الخمور وصحبة الغوانى الفاجرات ، فلا يحرم سوء الظن به فى نحو ما يظهر منه فقط.

الرابعة: أنكر عليه البحث عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله (ولا تجسسوا) أى لا تبحثوا عن عورات الناس ولا تستكشفوا عما ستروه . فان ذلك فضيحة لهم وتعرضا لما لا يعنى ولا يفيد ، وهب أن ذلك الباحث اطلع على جميع عورات أخيه ومعايبه ، فأى فائدة تعود عليه من ذلك سوى أنه كالذباب لا يتتبع إلا القاذورات والمواضع الفاسدة من الجسد وغيره ؟.

ونهى عن أن يذكر أحد أخاه بما يكره فى غيبته بقوله: (ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكم أن يأكُلَ لَحْمَ أخيهِ مَيْتاً فكَرِهْتُمُوهُ) أى لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره فى غيبته سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل . ومنه الإشارة والكتابة وغيرهما مما يفهم نقصانه ، فان علة النهى عن الغيبة الايذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب وهو موجود حيث أفهم الغير ما يكرهه المغتاب بأى وجه كان من طرق الافهام ، وسواء أكان ذكر ذلك الشىء الذى يكرهه بنقص فى بدنه أو نسبه ، أو خلقه أو فى فعله . أو فى قوله ، أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه ، وداره ، وماله ، وولده ، وزوجته ، وخادمه ، وغير ذلك

من كل ما يتعلق به . فذلك كله مما كرهه الله تعالى وحرمه ونهى عنه، حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتاً، ذلك الأمر المستبشع طبعاً وعقلا وشرعاً.

ومحل حرمة الغيبة إذا لم يكن المغتاب مجاهرا بالمعاصى متهتكا لا يبالى بما يفعل ، فان الغيبة فى مثله جائزة ، وذلك لأن الذى يعلن بالفجور والفسوق ولا يستحي من عصيان الخالق ، ولا يستتر عن المخلوق فيما يأتى من الكبائر ويظهر من المناكر ـ قد كشف ستاره . وأبدى عواره ، فخرج من حد الظن إلى حد اليقين ، فمثل هذا ليس مقصودا من النهى فى الحديث « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » .

الخامسة : بين له أن أحق المنكرات بالترك الجهر بالقول السيء فقال جلت حكمته : (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً) .

فنهى عن البذاءة باللسان والجهر بالسوء من القول . سواء أكان ذلك القول السيء شتما أم سبا ، أم لعناً أم مراء ، أم خصومة ، أم ذما فى حق الغير أم غير ذلك مما يدل على حقارة قدر صاحبه ، ودناءة نفسه وقلة حيائه ، وسوء تربيته . وعدم قدرته على أن يكبح زمام نفسه عما تسوله له من القبائح والمنكرات . وتهيجه له القوة الغضبية التى منشؤها الزهو والعجب والكبر والمزاح والهزل والمماراة والمضادة والغدر ، وغيرها من الأخلاق الرديئة المذمومة شرعا وعقلا .

ولما كان الجهر بالسيء من القول بهذه المكانة من القبح عبر الله جل شأنه عن النهى عنه بما يفيد شدة قبحه وزيادة نكره وبشاعة أمره فقال : «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ولم يقل لا تجهروا بالسوء من القول أى وإذا كان غير محبوب لله جل وعز . وغير مرضى له ـ فهو أولى الأشياء المنكرة بالاجتناب ، وأحقها بالترك والابتعاد . ثم استثنى جل شأنه من عدم محبته الجهر بالسوء من القول ، وبغضه وكراهته له جهر من ظلم بأن يدعو على

ظلمه ، أو يتظلم منه ، أو يذكره بما فيه من السوء فإن ذلك غير مبغض عند الله تعالى ، وذلك لأنه إنما يستغيث ليغاث ويستجير ليُجد ، ويذكره بسوء لعله يرد عليه ظلامته ، ولأن المظلوم مصدور ، وهو لا بد أن ينفث ، وهذا ما لا بد منه من طريق الفطرة ، فرخص له الشارع ذلك ، وفي ذلك دلالة على قبح الظلم والظالم ، وعدم نظر الله له ، وعدم اعتبار حرمته ، واحتقاره له جل شأنه حتى لم ينه عن مذمته بظلمه ، وعن الجهر بالسوء من القول في حقه .

السادسة : حظر عليه تتبع ما ليس له به علم : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فلا يقول رأيت ، والحال أنه لم ير ، ولا سمعت وهو لم يسمع ، ولا علمت دون أن يعلم وهكذا ، لأن الله سبحانه وتعالى سائله عن ذلك كله من أين جاءه العلم بما رآه وسمعه وعلمه ، فإنه جل شأنه خلق الأعضاء للإنسان وجعل لكل عضو منها وظيفة قائما بها ، وعملا خاصا به ، يسأل عنه دون غيره : فيسأل السمع عما سمعه ، والبصر عما رآه ، والقلب عما علمه ، فإن كان الجواب طبق ما ناط الله هذه الأعضاء به ، وخلقها لأجله وكلفها إياه من الأعمال أثاب صاحبه ، إذ استعملها فيما خلقت له . وإن كان الجواب غير مطابق ـ عاقب صاحبها ، جزاء تقصيره ، وعدم استعماله هذه الأعضاء فيما خلقت لأجله ، ومعنى سؤال هذه الأعضاء ومجاوبتها أن الله سبحانه ينطقها عند ذلك وإنها تخبر عما فعلت وفعله صاحبها ، وهذا الذي أشار الله تعالى له بقوله (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) .

السابعة : نهاه عن التجبر والتبختر والتمايل في المشية ، فإن ذلك يبغضه الله ورسوله ، لأنه نتيجة إعجاب المرء بنفسه وهو أخبث سرائر القلوب ، وأعظم كبائر الذنوب ، ودليل على جهل المرء بمقدار نفسه ، وكونه عن عيبها إذ رأى قبيحه حسناً ، وخطأه صواباً ، فأوجب لنفسه حقا لم تستوجبه ، ورأى لها

فضلا لم تستأهله ، ولو أنه تبصر فى عيوب نفسه قليلا ، وتأمل ماهو عليه من المثالب والمعايب - لاستنكف مما عليه نفسه : من الزهو والعجب الذى حملها على هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله ، كما قال مطرف بن عبد الله للمهلب بن أبى صفرة عند مانظر إليه وعليه حلة يسحبها ويمشى الخيلاء : يا أبا عبد الله ، ماهذه المشية التى يبغضها الله ورسوله !! فقال له المهلب أما تعرفنى ؟ قال: (أعرفك ! أولك نطفة مذرة[1] وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة) فعلام الانسان يتكبر وقد عرف مبدأه ومنتهاه؟

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه صعد المنبر وحمد الله وأثنى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أيها الناس ، قد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم يقبضن لى القبضة من التمـــر والزبيب . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « والله يا أمير المؤمنين مازدت على أن قصرت بنفسك ، فقال له : « ويحك يابن عوف خلوت بنفسى فحدثتنى فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك ؟ فأردت أن أعرفها قدرها » .

فمثل هؤلاء هم الذين جل خطرهم . وعظم قدرهم فى الدنيا ومع ذلك لم يجعلوا لأنفسهم حظاً فى الاستعظام والاعجاب ، فلذا يقول الله تعالى توبيخاً المعجب بنفسه المتبختر فى مشيته :(إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً) أى لن تثقب الأرض حتى تبلغ آخرها بمشيتك متكبرا ، ولن تبلغ الجبال طولا بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، وفى ذلك من التهكم والتحقير للمختال مالا يخفى ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما أخبر جل شأنه عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، ثم بين جل شأنه أن هذا الذى ذكر من الاعجاب والتبختر فى المشى، وتتبع الانسان ماليس له به علم وغيره مما تقدم ذكره ونهى الله عنه — هو قبيح مكروه عند الله تعالى يجب اجتنابه والتباعد عنه بقوله: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) .

---

(١) فاسدة .

الذريعة الخامسة

تشتمله على بر الوالدين والعطف على القريب

إن أبا الانسان وأمه لهما عليه حقوق لا بد من أدائها ، وواجبات لا بد من قضائها : فن تلك الحقوق وتلك الواجبات مقابلتهما بكل ما يمكنه من البر والاحسان ، وأن يمتثل أوامرهما عامة ، وبخاصة ما تعود عليه بالمنفعة: كأوامرهما المتعلقة بحسن السلوك ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاشرة مع الخلق ، والنظافة ، والعفة والأمانة ، وغير ذلك من الكمالات وحميد الأخلاق ، وجميل الصفات ، وأن يجتنب نواهيهما وكل ما يؤذيهما ، أو يكدر خاطرهما أو يجلب غضبهما من قول أو فعل ، فان أجهد نفسه فى فعل كل ما يرضيهما كان له الحظ الأوفر من الفضيلة ، والنصيب الأكبر من المروءة ، وإن لم يفعل ذلك واستجلب غضبهما فقد قابل الحسنة بالسيئة ، والاحسان بالكفران ، والخير بالشر ، والطاعة بالمعصية ، فان أباه هو الذى رباه صغيراً ، وأجهد نفسه فى تحصيل ما ينفقه عليه فى ملبسه ومأكله ومشربه وجميع مطالبه ، والقيام بأوده ، إلى أن عرف حقوق نفسه ، وأمكنه أن يكتسب ، ولولاه لمات جوعا ، لأنه لا يقدر على شىء من ذلك فى حال صغره ، وأما أمه فقد عانت فيه المشقات العظيمة والآلام الكثيرة فى مدة حمله وولادته ورضاعه وتنقيته من الأدران ، وسهرت لأجله الليالى الطوال ، وتكدرت لكدره ، وفرحت لفرحه ، إلى غير ذلك من ضروب العنت التى لا تحصى ، والمشقات التى لا تستقصى .

ومنها أن ينفق عليهما إذا كبرا ، لأنهما كفلاه صغيرا إلى أن استطاع أن يكتسب ، فهذا الكسب ثمرة غرسهما ، وليس من الأدب والمروءة أن يغرس الانسان غرساً ثم يحرم جنى غرسه .

ومنها أن يجالسهما بالأدب والوقار فلا يضحك ولا يلعب ، كما يضحك ويلعب السفهاء ، وليكن ضحكه ولعبه على وضع لا يخل بالأدب ، ولا يرفع

صوته فوق صوتهما ، ولا بحضرتهما ولا يمشى أمامهما إلا لحاجة ، ولا يسبقهما بالكلام فى المجلس . وإذا أقبلا عليه أو أحدهما وهو فى مجلس قام ليوسع لهما حتى يجلسا إن كان فى المكان ضيق . وجملة القول يفعل جميع الوسائل التى تكون سبباً فى مرضاتهما وزوال مايكدرهما ، وإلى هذه الآيات السامية أشار الله جلت حكمته فى كتابه العزيز إذ يقول :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)، فأرشد إلى أهم الأمور ، وأولاها بالعناية ، وأجدرها بالرعاية ، وأقربها لرضا الله تعالى ، وأبعدها من سخطه ومقته : ألا وهو بر الوالدين الذى جمع من الخير أكمله ، ومن الاحسان أجله ، ومن المروءة أرفعها ، ومن الخيرات أنفعها ، وكفى به فضلا وشرفاً أن قرنه الله بتوحيده وعبادته ، وبالغ بالتوصية به مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق ، وتحمل ذوى العقول على تأدية الواجب لهما من الحقوق ، فأمر جل شأنه بالاحسان اليهما وقرنه بتوحيده وعبادته فى قوله : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) . أى أمر أمراً جازماً ، وحكم حكماً قاطعاً بتوحيده وعبادته وبر الوالدين والاحسان بهما . وفى هذا الاقتران من الدلالة على تأكد حقهما والعناية بشأنهما مالا يخفى . ثم شدد فى الأمر بمراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها ، فاذا حصل منهما أى شىء يكرهه فلا يصح له أن يتكلم معهما بأى كلام يكون من ورائه تضررهما وتكدر خاطرهما ، بل الواجب عليه فى هذه الحالة أن يقول لهما قولا لينا جميلا سهلا أحسن ما يمكن التعبير به : من لطف القول وكرامته ، مع حسن التأدب والحياء والاحتشام وبخاصة إذا كانا كبيرين ، فانهما فى هذه الحالة أحق بالمجاملة وحسن التلطف

لأنهما يظنان أنهما كل عليه ، فكل كلمة تصدر منه ولو صغيرة يجدان منها ألما ولذا خص الله سبحانه وتعالى حالة الكبر بالذكر فى قوله (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) أى إن كبرا وهما فى كنفك وكفالتك فلا يصح أن تقول لهما أىَّ قول يكدر خاطرهما ويجلب غضبهما ، حتى التأفف الذى هو أدنى مراتب القول السىء ، بل الواجب أن تعاملهما بالحسنى وتقول لهما القول اللين الطيب الحسن ، مع الأدب والتوقير والتعظيم والاحترام والاحتشام ، وأن تخفض لهما جناح الذل ، وتتواضع ، وتتذلل لهما بجميع أنواع التذلل والمسكنة ، لأنهما صارا أفقر الناس إليك بعد أن كنت أفقر الناس إليهما ، واحتياجُ المرء إلى من كان محتاجا إليه غايةُ الضراعة والذل والمسكنة ، فكانا لذلك أولى بشدة الرحمة والشفقة وزيادة التعطف عليهما . ثم ختم جل شأنه التوصية بهما ، والحثَّ على برهما ، والاحسان بهما بطلب الدعاء لهما من الله أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة ، فقال (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) كأنه تعالى يقول لا تكتف برحمتك التى لا تدوم ، ولكن اطلب من الله الرحمة الدائمة ، وقل رب ارحمهما رحمة مثل رحمتهما وتربيتهما إياى وأنا صغير .

ثم إن بر الوالدين لا ينتهى بموتهما ، بل يجب بعد الموت كما يجب فى الحياة ويكون بالصلاة عليهما والاستغفار لهما . وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما : فمن ذلك أن رجلا جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يارسول الله : هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهما ، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذ عهدهما وإكرامُ صديقهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما . ولئن تأكد بر الوالدين فهو فى حق الأم أوكد لأنها تعبت فى حمله وولادته وحضانته وغيرها أكثر من أبيه ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بر

الوالدة على الولد ضعفان ، ويقول : « دعوة الوالدة أسرع إجابة . قيل يارسول الله ، ولم ذاك ؟ قال : هي أرحم من الأب ، ودعوة الرحم لا تسقط » وقال تبارك اسمه في الحث على بر الوالدين وما أعده مثوبة لذلك ، من قبول العمل الصالح ، والتجاوز عن السيئات ودخال الجنة (ووَصَّيْنَا الإنسانَ بِوالِدَيْهِ إحساناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ووَضَعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثلاثونَ شَهْراً حتى إذا بلغَ أَشُدَّهُ وبلغَ أربعينَ سَنَةً قالَ ربِّ أَوْزِعْنِي أنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عليَّ وعلى والِدَيَّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ وأصلحْ لي في ذُرِّيَّتِي إني تُبْتُ إليكَ وإني منَ المُسْلِمينَ . أولئكَ الذينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ونَتَجَاوَزُ عنْ سيِّئاتِهِمْ في أصحابِ الجنةِ وعْدَ الصِّدْقِ الذي كانُوا يُوعَدُونَ) فأرشد إلى بيان ما يجب على الإنسان من بر الوالدين والاحسان اليهما والحنو عليهما وخصوصاً أمه ، لأنها تعبت فيه ، وكابدت من المشقات والمتاعب في حمله ووضعه ورضاعه مالم يشاركها الأب في شيء منه ، ولذلك كان حقها أوكد من حقه ، وبرها أوجب من بره وإلى ذلك أشار بقوله تعالى: (ووَصَّيْنَا الإنسانَ بِوالِدَيْهِ إحساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ووَضَعَتْهُ كُرْهاً وحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثلاثونَ شَهْراً) فانه جل شأنه بعد أن وصى بالوالدين وأمر بالاحسان إليهما والحنو عليهما ، ذكر ماتلاقيه الأم من التعب والمشقات ، وقاسته من الأوصاب والآلام في حال حمله من الثقل والكرب ثم أردف ذلك ببيان ما تقاسيه الأم من الآلام من حين الوضع إلى الفطام من تعهده بالنظافة وإزالة ماعليه من الأدران ، وكدرها لكدره ، وفرحها لفرحه ، وسهرها عليه الليالي الطوال ، وغير ذلك مما يفيد أن حق الأم آكد من حق الأب واضعا ذلك في قالب بيان مدة الحمل والرضاع فقال : (وحملُهُ وفصاله ثلاثونَ شهراً) أي إن كانت هذه المدة الطويلة ظرفاً لما تقاسيه الأم من الآلام ، وتلاقيه من المشقات والمتاعب في الولد ـ لحقها عليه في بره لها

آكد من حق أبيه في ذلك عليه . وقال جل ثناؤه في الحث على بر الوالدين والإحسان إليهما والحنو والشفقة عليهما ، قارنا ذلك بتوحيده وعبادته مما يدل على تأكد حقهما : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) .

فمن صنوف البر وأنواع الخير وحسن المعاملة مع الله والناس مما يعمله ويتخلق به لكثير من أسباب السعادة ، وأنبل النبلاء : فمن ذلك توحيد الله تعالى وحسن عبادته وبر الوالدين بالإحسان إليهما والحنو عليهما ، وصلة الرحم بتعهد المساعدة لهم إن كانوا فقراء ، والتودد إليهم بالزيارة والهدايا ، والطيب من القول إن كانوا أغنياء ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين بالنظر في مصالحهم والقيام بأودهم وكل ما يحتاجون إليه . ومن ذلك حسن الجوار سواء أكان الجار ملاصقا أم غير ملاصق ، وبخاصة إذا انضم إلى الجوار القرابة ، وحسنه بالتصدق على الجار إن كان محتاجا ، والتودد إليه بالزيارة والمبادرة برد السلام والمساعدة له في كل ما يحتاج إليه فلا يمنع عنه ماعون البيت وأدواته إذا احتاج إلى شيء منه . وكذلك حسن الصحبة وهو المراد بقوله تعالى : (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ) وهو من كانت صحبته بسبب مرافقته بالجنب في طلب علم ، أو تعلم صناعة ، أو مباشرة تجارة ، أو مرافقة في سفر ، أو قعوده بجنبه في مسجد أو مجلس ، أو غير ذلك . وحسن الصحبة معه أن يكون له في النوائب ، ويؤثره بالرغائب وينشر حسنته ، ويطوي سيئته ، ويكتم سره ، ويستر عيبه ، وإذا سأله أعطاه وإذا سكت وكان محتاجا ابتدأه ، وإن نزلت به نازلة واساه ومواساة ابن السبيل وهو المسافر تكون بسد عوزه ، وإعانته بما يوصله إلى محل أوبه ، والشفقة والرحمة بالأرقاء والعبيد والإحسان إليهم ، لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس ، ويكون ذلك بتربيته وتعليمه ، وعدم تكليفه

من العمل ما لا يطيق ، وأن يكسوه سيده ويطعمه مما يلبس ويأكل ، حتى إذا آنس فيه النباهة والمرونة والقدرة على أن يملك زمام نفسه ، ويعرف أن يتصرف في معيشته باستقلاله ـ أعتقه ، فإن ذلك هو المقصود من الاسترقاق وليس المقصود منه الاستعباد المطلق ـ لأن العبد أخو سيده ويتمتع بسائر الحقوق البشرية والمميزات الإنسانية ، بل المقصد الأسمى منه أن العبد إذا وجد عند سيده كان ذلك داعية لتعلمه ، واكتسابه من أخلاق سيده وحسن آدابه ، وكمال معرفته ـ ما يؤهله لأن يعرف أحوال نفسه ، ويمكنه أن يقوم بجميع مصالحه ، حتى إذا وصل إلى هذه الحالة أعتقه ، وقد جعل الشارع لذلك أسبابا كثيرة : منها الكفارات وغيرها ، وما أحسن ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الأرقاء والخدم فإنه صلى الله عليه وسلم جعل يوصي أمته في مرض موته ويقول : «الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم» ، وجعل يرددها حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وقال صلى الله عليه وسلم : «للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق» وقال صلى الله عليه وسلم : «إذا صنع لأحدكم خادمه طعاما فليقعده معه ، فإن كان مشفوها (1) فليضع في يده منه أكلة» .

صلة الرحم : رحم الإنسان أقاربه وصلتهم أن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف ، ويقضي عنهم دينا ، ويفرج عنهم غما ، ويقوم بما يحتاجون إليه ، ويتودد إليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول ، والبشاشة عند اللقاء ، والمبادرة بالسلام ، ورد تحيتهم ، والمحافظة على فعل كل ما يجلب محبتهم إليه وهي من أفضل الخصال وأجل الخلال ، فيها يكثر التواصل والتوادد ، وتتصل العوائل ، ويزول التباغض والتحاسد وتستمال القلوب ، وتصفو الضمائر ، وتحسن السرائر ، ولهذا حث الشرع عليها وبالغ في التمسك بها ، حتى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم سببا في إدرار الرزق وسعته وفسحة العمر وزيادته ، فقال عليه الصلاة والسلام : «إن أعجل الطاعة ثوابا

(1) مشفوها : كثرت عليه الأيدي .

صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فجارا فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم، وقال عليه الصلاة والسلام: «من سره أن يمد له فى عمره ويوسع له فى رزقه - فليتق الله وليصل رحمه» ، وسأل معاوية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عن المروءة فقال : «هى تقوى الله وصلة الرحم» ، وقال رجل لابنه فى بعض وصاياه : «يابنى، لاتقطع القريب ، وإن أساء . فإن المرء لا يأكل لحمه وإن جاع» ، ولعل حكمة حث الشارع عليها ، والتشديد فى أمرها، والترغيب فيها . والتحذير من قطعها ، ومجانبة ذلك جهد الاستطاعة - أن أقارب الرجل هم أكثر الناس بعد أبويه له تناصرا ، وأكثرهم رغبة فى الخير له ، وأشدهم شفقة عليه وأعظمهم محبة له ، بهم يعلو بين الأنام قدره ، ويعظم فخره . ويرتفع ذكره ، وهم أكثر الناس به اختلاطا ، فاذا قطعهم تنغص عيشه ، وكثر شره . وقل خيره ، ولأنهم أبعاض أبويه ، ومنهما نشئوا أو اختلطوا معهما فى نسب ، فكل هذه حقوق تحتم على الشخص أن يصلهم بقدر جهده واستطاعته ، وقد حث جل شأنه على صلة الرحم ورغب فيها وحذر من قطعها ، وأعد الجنة لمن وصلها ، والنار لمن قطعها فقال :

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) .

فبين ما أعده من الخير العميم والثواب الجزيل لمن اتصفوا بهذه الصفات الحميدة ، وتخلقوا بهذه الأخلاق الجميلة ، من الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق وصلة الرحم التى أمر الله بها أن توصل مع مراقبة جانب الله تعالى ، والخشية من عقابه على قطعها ، والخوف من سوء الحساب فى السؤال عنها ، والصبر عند حلول النوائب ، وإقام الصلاة على وجهها المطلوب شرعاً : من الخضوع والخشوع والانكسار ، والنفقة والتصدق على الفقراء والمساكين فى السر والجهر ، فان هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات قد أعد الله لهم من الجزاء الأوفى ، ما بينه بقوله : (أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ

يدخلونها ، وقال تبارك اسمه فى الحث على صلة الرحم ، وبيان أن ذوى القرابات فى إيصال بعضهم الخير إلى بعض أولى من غيرهم ممن ليس بينهم وبينهم قرابة : (وأولوا الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ فى كتاب الله) . فبين أن الأقرباء أولى من غيرهم بالصلة والمودة . فما أبعد نظر الشريعة الغراء وأعلمها بالمصلحة للعباد ، وقال تبارك اسمه فى الحث على صلة الرحم وبرها ، والنهى عن حرمانها وقطعها :

(يأيها النَّاس اتَّقُوا ربَّكُمُ الذى خلقكُمْ مِنْ نفْسٍ واحدةٍ وخلق منها زوْجها وبثَّ منهما رِجالا كثيراً ونساء واتَّقوا الله الذى تساءلون به والأرحامَ إنَّ الله كانَ عليكُمْ رقيباً) ، فبين أمرين :

الأول — ما أرشـد اليه خلقه من الأمر بتقواه وهى عبادته وحده لا شريك له .

الثانى — الحث على صلة الرحم وبرها وعدم قطعها وهو الذى أفاده بقوله : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) أى واتقوا الله الذى يسأل بعضكم بعضا به وتقواه بطاعتكم إياه ، واتقوا قطع مودة الأرحام . فان قطعها من أكبر الكبائر ، وصلتها باب لكل خير تزيد فى العمر وتبارك فى الرزق ، ولذا وصل جل شأنه صلة الرحم بتقواه .

وما أحسن ما ذكر الله من دواعى الحنو والعطف والشفقة والرحمة بالأقارب واستمالة القلوب اليهم ، حتى يصلوهم ولا يقطعوهم ، إذ ذكر جل شأنه أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحـدة ، فان فى ذلك من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة حقوق الأخوة ما لا يخفى . وقوله : (إنَّ الله كان عليكُمْ رقيباً) أى مطلعاً وعليما فيعلم من امتثل أمره بتقواه وصلة الرحم ، ومن لم يمتثل فيجازى كلا بما يستحق والله أعلم .

الذريعة السادسة

غرس الاجلال والاعظام للنبى صلى الله عليه وسلم فى قلوب الناس.

النبى صلى الله عليه وسلم أعظم من يجب احترامه وتبجيله وتوقيره ، لأنه صلى الله عليه وسلم السبب فى هداية الخلق إلى فلاحهم فى دنياهم ، ورفعهم من حضيض الشقاوة إلى أوج السعادة ، وإخراجهم من ظلمة الجهل والجحود إلى نور العلم والايمان ، مع مقاساة المشقات والمتاعب فى ذلك ، وليس من العدل والمروءة أن يقابل صلى الله عليه وسلم بغير كمال التبجيل وتمام الاحترام والتعظيم والأدب معه فى حياته ومماته . ولما كان علو مقامه صلى الله عليه وسلم وجليل مقداره بالمكانة التى قلما يمكن أحداً أن يقوم بما يجب لها من الآداب دون إرشاد وتعليم — سن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين من الآداب ما به يعرفون كيف يسلكون مسلك تعظيمه فى ترك فعل ما يكرهه بين يديه ، أو الاستعلاء عليه فى كلام أو مشى ، أو دخول بيته بغير إذنه ، أو فى لزوم طاعته ومتابعته ، والنزول عند حكمه ، والرضا بقضائه ، أو غير ذلك . ولتبجيله وتوقيره مظهران :

الأول — أفاده الله تعالى بقوله : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) فبين صنوف الآداب التى أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيه صلى الله عليه وسلم من الإجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم سواء أكانت هذه الآداب فعلية أم قولية ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وفيها نهى صريح عن الاسراع فى شيء من الأشياء قبله ، وأمر ضمنى بمتابعة سنته ، والوقوف عند شريعته وأمر بالتقوى ومراقبة جانب الله تعالى فى كل شيء . لأنه سبحانه سميع لأقوالنا ، عليم بنياتنا ، لاتخفى عليه من ذلك خافية فقال : (واتقوا الله إن الله سميع عليم) ومن كان كذلك فمن حقه أن يتقى ويراقب .

ثم قال : (يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) ففيها حظر ظاهر لرفع الأصوات عند محادثته صلى الله عليه وسلم ومكالمته ، إلى حد يكون فوق مايبلغه صوته صلى الله عليه وسلم ، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام له صلى الله عليه وسلم ، لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير عادة ، ونهى عن الجهر بالقول كما يجهر الواحد لأخيه إذا كلمه ، لأن ذلك إنما يكون بين الأكفاء الذين ليس لبعضهم على بعض مزية ، مع مافيه من الجفاء فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم، وعدم الأدب معه، ثم حذر سبحانه المغبة بقوله : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده والجهر له بالقول كما يجهر أحدكم لأخيه إذا كلمه خشية أن تبطل أعمالكم بذلك دون أن تفطنوا ، لأن سبق رسول الله فى قوله أو فعله ، ورفع الصوت فى حضرته ومحادثته بالجهر كمحادثة الأكفاء — كل ذلك تجاوز لحدود الأدب فى مقام يتعين فيه الاجلال والتعظيم . ومن أجل ذلك أقسم أبو بكر رضى الله عنه ألا يكلم النبي صلى الله عليه وسلم إلا السرار أو أخا السرار . وقد بر رضى الله عنه بيمينه حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يستعيده . ثم أفى على ذلك ببيان مزايا من عمل بهذه الآداب ، فقال : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله

قلوبَهُمْ للتَّقوى لهمْ مَغْفِرَةٌ وأجرٌ عظيمٌ) أى ان الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله اجلالا وتعظيما ، أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى وجعلها لها أهلا ومحلا وكان جزاؤهم على ذلك مغفرة وأجرا عظيما .

وقال جل شأنه في الأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم في المجتمعات العامة: (إنما المؤمنونَ الذينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ وإذا كانوا معَهُ على أمرٍ جامعٍ لمْ يذهبوا حتى يستأذنوهُ إنَّ الذينَ يستأذنونكَ أولئكَ الذينَ يؤمنونَ باللهِ ورسولِهِ فإذا استأذنوكَ لبعضِ شأنِهم فأذنْ لمنْ شئتَ منهم واستغفرْ لهمُ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ) .

فبين الآداب نحو الرسول عليه الصلاة والسلام في حال ما إذا كانوا مجتمعين معه على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه : كالجمعة والجماعة والعيد والجهاد والتشاور في أمر ، وغير ذلك من الأمور الداعية إلى الاجتماع ، وذلك بأنهم لا يتفرقون عنه صلى الله عليه وسلم ولا ينصرفون عما اجتمعوا له لعروض عذر لهم حتى يستأذنوه في الذهاب فيأذن لهم به ، فان هم خالفوا ذلك وتسللوا من عنده خفية واحدا بعد واحد ، كان ذلك علامة على نفاقهم ، وعدم ثبات ايمانهم لأن الخروج من مجلسه صلى الله عليه وسلم بغير اذنه من أمارات عدم الاكتراث به ، وعدم رغبتهم فيما جاء به واجتمعوا لأجله ، وذلك من أعظم الجنايات وأكبرها ، ولذا جعل الله جل شأنه استئذانه صلى الله عليه وسلم عند إرادة الانصراف من مجلسه من علامات كمال الايمان في قوله: (إنَّ الذينَ يستأذنونكَ أولئكَ الذينَ يؤمنونَ باللهِ ورسولِهِ) .

أى ومن لم يستأذن عند إرادة الانصراف فليس بمؤمن حقا ومن الآية الكريمة يؤخذ أدب المرءوس مع رئيسه ، وأدب المتعلم مع معلمه وأدب المصلين مع إمامهم ، وأدب الرعيــة مع راعيهم ، فان مراعاة الأدب معهم ، واعتبار حرمتهم من الواجبات . فأحرى بهم ألا يبرموا أمرا دونهم

ولا يخالفون خطة اتهم رسموها ولا يأمرونهم بأمر إلا بادروا بتنفيذه كما لا ينصرفون من مجلسهم إلا بعد استئذانهم .

وجملة القول يفعلون كل ما فيه تبجيلهم وتعظيمهم واحترامهم . ويتركون كل ما فيه تحقيرهم واهانتهم .

وبعد أن بين جل شأنه كيف يتأدبون معه صلى الله عليه وسلم عند إرادة الانصراف من مجلسه أمره عليه الصلاة والسلام أن يأخذهم باللين ، ويعاملهم بالرفق ، وبما يكون داعية الألفة والتواد ، فاذا استأذنه أحد منهم أن يخرج من المجلس لعروض عذر له أذن له ان شاء ومنعه إن شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التى يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا معنى قوله تعالى له صلى الله عليه وسلم : (فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى فاذا طلبوا منك الاذن فى أن يخرجوا من مجلس الاجتماع فأنت مخير بين أن تأذن لهم أو لا ، وفى هذا التفويض له صلى الله عليه وسلم من رفع شأنه ، وعلو منزلته عند الله تعالى — مالا يخفى . ولما كان الاستئذان وإن كان لعذر مسوغ لا يخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة وهو اغتنام مجلسه — أمره أن يستغفر لهم واعداً بالمغفرة بقوله : (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى كثير المغفرة لفرطات عباده والرحمة بالتيسير عليهم ، بالغ فيهما الغاية التى ليس وراءها غاية . وفى الآية الكريمة من المبالغة فى الحفاوة به ﷺ مالا يخفى ، إذ جعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه أمراً محتاجا للاستغفار ، فضلا عن الذهاب بدون إذن ، ورتب الاذن منه على الاستئذان لبعض شأنهم ، لا على الاستئذان مطلقا ، ولا على الاستئذان لأى أمر مهما كان أو غيرهم . ومع ذلك فقد علق الاذن على المشيئة وليس ذلك بالغريب فرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه مكانة دونها كل مكانة والله يختص برحمته من يشاء والله غفور رحيم .

المظهر الآخر – متابعته صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به عن ربه ، والنزول عند حكمه والرضا بقضائه . وقد أفادها الله تعالى بقوله : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) .

فبين ما يجب على عباده من الأدب وحسن المعاملة مع رسوله ﷺ فاذا حكم على أحدهم فليس له أن يختار من أمره شيئا بل يجب عليه أن يجعل رأيه تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام ، واختياره تبعا لاختياره ، حتى يكون بذلك مؤمناً حقيقة ، كما قال تبارك وتعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وذلك لأن من لم ينزل على حكمه صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض بقضائه فهو ضال : وذلك إما لكونه يرى أن هذا الحكم منه صلى الله عليه وسلم وقع فى غير محله ، فهو ظلم وجور فهو يمتنع عن قبوله ، وهذا نهاية الخسران والضلال . وإما لأنه يرى أن حكمه عليه السلام وقع فى محله ولكن لا يقبله عناداً وكبراً ، أو لأنه لا يوافق هواه ، وعلى كل فهو جحود وكفران ولذا شدد الله سبحانه على من لم يرض بحكمه صلى الله عليه وسلم . واختار غير ما اختاره بقوله : (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله فى أمر من الأمور مثل عدم الرضا بقضائه وحكمه صلى الله عليه وسلم – فقد ضل عن طريق الحق ضلالا ظاهراً واضحاً لا يخفى فان كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب ، فهو ضلال خطأ وفسق . وعلى كل حال فهو من الضلال . وقلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم بحال لا يصح لمؤمن ولا مؤمنة أن يتصف بها ويكون عليها .

وقال جل وعز فى حسن متابعة الرسول والتأسى به فى أقواله وأفعاله

وأحواله : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) .

فبين لزوم الأدب معه صلى الله عليه وسلم بوجوب متابعته والتأسى به فى أقواله وأفعاله إلا ما علم أنه من خصوصياته صلى الله عليه وسلم .

ولذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسى به صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب فى صبره ، ومصابرته ، ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه ، فقال للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) أى اقتداء به صلى الله عليه وسلم اقتداء حسنا ، وهو أن تنصروا دين الله ، وتؤازروا رسوله ، ولا تتخلفوا عن نصرته ، وتصبروا على ما يصيبكم ، كما فعل هو صلى الله عليه وسلم إذ كسرت رباعيته وجرح وشج وجهه وأوذى بضروب الأذى فصبر ، وواساكم مع ذلك بنفسه ، فافعلوا أنتم كذلك مثل فعله ، واستنوا بسنته .

ولما كانت متابعته صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء به فى مثل هذه الأمور العظام ، والمواطن الصعبة التى لا يتحمل عبئها إلا من تيقن ثواب الله ورحمته ورسخ إيمانه وكمل يقينه ، فلازم طاعته بكثرة ذكره ، قال الله تعالى (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) أى هذه الأسوة الحسنة للذين يرجون ثواب الله ولقائه ورحمته فى اليوم الآخر والذين يذكرون الله كثيراً . والآية وإن كان سببها خاصاً كما علمت — عامة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالتأسى به صلى الله عليه وسلم ومتابعته فى كل ما جاء به حسنة فى كل حال .

وقال تعالى فى وجوب متابعته فى كل ما أمر به ونهى عنه : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) فبين وجوب متابعته صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به ، بفعل كل ما أمر به ، وترك كل ما نهى عنه ، لقوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) أى أىُّ شىء أمركم به من الطاعات وفعل الخيرات فافعلوه وأى شىء نهاكم عنه من الخبائث والمنكرات فاجتنبوه لأنه لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ، على أنه إنما يأمر بأمر ربه وينهى بنهى ربه ، فعدم متابعته صلى الله عليه وسلم فى كل ماجاء به أو بعضه ـ مخالفة لأمر الله ونهيه، ولا يجرؤ على مخالفة الله ورسوله إلا فاقد الحياء . ولما أمر جل شأنه بالائتمار بأمره صلى الله عليه وسلم والانتهاء بنهيه أمر بتقواه ، وخوف من شدة عقوبته فقال : « واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ » أى اتقوه بامتثال أوامره وترك زواجره ، فانه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

وهذا قُلٌّ من كثر ونيض من غيض ، وحسبك من القلادة ما حف بالعنق .

الذريعة السابعة

طبع نفوس النشء على التأدب فى حق الله عز وجل وإلقاء خشيته فيها وهو نوعان :

أما الأول : فعلى مثال ماجاء فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ والذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) فتراه نسب الخلق والهداية والاطعام والسقيا اليه تعالى ، ونسب المرض إلى نفسه فى قوله : (وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) وكان مقتضى السياق أن يقول وإذا أمرضنى ، فنسب المرض إلى الله تعالى كما نسب اليه غيره من الأفعال مع اعتقاده بأن الكل منه ، وفى العدول عن ذلك من الأدب مالا يخفى .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن عند مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعهم من استراق السمع : (وأنَّا لا نَدْرِى أشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فى الأرضِ ، أمْ أرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) فتراهم عند إسناد الشر

بنوا الفعل للمجهول ولم يعينوا المريد له ، مع اعتقادهم بأن المريد له هو الله تعالى ، وعند إسناد الخير صرحوا بمريده ، فقالوا : (أمْ أرادَ بهمْ ربهُمْ رشداً) وهذا أدب عظيم . ومثل هذا النوع من الآداب كثير فى القرآن .

وأما الثانى : فامتثال المرء أوامره جل شأنه ، واجتنابه نواهيه ومراقبته فى كل عمل من أعماله ، بل وفى سائر حركاته وسكناته ، فان كان هذا العمل طاعة كانت المراقبة باستحضار ذاته العلية وتمثل عظمته تعالى بقلبه ، وانبعاث الخشية والخشوع من جميع جوارحه ، واطمئنان نفسه بالمثول بين يديه ، وملاحظة أنه يراه فى جميع حركاته وسكناته ، وهو معنى الاحسان الذى ذكره صلى الله عليه وسلم فى قوله : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » وإن كان هذا العمل معصية تذكر أن عليه رقيبا ، مهيمنا ، قريبا ، يعلم ما توسوس به نفسه ، ويخفيه صدره ويبصر دبيب النمل فى الليلة الظلماء ، فعند ذلك يخشع قلبه ، وتسكن جوارحه ويتملك الخوف فؤاده ، فيجتنب القبيح بعد العزم عليه ، ويحجم عن المنكر بعد الوصول اليه ، وبذلك تتم له السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

ويجمع المراقبة بقسميها كلمة « التقوى » وهى اتخاذ الوقاية من غضب الله تعالى بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه .

ومن ذلك يتبين أنها اسم جامع لجميع أنواع البر ، وكافل لصاحبه كل خير ومبعد عنه كل شر ، ولذا أكثر الله جل شأنه فى القرآن الكريم من الحث عليها . مبينا ما يترتب عليها من صلاح الدنيا ورفع الدرجات فى الآخرة .

فمن ذلك قول الله تعالى : (يأيُّها الّذين آمنوا اتقُوا الله ولتَنظُرْ نفسٌ ماقدّمتْ لغد واتّقُوا اللهَ إنّ الله خبيرٌ بماتعملون ، ولا تكُونوا كالذين نسُوا الله فأنساهُمْ أنفُسَهُم أولئكَ هُمُ الفاسِقُون) فالآية الكريمة ناطقة بثلاثة أمور :

الأول — الحث على التقوى وهي امتثال ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه .

الثاني — الحث على العمل الصالح ، ومحاسبة الانسان نفسه قبل أن يحاسب والنظر فيما ادخره من الأعمال الصالحة ليوم معاده وعرضه على ربه ، ومناقشته الحساب : فيطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده ، وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ، وعن سكونه لم سكن فاذا وجدها مع ذلك اقترفت ذنباً أو ارتكبت تقصيرا في حق الله تعالى وجب عليه أن يعاقبها ، وعقوبتها إما بمنعها عن مشتهياتها ، وإما بتوبيخها الشديد . أو باللوم عليها اللوم الصارم ، بأن يقول لها يا نفس ، أى شيء جرأك على معصية الله : إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أنه لا يراك فما أعظم كفرك ، وأشد جهلك !! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أقل حياءك !! يا نفس . لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف يكون غضبك عليه !! ومقتك له !! لا جرم أنك تعاقبينه أشد العقاب ، وتخافين أنك لو تجاوزت عنه جرّ ذلك إلى ما لا تحمد عاقبته !! فكيف مع ذلك تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبه وشديد عقابه !! فان كنت مغترة بكرم الله تعالى وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما بالك لا تعولين على كرم الله في مهمات دنياك . فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه . ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى !! .

وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم ، فما بالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها !! فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يسخر لك عبدا من عبيده ، فيساعدك على نيل حاجتك !! أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا !! وهكذا مثل هذه التوبيخات ، فان حاسب نفسه وعاقبها بمثل هذه العقوبات عند وجود تقصير منها تمت له طاعتها ، وسهل عليه تصريفها فيما

ينفعه وينفع قومه . أما إذا أهملها سهل عليه مقارفة المنكرات ، وأنست بها نفسه . وعسر عليه ، فطامها ، وكان ذلك سبب حرمان نفسه الفضائل السامية .

وإلى هذه المحاسبة يشير الله تعالى بقوله : (ولْتَنْظُرْ نفسٌ ما قدَّمتْ لغد واتقوا الله إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون) .

أى حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لها من الأعمال الصالحة يوم عرضكم على ربكم ، واعلموا أن الله تعالى عالم بجميع أحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه منكم خافية فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

الثالث — الحث على مداومة استحضار عظمة الله وجلاله كما يؤخذ من قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين نَسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) فان الغفلة عن الله تعالى وجليل قدرته تورث الغفلة عن العمل الصالح الذى يرفع الأمم ويسعدها ، لأن الجزاء من جنس العمل ، قال تعالى : (أولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ) أى الخارجون عن صراط الله السوى .

الذريعة الثامنة

تربيته على حسن معاملة أفراد المجتمع

مما سلكه الاسلام فى تكوين خلق الفرد أنه أوجب عليه أن يعامل أفراد المجتمع برفق ولين ، ويخفض جناحه للكبير منهم والصغير ، ولا يخاطب أحداً بغلظة ، ولا يتكبر ولا يتعاظم على أحد منهم ، بل يستجلب محبتهم بمكارم أخلاقه ، وحسن معاملته ، ولطف صنيعه ، ولا يكثر المراء والخصومة معهم ، وأن يبتدر من يعرف ومن لا يعرف بالتحية ، وإذا حياه غيره بتحية ردها بعينها أو بأحسن منها ، وأن يلقى غيره بالبشاشة والبشر وطيب الكلام ، ولا يؤذيهم بقول أو فعل ، وأن يعفو عن مذنبهم ، ويصفح عن تائبهم ، ويتودد اليهم بكل وسائل أنواع التودد ، وألا يعد أحداً منهم بوعد إلا وفى به ، إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة . وقد جاء

القرآن الكريم مبينا هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله ، مرشداً إلى مايجب التخلق به ، ويجب استعماله فى معاملة أفراد المجتمع ، من كل مايجلب رضاهم ومحبتهم فتتحد كلمتهم وتتآلف جامعتهم ، ويسمون لأنفسهم فيما يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر والضير : فمن ذلك ماحث الله سبحانه عليه من مقابلة الاساءة بالإحسان والذنب بالغفران ، والغضب بالحلم ، والغيظ بالكظم مع بيان الثمرة المترتبة على ذلك فقال : (ولا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بالتى هِىَ أحْسَنُ فاذَا الَّذِى بينَكَ وبينَهُ عداوَةٌ كأنَّهُ ولِىٌّ حميمٌ ، وَمَا يُلَقَّاها إلاَّ الَّذِينَ صبرُوا وَمَا يُلقَّاهَا إلاَّ ذُوحظٍّ عظِيمٍ) فبين مايجب على الأفراد من حسن معاملة إخوانهم صغيرهم وكبيرهم فان أغضبهم أحد صبروا وإن جهل عليهم حلموا ، وإن أساء إليهم عفوا عنه ، وإن أذنب فى حقهم ذنبا غفروه ، وأغضوا عما حصل منه من الهفوات ، وتجاوزوا عما صدر منه من الغلطات ، فان فعلوا ذلك صار العدو لهم صديقا ، والبعيد عنهم قريبا والمبغض لهم حبيبا ، وهذا ما أفاده الله بقوله : (ولا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بالتى هِى أحْسَنُ فاذَا الَّذِى بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كأنَّهُ ولِىٌّ حميمٌ) أى إن أساء إليك رجل فالحسنة أن تعفو عنه والتي هى أحسن أن تحسن اليه : كأن يذمك فتمدحه ، أو يشتمك فتعطيه جائزة ، فانك إن فعلت ذلك وأحسنت اليه من حيث أساء اليك — قاده إحسانك إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك ، حتى يصير كأنه ولى حميم أى قريب إليك يهتم لأمرك من فرط الشفقة عليك . وبعد أن وصى عباده بحسن المعاملة ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، وبين الثمرة المترتبة على ذلك ، أخذ يمدح من عمل بهذه الوصية وحافظ على هذه المزية ، فقال : (وَمَا يُلَقَّاها إلاَّ الَّذِينَ صبرُوا وَمَا يُلقَّاها إلاَّ ذُوحظٍّ عَظِيمٍ)أى وما يقبل هذه

الوصية ولا يعمل بها إلا من اجتمعت له خلال الصبر وثبات القلب وقوة العزيمة ، وكان له منها نصيب موفور . وقال العليم الحكيم يعلم نبيه صلى الله عليه وسلم محاسن الأدب ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملة ، مع صنوف الخلق سواء المطيع منهم والعاصي : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ). فأمره أن يلين جانبه ويتواضع للمؤمنين ، لأن ذلك أدعى إلى اجتماع كلمتهم عليه ومحبتهم له ، وقيامهم بكل مايرضيه ، وبذلهم النفس والنفيس في سبيل نشر دينه ، وسعيهم في إعلاء كلمته ، ونصرته على أعدائه ، وهذا ضرب من التدبيرات الالهية والسياسات الشرعية التي يجب على كل من قام بالدعوة ليرشد الناس ويهديهم إلى مافيه صلاح حالهم دنيا وأخرى ، ويقوم ما اعوج من أخلاقهم — أن يكون متخلقا بها فيجمل المعاملة ويحسن الصنيعة مع من خالفه ، لما في ذلك من محبتهم له وعدم نفورهم منه ، وربما كان ذلك سببا في رجوعهم عن معصيته ومخالفته إلى طاعته وامتثال أمره ، وذلك بأن يلطف بهم ويحنو عليهم ، فلا يعاقبهم ولا يردعهم ولا ينهرهم ولا يقسو عليهم في المعاملة ، وإن كان ماعملوه من المخالفة والعصيان يستحقون عليه أكثر من ذلك ، بل غاية مايقابلهم به أن يتبرأ من عملهم ويقول لهم : (إني بريء مما تعملون)والآية الكريمة وإن كان المأمور فيها بخفض الجناح واستعمال اللين واللطف وحسن المعاملة والمجاملة هو خصوص رسول الله ﷺ — هداية لأمته واتباعه بطريق التبع ، لأن كل أمر له أمر لأمته مالم يرد نص مخصص ، ولذا وجب على كل مسلم أن يعامل جميع الناس بالرفق واللين والتواضع ، ويستجلب محبتهم اليه بمكارم أخلاقه ، وحسن معاملته ، ولطف صنيعه سواء المحسن منهم والمسيء ، فان ذلك أدعى لمعونتهم له وقت الحاجة وإغاثتهم له وقت الشدة ، ونصرته وقت الحرج والضيق .

وقال جل ذكره فيما يجب أن يستعمله الانسان مع خصمه من حسن

المعاملة والملاطفة واللين حتى يكون ذلك سببا فى قبول قوله ، وإجابة طلبه ، مخاطبا بذلك موسى وأخاه هرون عليهما السلام ، عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله تعالى : (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى وَلا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) .

فيقول الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام : اذهب أنت وأخوك هارون إلى فرعون وادعوه إلى عبادتى وتوحيدى والاخلاص لى ، ومعكما آياتى ومعجزاتى وحججى وبراهينى ، متمسكين بها فى إجراء أحكام الرسالة ، وإتمام أمر الدعوة ، وعليكما مع ذلك عند مواجهتكما له ومقابلتكما إياه ألا تنيا ولا تقصرا فى ذكرى ، واستحضار أنى وليكما وناصركما مع الدعوة إلى توحيدى ليكون ذلك عوناً لكما عليه ، وقوة وسلطاناً كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام عن ربه : (إِنَّ عَبْدِى كُلَّ عَبْدِى الَّذِى يَذْكُرُنِى وهو مُناجزٌ قِرْنَه) أى يذكر أنى وليه والآخذ بيده . وبعد أن أمر جل شأنه موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ويصحب أخاه هرون معه — أخذ يأمرهما بالذهاب إلى فرعون ، ويرشدهما إلى مايقولان له لعله يكون سببا فى إذعانه لهما وقبوله ماجاء به ، فقال: اذهبا إلى فرعون إنه طغى : أى تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه وتجاوز الحد فى الكفر والتمرد بادعائه الربوبية ، فقولا له قولا لينا لا خشونة فيه ، فان التخشين فى القول من أعظم أسباب النفور وعدم الامتثال ، بخلاف تليين القول فانه أسرع إلى الإجابة ، وأدعى إلى كسر سورة عناد العتاة ، وتليين قسوة الطغاة ، وقد فعل عليهما الصلاة والسلام ما أمرا به فقد قالا له : (إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ) وقال له موسى عليه السلام : (هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) .

فان هذا غاية فى اللين والرفق ، لأنه دعاه فى صورة العرض والمشورة ، وقد ذكر جل شأنه العلة الباعثة على دعوته باللين وحسن الملاطفة فقال :

(لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) أى لعله يتأمل فيبذل النصفة من نفسه ، والاذعان للحق ، فيدعوه ذلك إلى الايمان ، أو يخشى أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة ، وذلك يدعوه إلى الإيمان أيضاً ، فهذا ما أمر الله نبيه موسى وأخاه هرون : من حسن المعاملة مع فرعون واللين له فى القول والتلطف به ، وهما صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، وهو أحط منهما قدرا عند الله تعالى ، فكيف بمعاملة غيره من المؤمنين بعضهم بعضا ، فانهم أولى باستعمال الملاطفة واللين بينهم . وقال تعالى يعلمنا كيف نعامل خلقه ، بتأدية مالهم من الحقوق ، مع بيان ما أعده الله لمن أحسن هذه المعاملة من النعيم المقيم ، وما أعده لمن لم يحسنها من الهوان والعذاب الأليم : « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) فبين ما أعده لمن أحسن من عباده المؤمنين المعاملة معه جل شأنه ، ومع عباده من الثواب الجزيل والنعيم الدائم المقيم ، وقد بين جل شأنه أن حسن المعاملة يكون بأشياء :

الأول — الوفاء بالعهد وهو بالنسبة لله عز وجل امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وبالنسبة للخلق ألا يعد أحدهم وعداً إلا وفى به وأنجزه ، ولا يكون كالمنافق إذا عاهد غـــدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب .

وإذا اؤتمن خان .

الثانى — صلة ما أمر الله به أن يوصل ونهى أن يقطع ، وهى بالنسبة لله عز وجل دوام مراقبته وتمثل عظمته فى قلبه ، حتى يكون ذلك زاجراً له عن معصيته ومخالفة أمره ، والايمان بالكتب والرسل ، فانه جل شأنه أمر بوصل ذلك وعدم قطعه ، وبالنسبة للخلق ثلاثة أنواع : وصل قرابة المؤمنين الثابتة بالإيمان والداخلة فى عموم قوله تعالى : (إنَّما المؤْمنون إخوةٌ) ويكون بالاحسان اليهم على قدر الطاقة والوسع ، ونصرتهم والذب عنهم أو الشفقة عليهم ، وجلب الخير اليهم . ودفع الضرر عنهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر ، إلى غير ذلك . ووصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويكون بالشفقة بهم ، وتعهدهم فيما يحتاجون اليه ، واحترامهم وتوقيرهم والتودد اليهم ، كما قال تعالى : (قلْ لا أسألكمْ عليْه أجراً إلا المودَّة فى القرْبى) فان فى صلتهم صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى غاية ما يسعى المرء لنيله ووصل قرابته من الرحم : ويكون بأن يطعمهم من جوع، ويؤمنهم من خوف أو يقضى عنهم ديناً ، أو يفرج عنهم غماً ، أو يقضى لهم ما يحتاجون اليه إن كانوا فقراء ، ويعاملهم بالتودد ، ويتعهدهم بالزيارة ، ويبدأهم بالسلام إن كانوا أغنياء .

الثالث — الخشية من الله تعالى ، ومراقبته جل شأنه فى جميع الأعمال والأحوال ، والخوف من سوء الحساب فى الدار الآخرة ، فان دوام المراقبة والخشية والخوف من سوء الحساب يوم الحساب مما يوطن قلب العبد على طاعة الله تعالى ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . وما أحسن تلك المعاملة .

الرابع — الصبر عن المحارم ، والتعفف عن المآثم ، وترك جميع الموبقات ونبذ سائر المنكرات ، واحتمال المشاق فى نصرة الله ودينه ، ولا غرض من ذلك سوى طلب مرضاة الله تعالى ، وجزيل ثوابه .

الخامس — إقامة الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضى، فان ذلك من حسن المعاملة بمكانة دونها كل مكانة.

السادس — الانفاق من فضل الله تعالى على من يجب لهم الانفاق: من زوجات وقرابات وأجانب: من فقراء ومساكين، فى السر والجهر.

السابع — درء السيئة بالحسنة أى دفعها بها، فاذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا، وإن أساء اليهم عفوا عنه، وإن حصل منه هفوة. أغضوا عما حصل منه من الهفوات وتجاوزوا عما فرط منه من الغلطات فهذه الأشياء التى ذكرها الله غاية فى حسن المعاملة معه ومع عباده. ثم بين ما يترتب عليها من الثواب الجزيل والسعادة الأبدية بقوله: (أولٰئك لهمْ عقبى الدّار) ثم فسر ذلك بقوله: (جنّاتُ عدْن) أى جنات إقامة يخلدون فيها هم ومن هو صالح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ليكون فى الجمع بينهم وبين من يحبون من أهليهم وقراباتهم قرة عين لهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب الجنة، يسلمون عليهم ويهنئونهم بما حصل لهم من التقريب والانعام، والاقامة فى دار السلام، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام جزاء حسن معاملتهم مع الله ومع خلقه.

وبعد أن بين سبحانه حال السعداء وما أعده لهم من النعيم المقيم أتبع ذلك بيان أحوال الأشقياء، وما أعده لهم من العذاب الشديد والعقاب الأليم، وهم الذين لم يحسنوا المعاملة مع الله تعالى ومع عباده فقال: (والذينَ ينْقضونَ عهْدَ الله مِنْ بعْدِ ميثاقِهِ ويقْطعونَ ما أمَرَ الله بِهِ أنْ يوصلَ أولٰئك لهمُ اللعْنةُ ولهُمْ سوءُ الدّار). وقال تعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم لطف المعاملة وحسن المصانعة مع اليتامى الأذلاء والفقراء الضعفاء، ولنا فيه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة: (فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ وأمّا

السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) فبين وجوب حسن المعاملة ولطف المجاملة مع هذين الصنفين ، وهو اليتيم الذى مات أبوه وهو صغير ، والسائل الذى ألجأته الحاجة والفاقة إلى ذل السؤال وتكفف الناس : فحسن المعاملة مع اليتيم ألا يقهره ولا يغصبه ولا يأخذ منه حقا هو له وأن يكون له كالأب الرحيم للابن البار ، فيسعى فى نماء ماله إن كان له مال ، وفى تعليمه وتربيته ويحسن كفالته فلا يذله ولا ينهره ولا يهينه ، ولا يفعل به أى أمر يكدر خاطره أو يحصل له منه ضرر . وإنما وصى جل شأنه باليتيم هنا وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وحث على ذلك ورغب فى حسن كفالته ولطف معاملته — لأن اليتيم الذى مات أبوه ، وكان المتكفل بحسن تربيته وتعليمه ونجاحه وفلاحه والسعى وراء كل ما يكون فيه سعادته فى الدنيا والآخرة ، والقائم بتدبير حالته المعاشية والنظر فى كل ما يجلب له الخير ويدفع عنه الشر والضير ، إذا لم يجد من يقوم له بما كان يقوم له به أبوه — نشأ على الأخلاق الفاسدة والطباع الرذيلة ، لأن النفس بطبيعتها ميالة إلى الشرور مطبوعة على الفجور ، فاذا لم تجد وازعا يكبح جماحها ، ويحول دون تنفيذ كل رغباتها : لاسيما فى الصغر تحكمت فيها الشهوات ، وتمكنت فيها الرذائل والمنكرات ، فينشأ صاحبها على ذلك فاسد الأخلاق مرذول الطباع منقاداً لأهوائه البهمية عبداً لشهواته المدنية ، وبذلك يكون كلاًّ على المجتمع وجرثومة فساد فيه . وحسن المعاملة مع السائل يكون إما باجابة ماساله ، والنصح والإخلاص له فى الجواب ، مع عدم التكبر والتجبر والفحش فى القول وإظهار الفضل عليه إن كان سائلا عن علم ، وإما باعطائه سؤله ، أورده برحمة ولين ، وتعطف وتلطف ، إن كان محتاجاً يسأل مابه يسد رمقه ويزيل عوزه . ولا يصح أن يقابل السائل الذى هذه حالته بالفظاظة والغلظة ، والكبر من المسئول ، فان فى ذلك من قلة المروءة وخسة الطبع ما لا يخفى .

على أنه لا يحسن بعاقل أن يتقلب فى نعمة ، ولا يرى من الشكر على هذه

النعمة التي جعلته مسئولا وغيره سائلا ، وعزيزاً وغيره ذليلا يتكفف الناس ويسألهم ، هذا يمنحه وهذا يمنعه — حقا لا يحسن به ألا يرى من الشكر أن يمنح أخاه المؤمن وهو يسأله مما منحه الله من العلم أو المال ما يسد به حاجته ، فذلك من زمانة في مروءته وخسة في طبعه .

وقال جل ذكره يحث على حسن المعاملة مع الناس بالعفو عن مذنبهم والصفح عن تائبهم : (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فبين وجوب صلة الرحم والأقرباء مهما اقترفوا من الذنب ، ولا يكون ما فعلوه سبباً في أن يأتلي أولو الفضل والسعة أي يحلفوا أن يمنعوهم ما كانوا يحسنون به عليهم ، وليكن ديدنهم معهم العفو عن ذنبهم الذي أذنبوه ، وجنايتهم التي اقترفوها . والصفح عن تائبهم بالاغضاء عنه والاغماض عن جنايته ، فان ذلك سبب لعفو الله تعالى ومغفرته ، كما قال تعالى ، مُرَغِّباً في العفو والصفح ، حاثاً عليهما : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

هذا وبالله التوفيق

مظاهر الخلال الفردية (*)

(١) النزاهة عن تناول المحرم

عن زيد بن أرقم قال : كان لأبى بكر غلام يُغِلّ (١) عليه ، فأتاه ليلة بطعام ، فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك : مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة ؟ فقال : حملنى على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟ قال : مررت بقوم فى الجاهلية فَرَقَيْتُ لهم ، فوعدونى ، فلما أن جاء اليوم مررت بهم فاذا عُرس لهم ، فأعطونى . فقال : أفٍ لك ! وكدت تهلكنى . فأدخل يده فى حلقه وجعل يتقيأ وجَعَلَتْ لا تَخْرُجُ . فقيل له : إن هذه لاتخرج إلا بالماء فدعا بعُسٍّ (١) فيه ماء ، فجعل يشرب به ويتقيأ حتى رمى بها . فقيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟ فقال : لولم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) . فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة .

(٢) الحرص على اجتناب الريب

كان عافية بن يزيد القاضى ، يلى القضاء ببغداد للمهدى ، فجاءه يوما وقت الظهر ، واستأذن عليه . فلما دخل عليه التمس منه إقالته من القضاء . فظن المهدى أن بعض الأولياء قد عارضه فى حكمه . فقال له فى ذلك : وإنه إن عارضك أحد لنتكر عليه . فقال القاضى : لم يكن شىء من ذلك . قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، تقدم إلىّ خصمان منذ

(*) من كتاب "من الخلق الكامل" لمحمد أحمد جاد المولى بك ج ٢ ط ٢ سنة ١٩٣٤

(١) يأتى له بدخل من أجره (٢) القدح الضخم

شهر فى قضية مشكلة ، وكل يدعى بينة وشهودا ، ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل ، فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفصل بينهما . فسمع أحدهما أنى أحب الرطب ، فعمد فى وقتنا هذا - وهو أول أوقات الرطب - فجمع رطبا لا يتهيأ فى وقتنا هذا جمع مثله لأمير المؤمنين ، وما رأيت أحسن منه ، ورشا بوابى بدراهم على أن يُدْخِلَ الطبق على ولا يبالى أن يُرَدَّ عليه . فلما أدخله على أنكرت ذلك ، وطردت بوابى ، وأمرت برد الطبق ، فرُدَّ عليه . فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلى فما تساويا فى عينى ولا قلبى ، فهذا ياأمير المؤمنين ، ولم أقبل ، فكيف يكون حالى لو قبلت ؟ ولا آمن أن تقع على حيلة فى دينى وقد فسد الناس ، فأقلنى ياأمير المؤمنين أقالك الله !!

(٣) الكسب بعرق الجبين

عن الامام على قال : جعت بالمدينة جوعا شديداً . فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة : فاذا أنا بامرأة قد جمعت مدراً تريد بَلَّهُ ، فأتيتها ، فقاطعتها كل دلو بتمرة . فملأت ستة عشر ذَنوباً حتى مَجِلت يدى . ثم أتيتها . ففعلت بكفى هكذا بين يديها (وبسط إسماعيل راوى الحديث يديه جميعا) ، فعدت لى ست عشرة تمرة . فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فأكل معى منها ، وقال لى خيرا ، ودعالى .

(٤) شدة اليقين

إذا كان أبو بكر لم يكن لسيفه مقام مذكور ، مثل أولئك الشباب - فقد كان الداعية العظيم إلى هذا الدين الجديد ، بأسلوبه المؤثر الذى كان يأخذ بلب أولئك الشباب ؛ فما يأتى يوم إلا وفى يده شاب إلى رسول الله ، ليلقنه أحكام الدين الذى جذبه إليه . ويكفيه شرفا أنه قدم للاسلام أولئك الشباب : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وأباعبيدة عامر بن الجراح ،

أولئك الأبطال الذين كانوا أنشط أولئك الشبان فى تأييد تلك الدعوة ، وأصحاب المواقف المشهورة فى الجهاد فى سبيلها .

أما جهاده بالمال فى تأييد هذا الدين فحدث عنه ولا حرج ؛ فكم أعتق من عبيد وإماء لقريش ، أسلموا فنجاهم من العذاب القاسى الذى كانوا يعذبون به ليرجعوا عن دينهم : فمن أعتق منهم : بلال الحبشى ، وكان عبداً لأمية ابن خلف ، فاشتراه وهو يعذبه تحت الحجارة المحماة وأعتقه ، كما اشترى أمه حمامة أيضا وأعتقها . ومنهم عامر بن فهيرة : كان يعذب فى الله حتى لايدرى مايقول . ومنهم أبو فكيهة الذى كان يعذب فى رمضاء مكة ، فيخرج لسانه من شدة الحر . فبارك الله فيك ياأبا بكر !! لو لم يكن فى صحيفة جهادك إلا هذا لكفى . كيف وقد أسلم وهو يملك أربعين ألفاً فأنفقها كلها فى سبيل الله ؟ حتى قال رسول الله يوما وهو حاضر : (ما نفعنى مالٌ قطُّ ما نفعنى مال أبى بكر) . فبكى ، وقال : وهل أنا ومالى إلا لك يارسول الله .

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد نشر الاسلام فى جميع الجزيرة العربية - ارتد معظم العرب عن الاسلام ، وبعضهم امتنع عن دفع الزكاة فاضطربت أفكار أصحاب رسول الله ، ورأى بعضهم أن يتركوا العرب ولا يقاتلوهم على ابنة مخاض وابنة لبون . ولاندرى كيف ذهبوا إلى عدم قتال مانعى الزكاة ، والزكاة من أركان الاسلام المعلومة من الدين بالضرورة ؟ ولعل مردَّ هذا مااعتراهم من الحيرة عند نجوم الفتنة ، ولو لم يقم لهم أبو بكر ماوصل الاسلام إلى ماوصل إليه من عز ومجد ، فخالفهم فيما ذهبوا ، وخرج شاهراً سيفه إلى ذى القَصَّة (١) ، فجاءه على ، وأخذ بزمام راحلته وقال له : إلى أين ياخليفة رسول الله ؟ لاتفجعنا بنفسك . فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للاسلام نظام . فرجع رضى الله عنهم بعد أن قدم لهم مثالا عظيما فى الشجاعة ، كان له فى نفوسهم أعظم تأثير ، وإذا الجيوش الاسلامية

---

(١) موضع على نحو اثنى عشر ميلا من المدينة تلقاء نجد

منتشرة فى كل نواحى الجزيرة العربية ، لتأديب هؤلاء العاصين . وإذا هؤلاء الذين كانوا يؤثرون عـــدم خوض القتال ، يوجهون نظرهم نحو الشرق والغرب لفتح مملكتى الفرس والروم . وتم بهذا فى خلافته القصيرة توطيد قدم الاسـلام فى جزيرة العرب ، وفتح العراق من مملكة الفرس ، وبعض الشأم من مملكة الروم .

(٥) قوة الجنان ورباطة الجأش

كان أبو بكر رضى الله عنه مضرب المثل فى رباطة الجأش . وكان مثلا أعلى فى قوة جنانه وثباته عند موت رسول الله حين أدهش الناس ذلك الخطب الجلل ، فقام من فوره وقال : (من كان يعبد محمداً فان محمدا قد مات . ومن كان يعبدالله فان الله حىٌ لايموت . ثم تلا : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ »)

(٦) الايمان الراسخ والارادة الصادقة

لم يَرْوِ التاريخُ يقينا أرسخَ من يقين أبى بكر ؛ ولذلك قال فى حقه النبى صلى الله عليه وسلم : (لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِى بَكْرٍ بِإِيمَانِ الأُمَّةِ لَرَجَحَ إِيمَانُ أَبِى بَكْرٍ) يتجلى ذلك بأبهى معانيه عندَ إنْفاذ جيش أسامة ، وقتال أهل الرِّدَّة : وذلك أن المسلمين لما خَشُوا أن يطمع العرب وأهل النفاق فى مسلمى المدينة إذا فصل جيشُ أسامة وبقى المسلمون دون حامية قوية ترد عادية الطامعين — كلَّموا أبابكر فى استبقاء جيش أسامة ؛ ليكون للمسلمين ردءا ، وقالوا : إن هؤلاء جند المسلمين ، والعرب — على ماترى — قد انتقضت بك ، فلاينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك . فقال : والذى نفسى بيده ، لوظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله

لعمر رضى الله عنه ، وقد أخذ بلحيته حين كلمه فى اختيار من هو أسن من أسامة على الجيش : عدمتك أمك وثكلتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! !

(٧) حسن اليقين

كان المقداد بن الأسود من الأبطال المعدودين فى الاسلام . شهد مع رسول الله غزوة بدر وغيرها . وله فى غزوة بدر مقام مشهود ؛ فان رسول الله لما انتدب الناس إليها خف بعضهم ، وثقل بعضهم . ولما خرجوا وعلم رسول الله بما جمعت قريش وخروج كل صناديدها إليه — جمع أصحابه يستشيرهم ، فما كان أحسن من جواب فتانا المقداد : يارسول الله ، امض لما أمرك الله ؛ فوالله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ » ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله لوسرت بنا إلى برك [1] الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فدعاله رسول الله بخير . وكانت هذه الكلمات التى تفيض إقداما وحماسة قاضية على مافى بعض النفوس من تردد ، فساروا بتأثيرها وأدركوا ذلك النصر الباهر ، وشفوا نفوسهم لأول مرة من أولئك الذين كانوا يتفننون فى تعذيبهم وهم فى مكة .

وقد شهد المقداد فتح مصر مع عمرو بن العاص . ومات فى خلافة عثمان سنة ٣٣ هجرية .

(٨) عظم الثقة بالله

لم يكن عبد الله بن مسعود رجل حرب وجلاد ، ولكنه كان ذا ميل شديد إلى التعلم ، فانقطع إلى رسول الله ، يخدمه ويأخذ عنه علوم الشريعة الغراء ، حتى نبغ فيها ، ولم يعد الفتى راعى الغنم بل صار العالم الفاضل الذى يشار إليه فى علوم الشريعة بالبنان . وكان أول من جهر فى مكة بالقرآن ؛ فقد اجتمع

(١) قال عياض : هو موضع فى أقاصى أرض هجر

الشبان المسلمون يوما وقالوا : والله ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فهل من رجل يسمعهم ؟ فقال عبد الله : أنا . فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه . فقال : دعونى ؛ إن الله سيمنعنى . فغدا عبد الله حتى أتى المقام فى الضحا وقريش فى أنديتها ، فقرأ رافعا صوته : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ » . ومضى فى السورة . فدهشت قريش وجعلوا يقولون . مايقول ابن أم عبد؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد . فقاموا فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ من السورة ماشاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ماكان أعداء الله قط أهون على منهم الآن ، ولئن شئت غاديتهم بمثلها غدا . فقالوا حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون .

(٩) حسن الثقة بالله

روى أن الخليفة المسترشد بالله العباسى كان فى حرب مع الخارجين عليه ، فكسر ، فأشار عليه بعض أصحابه بالهزيمة والتسليم فلم يفعل ، وثبت فى الموقعة يحارب ويقاتل حتى أسر . وهو يقول :

قالوا تقيم وقد أحا ط بك العدو ولا تفر
فأجبتهم : المرء ما لم يتعظ بالوعظ غر
لا نلت خيرا ما حييـــت ولا عدانى الدهر شر
إن كنت أعلم أن غـــير الله ينفع أو يضر

(١٠) الثبات وحسن الاجابة

كان الجاحظ كثير الميل إلى محمد بن عبد الملك دون ابن أبى دؤاد . فلما نكب محمد جاءوا بالجاحظ بين يدى ابن أبى دؤاد مكبلا بالأصفاد . فقال له : والله لا أعرفك إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معددا للمساوى ، وما

فنت أستصلح لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة دخيلتك ، وسوء اختيارك ، وتغلب طباعك . فأجابه الجاحظ بثبات وإرادة : (خفض عليك ـ أصلحك الله ـ فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ ـ خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتُحسِنَ ـ أحسن فى الأحدوثة من أن أُحسِنَ أنا وتُسىءَ أنت ، ولأن تعفو عنّى حال قدرتك علىّ ـ أجملُ بك من أن تنتقم منّى)

(١١) الثبات على المبدإ

عن حذافة الجمحىّ قال : دخلت بكارة الهلالية على معاوية بن أبى سفيان ، بعد أن كبرت سنها ، ودق (١) عظمها ، ومعها خادمان لها ، وهى متكئة عليهما وبيدها عكازة . فسلمت على معاوية بالخلافة ، فأحسن عليها الرد ، وأذن لها فى الجلوس . وكان عنده مروان بن الحكم ، وعمرو بن العاص . فابتدأ مروان فقال : أما تعرف هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هى ؟ قال : هى التى كانت تعين علينا يوم صفين ، وهى القائلة :

يازيد ، دونك فاستثر من دارنا سيفاً حساما فى التراب دفينا
قد كان مذخورا لكل عظيمة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

فقال عمرو بن العاص : وهى القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند (٢) للخلافة مالكا هيهات ذاك ، وما أراد بعيدُ
منّتك نفسُك فى الخلاء ضلالةً أغراكَ عمرٌو للشقا وسعيدُ
فارجع بأنكد طائر بنحوسها لاقت عليًا أسعدٌ وسعودُ

فقال سعيد : يا أمير المؤمنين ، وهى القائلة :

قد كنت آملُ أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أميّة خاطبا
فالله أخّر مدتى فتطاولت حتى رأيتُ من الزمان عجائبا
فى كل يوم لا يزال خطيبُهم وسط الجموع لآل أحمد عائبا

(١) نحف (٢) أى معاوية .

ثم سكت القوم . فقالت بكارة : بَحّتني كلابك يا أمير المؤمنين ، واعتورتني(١) ، فقصر محجني(٢) ، وكثر عجبي ، وعشي بصري ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين(٣) . فقال معاوية : إنه لا يضعك شيء ، فاذكرى حاجتك تُقضَ . فقضى حوائجها ، وردها إلى بلدها .

وحدثني عيسى بن مروان قال : حدثني محمد بن عبد الله الخزاعي ، عن الشعبيّ قال : استأذنت بكارة الهلالية على معاوية فأذن لها ، فدخلت ، وكانت امرأة قد أسَنّت وعَشِيَ(٤) بصرها وضعفت قوتها ، فهي تَرْعَشُ بين خادمين لها . فسلمت ثم جلست . فقال معاوية : كيف أنت يا خالة ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيّرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر ، ثم ذكر الحديث السابق المرويّ عن حذافة ومن قول عمرو وسعيد ومروان ، ورواية في الحديث قالت : إن عشي بصرى ، وقصرت حجتي - فأنا قائلة ما قالوا ، وما خفي عليك أكثر . فضحك معاوية وقال : ليس بمانعي من برّك يا خالتي غير عدم مجيئك . قالت : أما الآن فلا(٥)

(١٢) المحافظة على المبدأ مع حسن الطاعة

أم الخير بنت الحريش البارقية

عن الشعبي قال : كتب معاوية إلى واليه بالكوفة : أن أوفد عليّ أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية ، رحلة محمودة الصحبة غير مذمومة العاقبة واعلم أني مجازيك بقولها فيك : بالخير خيرا ، وبالشر شرا .

فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها ، فأقرأها إياه . فقالت أم الخير : أما

---

(١) اعتورتني : تناولتني وتداولتني . (٢) المحجن : العصا المنعطفة الرأس كالصولجان ، وقصور محجنها كناية عن عجزها عن طرد تلك الكلاب (٣) تعني عليا عليه السلام (٤) عشي أي ضعف (٥) فلا مانع إذ قد جاءته

أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنتُ أحبُ لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى(١) : تجرى مجرى النفس ، يغلى بها غلى المرجل بحب البلسن يوقد بجزل السّمر . (٢) فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، إن معاوية قد ضمن لى عليه أن يقبل بقولك فىّ الخير خيراً والشر شراً ، فانظرى كيف تكونين ؟ قالت : ياهذا ، لا يطمعك والله برك بى فى تزويق الباطل ، ولا يؤنسك معرفتك إياى أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير سير .

فلما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم (٣) ثلاثا . ثم أذن لها فى اليوم الرابع ، وجمع لها الناس . فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتنى بهذا الاسم . فقالت : مَهْ يا هذا ، فإنّ بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه .(٤) قال : صدقت ياخالة . وكيف رأيت مسيرَكِ ؟ قالت : لم أزل فى عافية وسلامة ، حتى أُوفِدْتُ إلى ملك جزل وعطاء بذل ، (٥) فأنا فى عيش أنيق عند ملك رفيق . فقال معاوية : بحسن نيّتى ظفرت بكم ، وأُعِنْتُ عليكم . قالت : مَهْ يا هذا ، لك والله من دحض المقال (٦) ما تردى عاقبته . قال : ليس لهذا أردناك . قالت : إنما أجرى فى ميدانك ، إذا أجريتَ شيئا أجريته ، فاسأل عما بدالك . قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله رويته قبل ولا زورته (٧) بعد ؛ وإنما كانت كلمات نفثهنّ لسانى حين الصدمة (٨) ؛ فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت .

---

(١) أي تتردد فيه . (٢) حب البلسن يشبه العدس المعروف ، والسمر شجر ، والجزل هنا صلب الحطب . (٣) الحرم نساؤه . (٤) مَهْ أى كُفّ ، والبديهة هنا من بدهه بأمر فاجأه به ، ومدحضة أى مُزِلّة . والمعنى : أن مفاجأتك إياى بالسوء ستزيل عنك ما تحب أن تعرفه منى . (٥) جزل أى أصيل الرأى ، وبذل أى مبذول من بذله جادبه ، وأنيق أى حَسَنٌ معجب . (٦) أى باطله . (٧) أى حسّنته تريد أنها قالته ارتجالا ولم تحفظه . (٨) أى صدمة الحرب .

قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ قال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد. قال : هاته .(١) قال : نعم ، كأني بها يا أمير المؤمنين وعليها بُرْد زبيدي كثيف الحاشية (٢) ، وهي على جمل أرمك (٣) ، وقد أحيط حولها حواء (٤) ، وبيدها سوط منتشر الضفر ، وهي كالفحل يهدر في شقشقته (٥) تقول :

يأيها الناس ، اتقوا ربكم ؛ إن زلزلة الساعة (٦) شيء عظيم ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونوَّر السبيل (٧) ، ورفع العلم ، فلم يَدَعْكُمْ في عمياء مبهمة ، ولا سوداء مُدْلَهِمَّة (٨) ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ : أفراراً عن أمير المؤمنين (٩) ؟ أم فرارا من الزحف (١٠) ؟ أم رغبة عن الإسلام (١١) ؟ أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ (١٢) حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول : اللهم ، قد عيل (١٣) الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب أزمة (١٤) القلوب ، فاجمع إليه الكلمة على التقوى ، وألِّف القلوب على الهدى ، وارْدُد الحق إلى أهله ، هلمُّوا (١٥) رحمكم الله إلى الامام العادل ، والوصي (١٦)

---

(١) سورة الحمد أول سورة في القرآن ، وهاته أي اسرده . (٢) زبيدي نسبة إلى زبيد بلدة باليمن ، والكثيف الغليظ ، والحاشية الجانب . (٣) رمادي اللون . (٤) الحواء مايعمل كالوسادة للراكب على رحل الجمل بدون هودج . (٥) أي كالجمل إذا هاج فهو يهدر في شقشقته ، والشقشقة شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه اذا هاج . (٦) الوقت الذي تقوم فيه القيامة . (٧) الطريق . (٨) مبهمة مشتبهة ، ومدلهمة كثيفة . (٩) تريد علياً . (١٠) زحف الحرب . (١١) رغب عن الشيء ضد رغب فيه . (١٢) ابتلاه اختبره وامتحنه . (١٣) غُلِبَ الصَّبْرُ بالبناء للمجهول . (١٤) جمع زمام . (١٥) تعالوا . (١٦) أي الموصى به ـ لعلها تشير إلى ما يروونه من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (مَنْ كُنْتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه)

الوفي ، والصديق الأكبر . إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية (١) ، وثب بها معاوية حين الغفلة ؛ ليدرك بها ثارات بني عبد شمس (٢) . ثم قالت : (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ؛ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) . صبراً معشر الأنصار والمهاجرين ، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . وكأني بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة (٣) ، لا تدري أين يسلك بها من فجاج (٤) الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، عما قليل ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة (٥) ؛ إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار . أيها الناس ، إن الأكياس (٦) استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود (٧) ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان – لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه ، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي ابنيه (٨) ؟ خلق من طينته ، وتفرع من نبعته (٩) ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته (١٠) وعلم المسلمين

---

(١) إحن : أضغان ؛ وبدرية نسبة إلى بدر وهو موضع ، وأحدية نسبة إلى أحد وهو جبل ؛ وبدر وأحد حصل عندهما قتال بين المسلمين والمشركين ، وكان في هؤلاء بنو أمية قوم معاوية قبل أن يسلموا ، فقتل منهم علي بن أبي طالب عدداً كثيراً . ولذلك فإن صاحبة هذه الخطبة تقول : إن معاوية يحارب علياً بغضاً فيه للأمور التي أشارت إليها لا طلبا للحق . (٢) قوم معاوية . (٣) الحمر جمع حمار ، ومستنفرة أي شاردة مجزوعة . (٤) جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين . (٥) الإعفاء . (٦) العقلاء . (٧) حدود الشريعة وأحكامها . (٨) تريد الحسن والحسين وهما ولدا علي وحفيدا الرسول وابنا ابنته فاطمة ، ولذلك كان النبي يدعوهما ابنيه (٩) أصله . (١٠) لعلها تشير إلى ما يروى عن النبي : (أنا مدينة العلم ، وعلي بابها

اغتيل من مأمنه ، وأتي من حيث لم يحذر[١] ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال فما تقولين في الزبير[٢] ؟ قالت: ياهذا ، لاتدعني كرجيع الصبيغ يعرك في المركن[٣] . قال : حقا لتقولن ذلك . وقد عزمت عليك[٤] . قالت : وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه[٥] وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ؛ ولقد كان سباقا إلى كل مكرمة في الإسلام . وإني أسألك بحق الله يامعاوية ؛ فإن قريشا تحدث أنك أحلمها[٦] ، فأنا أسألك أن تسعني بفضل حلمك ، وأن تعفيني من هذه المسائل ، وامض لما شئت من غيرها . قال : نعم[٧] وكرامة قد أعفيتك ، وردها مكرمة إلى بلدها .

---

(١) طلحة أحد أصحاب النبي ، نقم على عثمان ؛ فلما قتل عثمان بايع عليا ، فلما خرجت عائشة ضد على بدعوى الطلب بقتله عثمان خرج طلحة معها ، ففي يوم الجمل ـ وهو أحد أيام الحرب بين على ومعاوية وأشياعهما ـ كان طلحة في الجيش المحارب ضد على ومعه مروان بن الحكم من أهل عثمان . وكان مروان يعتقد أن طلحة له يدفعالة في نصرة من قتلوا عثمان . فاغتنم مروان لذلك غفلة من طلحة فضربه ضربة كانت القاضية عليه . فهذا معنى قول أم الخير : إن طلحة اغتيل من مأمنه .
(٢) هو الزبير بن العوام أحد الصحابة ، نقم على عثمان وبايع عليا ، وخرج مع عائشة ضده ، فهو كطلحة في ذلك ـ راجع ما سبق من التفسير . (٣) المركن آنية ، ويعرك يحك ، والصبيغ المصبوغ ، والرجيع المردد : أي لا تجعلني كالثوب المصبوغ يحك في الآنية مرة بعد مرة لاخراج النيل منه ، تشبه محاورة معاوية في الكلام لها وتداوله إياها بالسؤال مرة بعد أخرى كالذي يتناول الثوب المصبوغ بالغسيل مرة بعد أخرى لاخراج النيل منه . (٤) أقسمت عليك . (٥) الحواري وجمعه حواريون هم أنصار الأنبياء ، ومنه الحواريون أنصار عيسى عليه السلام ، وهي تشير إلى ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لكل نبي حواريون وحواري الزبير) . (٦) ويروى : (تتحدث أنك أحلمها) . (٧) أي إنعاما لعينك وكرامة منصوبين بإضمار أفعل ، أي أفعل ذلك إنعاما .

ولا يحسبن القارىء أن موقفها في الكوفة وفي دمشق ، من مواقف الملق أو الرياء . فأم الخير أكبر من ذلك . وكانت ـ وهي في جيش أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ـ آلت على نفسها أن تضحّي بحياتها في سبيله وخطبتها هذه أكبر شاهد . بل أكبر من ذلك شاهدا أن معاوية لما أراد أن يداعبها بالذكريات الماضية ، ويكشف عما في نفسها من ذلك ـ كانت صريحة في أنها لا تزال هيَ هيَ لم تتغير . ولكن لما تغير الموقف وصار الأمر لصاحب (الدار الخضراء [1]) يتولى تسيير الجحافل من عاصمة الشام وتجهيز الأساطيل من سواحلها ، لإعلاء كلمة الله ، وتنوير الأرض بنور الهداية الإسلامية ، وتوسيع رقعة الدولة العربية ـ أدركت أم الخير بفطرتها وفطنتها أن زمن الفرقة قد انقضى بماله من نتائج مهما كانت ، وأن على المرء المسلم والمرأة المسلمة أن يكون كل منهما جنديا بيد القائم بإمارة المؤمنين ، يصرّفه للمصلحة العامة كيف يشاء . لذلك هي آلت على نفسها ألا تكون زائغة عن طاعته ولا معتلة بكذب .

تلك هي الروح التي بثها (دين التوحيد) في أجساد رجال تلك الأمة ونسائها ، فكانوا إذا رأوا (الوحدة) في اليوم الأبيض كان الواحد منهم صخرة في بنيانها ، وإذا وقعت الفرقة في اليوم الأسود التحق بعضهم بالجانب الذي يعتقد أن فيه الحق ، بعد استنفاد الجهد في السعي لإصلاح ذات البين ، وآثر البعض الآخر أن يعتزل الفتنة ، وأن يعتصم منها ولو بشناخيب الجبال .

---

(١) الدار الخضراء : قصر الخلافة بدمشق ، وكانت متصلة بالجدار القبلي من مسجد بني أمية في مكان الصاغة والقباقبية وحارة النقاشات الآن ، وفي بقعة منها اليوم (المصبغة الخضراء)

(١٣) ثبات عثمان بن عفان على الحق

لما أسلم أبو بكر رضى الله عنه دعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من وثق به ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان ، فحنق عليه عمه الحكم ، وأوثقه كتافا ، وقال : إنك تخرج عن ملة آبائك إلى دين محمد ، والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه ؛ فلما رأى الحكم صلابته فى الحق تركه .

(١٤) الشجاعة النادرة الباهرة

كل واحد هاجر من مكة إلى المدينة مختفيا إلا عمر ؛ فإنه تَقَلَّدَ سيفه ، وتَنَكَّبَ قوسه ، ومضى قبل الكعبة ــ والملأ من قريش بفنائها ــ فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة فواحدة ، وقال لهم : « شاهت الوجوه ؛ لا يرغم الله إلا هذه المعاطس . من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده ، وترمل امرأته ــ فليلقنى وراء هذا الوادى ؟ » فلم يتبعه أحد منهم ، وهاجر فى حمايته نحو عشرين من مستضعفى المسلمين بمكة .

(١٥) الاقدام العظيم

قد شهد الزبير المشاهد كلها مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وقاتل فى غزوة بدر قتالا شديدا حتى كان الرجل يدخل يده فى الجراح فى ظهره ، وفى غزوة أحد جعله النبى صلى الله عليه وسلم رئيس خيل بإزاء خالد بن الوليد . ومن يعرف مقدرة خالد الحربية يعرف مقدار ثقة النبى بمقدرة الفتى الزبير . وفى هذه الغزوة خرج رجل من المشركين على بعير له ، فدعا للبراز ، فأحجم عنه المسلمون حتى دعا ثلاثا . فقام إليه الزبير حتى استوى معه على البعير ، ثم عانقه ، فاقتتلا فوق البعير ، ومازال به حتى وقع على الأرض ، فوقع عليه وذبحه ، فسر النبى منه سرورا عظيما وقال : (لكل نبى حوارى ، وإن

حوارى الزبير .) ثم قال : لولم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه ، لما رأى من إحجام الناس عنه .

والزبير هو فاتح حصن بابليون المشهور ، فإنه لما أبطأ فتح مصر على عمرو بن العاص بعث إليه سيدنا عمر مددا على رأسه الزبير ، وعده عليه بألف رجل ، كما عد عليه المقداد وبطلين آخرين كل واحد منهم بألف رجل ، فلما طال الحصار الذى ضربه المسلمون على حصن بابليون قال الزبير : إنى أهب نفسى لله ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فأعد العدة لما عزم عليه ، ودك الخندق فى الموضع الذى اختاره للهجوم ، وكتم أمر الوقت الذى اختاره لذلك بمهارة غريبة ، ثم نفذ خطته بسرعة عجيبة تحت جنح الظلام ، فنصب سلما ، وأسنده إلى سور الحصن دون أن يلحظه العدو ، ثم تسلق السلم حتى أوفى على الحصن شاهرا سيفه بيده ، ونادى : الله أكبر . فهلعت قلوب من فى الحصن ، وأبدوا مقاومة لم تجدهم شيئا ، ورأى قوادهم أنه لا فائدة من المقاومة بعد هذه المباغتة ، فسلموا الحصن لعمرو . وكان الفضل فى ذلك لفتانا الزبير .

(١٦) الشجاعة الأدبية والاقدام

محاورة بين عبادة بن الصامت والمقوقس

بعث عمرو بن العاص عشرة نفر ، أحدهم عبادة بن الصامت ، لمفاوضة المقوقس ، وكان طول عبادة عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم ، وألا يجيبهم إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال . وكان عبادة أسود . فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ، ودخلوا عليه ـ تقدم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده ، وقال : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى . فقالوا جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا ، والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا

إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ! إنه - وإن كان أسود كما ترى - فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة ، وعقلا ، ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق ، فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك على ازددت لك هيبة . فتقدم إليه عبادة فقال :

قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سوادا مني ، وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ؛ وأنا قد وليت ، وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعا ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا حاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه . وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا ؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ؛ إنما النعيم والرخاء في الآخرة . بذلك أمرنا الله ، وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ، وإن قوله لأهيب عندي من منظره ، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ، وما أظن ملكهم إلا سيتغلب على الأرض كلها . ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال :

أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك . ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، ولقد توجه لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ممن لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به .

فقال عبادة : ياهذا ، لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ـ فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه إن كان ما قلتم حقا ، فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ؛ لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه . إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شىء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » : وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى بلده ، ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . وأما قولك : إنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ـ فنحن فى أوسع السعة : لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر فى الذى تريد فبينه لنا ؛ فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك

فى الباطل ، بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا :

إما إجابتكم إلى الإسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره ، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته - صلوات الله عليهم - أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا ، وكان أخانا فى دين الإسلام ، فإن قبلت أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم . وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شىء نرضاه نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ، إذ كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . وإن أبيتم فليس بيننا إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم .

فقال المقوقس : هذا لا يكون أبدا ، ما ترون إلا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا . فقال عبادة : هو ذلك ، فاختر ما شئت . فقال المقوقس : أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث ؟ فرفع عبادة يديه وقال :

لا ، ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء ، ما لكم عندنا خصلة غيرها ، فاختاروا لأنفسكم . فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه وقال : قد فرغ القوم فما ترون ؟ فقالوا :

أو يرضى أحد بهذا الذل ! : أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا ما لا يكون أبدا ، نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين لا نعرفه ! ! وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك ، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا . فقال المقوقس لعبادة : قد

أبى القوم فما ترى ؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون . فقام عبادة وأصحابه .

فقال المقوقس لأصحابه : أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث ، فوالله مالكم بهم طاقة ! ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبُنهم إلى ما هو أعظم كارهين . فقالوا : وأى خصلة نجيبهم إليها ؟ قال : إذا أخبركم : أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ؛ ولا بد من الثالثة . قالوا : فنكون لهم عبيدا أبدا !! قال : نعم : تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعون وتمزقون فى البلاد مستعبدين أبدا أنتم وأهلكم وذراريكم . قالوا : فالموت أهون علينا . وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة ، وبالقصر من جمع القبط والروم كثير ، فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم ، وأمكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير ، وأسر من أسر منهم ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة ، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه ، لا يقدرون على أن يتقدموا نحو الصعيد ، ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى ، والمقوقس يقول لأصحابه : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ، ما تنتظرون ؟ فوالله لتُجيبُنهم إلى ما أرادوا طوعا أو لتُجيبنهم إلى ما هو أعظم من ذلك كرها ، فأطيعونى من قبل أن تندموا . فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال ـ أذعنوا بالجزية ، ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه .

(١٧) سرعة الخاطر حين المخاطر

موسى الهادى وأحد الخوارج

ذكروا أن موسى الهادى كان يوما فى بستان، ومعه أهل بيته وخاصته، وهو راكب على حمار وليس معه سلاح، فدخل عليه حاجبه، وأخبره أن رجلا من الخوارج جىء به أسيرا، وكان الهادى حريصا على الظفر به، فأمر بإدخاله، فأدخل عليه بين رجلين قد أمسكا يديه. فلما رأى الخارجىُّ الهادى جذب يديه من الرجلين واستل سيف أحدهما ووثب نحو الهادى. ولما رأى ذلك مَنْ حول الهادى من أهله وخاصته فروا جميعا، وبقى الهادى وحده، فثبت على حماره بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف، قال الهادى: اضرب يا غلام عنقه! فالتفت الخارجى حين سمع ذلك فأسرع الهادى ووثب عن سرجه وقبض على الخارجى وانتزع منه السيف فذبحه به، ثم عاد إلى ظهر حماره وتراجع إليه أهله وبطانته يتسللون، وقد ملئوا رعبا وخجلا، فلم يخاطبهم فى ذلك الهادى بحرف واحد.

ولم يكن بعد ذلك يفارقه سيفه، ولم يركب إلا الخيل.

(١٨) المخاطرة بالنفس فى سبيل الجهر بالحق

روى زياد عن مالك بن أنس، قال: بعث أبو جعفر المنصور إلىّ وإلى ابن طاوس، فأتيناه، فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلاوذة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا، فجلسنا، فأطرق عنا قليلا، ثم رفع رأسه، والتفت إلى ابن طاوس، فقال له: حدثنى عن أبيك. قال: نعم: سمعت أبى يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ اللهُ فِى حُكْمِهِ فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ الْجَوْرَ فِى عَدْلِهِ) فأمسك ساعة.

قال مالك : فضممت ثيابى من ثيابه مخافة أن يملأنى من دمه . ثم التفت إليه أبو جعفر . فقال : عظنى يابن طاوس . قال : نعم : يا أمير المؤمنين ، الله تعالى يقول : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . . . إلى قوله : إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ »

قال مالك : فضممت ثيابى من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابى من دمه ، فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ، ثم قال : يابن طاوس : ناولنى هذه الدواة . فأمسك عنه ، ثم قال : ناولنى هذه الدواة . فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها ؛ فلما سمع ذلك قال : قوما عنى . قال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغى منذ اليوم ، قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله .

ومن باب المخاطرة بالنفس فى سبيل الجهر بالحق ما يأتى :

حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى بيت الله الحرام فلما دخل الحرم قال : ائتونى برجل من الصحابة . فقيل : يا أمير المؤمنين ، قد تفانوا قال : فمن التابعين ، فأتى بطاوس اليمانى ، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلم : يا أمير المؤمنين . ولم يكنه وجلس إلى جانبه بغير إذنه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله ، فقيل له : أنت يا أمير المؤمنين فى حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك . فقال : ياطاوس ، ما حملك على ما صنعت ؟ قال : وما صنعت ؟ قال : خلعت نعليك بحاشية بساطى ، ولم تسلم بيا أمير المؤمنين ، ولم تكننى وجلست بإزائى بغير إذنى ، وقلت : يا هشام ، كيف أنت ؟ فقال له :

أما خلع نعلى فإنى أخلعهما بين يدى رب العزة فى كل يوم خمس مرات ولا يعاتبنى ، ولا يغضب على ، وأما عدم تسليمى بأمير المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بإمرتك فخفت أن أكون كاذبا ، وأما قولك : لم تكننى -

فان الله عز وجل سمى أنبياءه فقال : يا داود ، ويا يحيى ، وياعيسى . وكنى أعداءه فقال : تبت يدا أبى لهب . وأما كونى جلست بإزائك فقد جاءنى الأثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : (إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام) ؛ فقال له : عظنى فقال له : جاءنى الأثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : (إن فى جهنم حيات وعقارب تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته .)

ومن الجهر بالحق ما يأتى :

لما قدم عبد الله بن على العباس الشام — وقد قتل من قتل من بنى أمية بعد ذهاب دولتهم — استدعى الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى وهو فى جنده وحشمه وقال له :

ماتقول فى دماء بنى أمية ؟

قال الأوزاعى : قد كانت بينك وبينهم عهود ، وكان ينبغى أن تفى بها .

قال الأمير : ويحك ، اجعلنى وإياهم لاعهد بيننا

قال الأوزاعى : فأجهشت نفسى وكرهت القتل ، فتذكرت مقامى بين يدى الله ، فلفظتها فقلت : دماؤهم عليك حرام ! فغضب عبد الله بن على وانتفخت عيناه وأوداجه فقال : ويحك ولمَ ؟ !

قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بإحْدَى ثَلاَثٍ : ثَيِّبٌ زَانٍ ، وَنَفْسٌ بِنَفْسٍ وَتَارِكٌ لِدِينِهِ)

قال : ويحك ، أليس الأمر لنا ديانة ؟ قلت : كيف ذاك ؟ قال : أوليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى ؟ قلت : لو أوصى لعلى ما حكم الحكمين ؟

فسكت وقد اجتمع غضبه . فجعلت أتوقع رأسى يسقط بين يديه . فأشار بيده هكذا ، وأومأ أن أخرجوه . فخرجت .

ومن هذه القصة يتجلى أمران : الأول أن عبد الله بن على ، وهو فى

ساعة تأسيس ملكه، وانتصاره على خصمه، واجتماع الأمر له، واضطرام النار تحت الرماد من أنصار الحكم السابق الذين ينتظرون أملا فى النجاح لينقضوا ويثوروا - اتسع صدره لاحتمال الجهر بالحق من الإمام الأعظم ولو أن أكبر حكيم فى فرنسا جادل وزيرا فرنسيا عند نشوب الحرب العظمى وأوضح له أن الألمان خير مما يزعمه فيهم ساسة فرنسا - مااحتمل ذلك منه ولأسلمه إلى محكمة عسكرية !!

الأمر الآخر : أن الإمام الأوزاعى الذى كان يعلم أن جهره بالحق يعرضه للقتل، وأجشت نفسه وكرهت القتل — لم يكتم حكم الله عند ماتذكر مقامه غداً بين يدى الله عز وجل.

ولا غرابة ؛ فالأوزاعى هو ذلك الطود من أطواد الإسلام الذى لما علم الثورى بمقدمه خرج إلى ملقاه وأخذ بخطام بعيره من القطار ووضعه على رقبته، وجعل إذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ !

حقا لوبقيت هذه الجرأة فى إعلان الحق فى علماء الإسلام إلى اليوم مابقى على وجه الأرض عاقل يتردد فى قبول هذا الدين والدخول فى هدايته، ولكنهم أضاعوا الإسلام فأضاعهم. ونسوا الله فأنساهم أنفسهم.

(١٩) مثل أعلى فى الاحتمال والصبر

النبى صلى الله عليه وسلم

قالت عائشة رضى الله عنها : مكثنا أربعة أيام ما طعمنا شيئا. فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياعائشة، هل أصبتم شيئا بعدى ؟ قلت : لا. فتوضأ، وخرج يصلى هاهنا مرة، وهاهنا مرة، ويدعو. فجاء عثمان رضى الله عنه آخر النهار فقال : أين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرته الخبر. فبكى. ثم خرج عثمان، وبعث لنا دقيقا وتمراً وغيره، ثم قال : هذا يبطىء

عليكم فأرسل خبزاً ولحما مشويا . ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل أصبتم شيئا ؟ فأخبرته بما فعله عثمان . فلم يجلس حتى خرج إلى المسجد ، ورفع يديه ، وقال : اللهم ، إني رضيت عن عثمان فارض عنه (ثلاثا) .

ومن باب الاحتمال

(ا) كان عبد الله بن مسعود غلاما يافعا ، يرعى غنما لعقبة بن أبي مُعَيْط فما أن بُعِثَ رسول الله حتى أتاه وطلب منه أن يعلمه من القرآن المنزل عليه ، وآمن ، وكان سادس شاب آمن به ، ولم يكن له عشيرة تمنعه ، فاشتد أذى قريش عليه ، فهاجر إلى الحبشة فيمن هاجر إليها أول مرة . ولما طلبت قريش من ملك الحبشة أن يسلم إليها هؤلاء اللاجئين لم يسلمهم إليها ، بل حماهم كما تحمى الدول اليوم اللاجئين السياسيين ، فعمدت إلى الحيلة ، فبعثت من أخبرهم أن قومهم كلهم أسلموا ، فصدّق هؤلاء اللاجئون ، وعادوا إلى وطنهم ، فلم يجدوا إلا الأذى ينتظرهم ، ولم يمكن واحداً منهم أن يدخل مكة إلا بعد أن يأخذ جوارا من كبير فيها ، وكلهم وجد جوارا إلا هذا الفتى المسكين ، فلم يمكنه أن يدخل مكة ويتمتع ولو يوما بوطنه ، فعاد إلى الحبشة ، وكان بهذا ممن حاز شرف الهجرتين إليها .

(ب) أسلم عمار بن ياسر وهو فتى قد جاز الثلاثين بقليل : أسلم مع صُهيب ؛ إذ وجده على باب دار الأرقم ، فقال له : ماتريد ؟ فقال له : وماتريد أنت ؟ فقال عمار : أريد أن أدخل على محمد ، وأسمع كلامه . فقال صُهيب : وأنا أريد ذلك . فدخلا وسمعا الدرس الذي يلقيه النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك الشبان ، فبهرهما كلامه ، وعرض عليهما الإسلام فأسلما ، وقد تقدمهما بضعة وثلاثون شابا .

ولما أسلم الفتى عمار أسلم أخوه ، وأبوه ، وأمه ؛ فيا لشد هول ما لاقت تلك الأسرة الغريبة المسكينة من قريش ، فكان عمار يعذب بالنار في رأسه

وظهره ، حتى بَرِصَ ظهره ، وصار أبيض من أثرها ، ومر به رسول الله وهو يعذب بالأبطح فى رمضاء مكة هو وأبوه وأمه . فقال : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة . واشتد العذاب بعمّار مرة ، وأكرهته قريش على أن يسب النبى ويذكر آلهتهم بخير ، فلما تركوه أتى رسول الله وهو يبكى ، فقال له : ما وراءك ؟ فقال : شر يا رسول الله ، وأخبره بما حصل منه ، فقال له : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنا بالإيمان . فقال له : فإن عادوا لك فعد لهم .

وعُذِّب ياسر حتى مات فى العذاب .

وكذلك ابنه عبد الله ، وأعطيت سميّة لأبى جهل ، فقال لها : ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله ؛ ثم طعنها فى قلبها فماتت . فقبّحه الله ما كان أقساه على أولئك الغرباء .

بقى إذن هذا الفتى من هذه الأسرة المسكينة ، فهاجر مع النبى إلى المدينة ، وشهد معه غزوة بدر وغيرها . وفى خلافة أبى بكر شهد قتال مسيلمة ورآه من حضر يوم اليمامة وقد أشرف على صخرة يصيح : يا معشر المسلمين ، أمن الجنة تفرون ؟ إلىّ إلىّ أنا عمار بن ياسر ، هلموا إلىّ ، وكانت أذنه فى ذلك الوقت تذبذب وهى مقطوعة من شدة ما قاتل . فيالله من هذا العزم الذى يهد الجبال ، وتخضع له أعناق الجبابرة !!

(ج) لم يكن لصهيب عشيرة فى مكة ، تمنع عنه أذى قريش ، فعذب عذابا شديدا كسائر إخوانه من الشبان المستضعفين . ولما أراد الهجرة إلى المدينة منعته قريش ، فافتدى منه نفسه بماله ؛ فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة قال له : رَبِحَ البيع يا أبا يحيى . وقد شهد مع رسول الله غزوة بدر ، وأحد ، والخندق ، والمشاهد كلها ، ويكفيه شرفا أن عمر لما ضربه أبو لؤلؤة أوصى أن يصلى عليه صهيب ، وأن يصلى بجماعة المسلمين ثلاثة أيام حتى يتفق أهل الشورى على من يكون خليفة . فما أعظم هذا الدين الذى يرفع مثل صهيب فى ضعفه وغربته ! وما كان أشد تواضع المسلمين واحترام بعضهم

لبعض ؛ ولعمر الحق إنهم لم يسودوا العالم إلا بهذه الصفات الجليلة التى ما شقينا إلا بفقدها . هذا وقد توفى صهيب سنة ٣٩ هجرية ودفن بالمدينة .

(د) أسلم خبَّاب بن الأرت وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وكان سادس ستة فى الإسلام ، فيا لهول ما لاقاه خبَّاب من قريش عموما . ومولاته أم أنمار خصوصا : كان المتعصبون من قريش يلصقون ظهر هذا الفتى الذى لا ناصر له فى مكة بالرَّضف[1] ، ويلبسونه درعا من الحديد ، ثم يصهرونه فى الشمس ، وكانت مولاته تأخذ الحديدة المحماة فتضعها على رأسه ، فيصبر على ذلك كله صبر الأبطال . وقد ذهب مرة مع إخوانه من الشبان المستضعفين إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يشكون إليه ما يلاقون من قريش فقالوا : لا تستنصر لنا . فجلس محمرا وجهه ، فقال : «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بالمنشار ، ويوضع على فرق رأسه فيشق ذلك عن دينه ، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخشى إلا الله عز وجل ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تعجلون » وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بدر من غزواته . ولما وقعت الحرب بين على ومعاوية كان من أنصار علىّ كأخيه عمار الذى كان يعذب معه .

وقد مات رحمه الله بالكوفة سنة ٣٧ هجرية ، وأوصى أن يدفن فى ظاهرها . وكان الناس إنما يدفنون موتاهم فى أفنيتهم ، وعلى أبواب دورهم ، فسنّ بذلك سنة حسنة تراعى الآن فى وضع المدافن بالمدن ، بعد أن تقدم الناس وعرفوا فائدة ذلك من علم الصحة .

(هـ) كان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وكان مملوكا للطُّفيل بن عبد الله أخى عائشة لأمها . أسلم وهو ابن ثلاث وعشرين سنة قبل أن يدخل

---

(١) الرضف : الحجارة المُحماة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، فكان سيده يعذبه على إسلامه حتى لا يدرى ما يقول ، فصبر على هذا العذاب ولم يرجع عن دين الإسلام . وقد اشتراه أبو بكر وأعتقه فيمن اشتراه وأعتقه من أولئك الشبان الأرقاء . الذين أسلموا وعذبتهم قريش بما يقشعر لهوله البدن .

(و) أسلم مصعب بن عمير بن هاشم وهو ابن أربع وعشرين سنة . وكان أنعم غلام بمكة ، وأجوده حُلَّة ، وأحسنه لمَّة ، وأطيبه عطراً ؛ فلما أسلم كتم إسلامه عن أهله . وبصر به شخص من الجامدين على القديم يصلى ، فأخبر أهله وأمه ؛ فلما علموا ذلك أخذوه وحبسوه ولم يزل محبوساً إلى أن هاجر منهم إلى الحبشة ، ثم عاد إلى المدينة ليفقه أهلها ويقرئهم القرآن . وقد كان يصيب أولئك الشبان فى مكة شظف العيش فيصبرون عليه ، ولا ينال منهم ما ينال ذلك الفتى الذى تربى فى ذلك النعيم بين أبويه ، فَجَهَد فى الإسلام جهداً شديداً ، وكان جلده يتحشف [1] كما يتحشف جلد الحية . وروى على ابن أبى طالب أنهم كانوا جلوسا مع رسول الله فى المسجد ، إذ طلع عليهم مصعب وما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو . فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه من النعمة والذى هو فيه اليوم .

(ز) كان سعد بن أبى وقاص فتى باراً بأمه ؛ لا يخالف لها أمراً ، ولا يغضبها أدنى غضب ، وأسلم فيمن أسلم من شبان قريش ، وبقيت الأم على شركها فيمن بقى من شيوخ قريش وعجائزهم ؛ فقالت : ياسعد ، ألست تزعم أن دينك الجديد يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين ؟ فقال لها : بلى . قالت : والله لا أكَلْتُ طعاما ، ولا شَرِبْتُ شرابا ، حتى تكفر بما جاء به محمد ، وتمس أسافا [2] ونائلة [3] (صنمين بمكة) ؛ ثم مكثت يوما وليلة لا تأكل

---

(١) يتقلص

(٢) إساف : صنم وضعه عمرو بن لحى على الصفا (٣) نائلة صنم على المروة

ولا تشرب حتى ساء حالها . فلما رأى سعد ذلك قال لها : تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفساً نفساً ، ما تركت دين هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلى إن شئت، أو لا تأكلى . فلما رأت ذلك أكلت ، ولكنها عمدت إلى حيلة أخرى ترجو نفعها :

هى أن تقتله تخلصاً من هذا العار فى زعمها ؛ فبينما هو ذاهب ذات يوم ، بعد أن صلى العشاء إلى البيت وجدها تصيح : ألا أعوان يعينوننى عليه من عشيرتى أو عشيرته ، فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ! فلما رأى ذلك رجع من حيث أتى ، وقال لها : والله لا أعود إليك ، ولا أقرب منزلك ، وهجرها زمنا يتضيف إخوانه ؛ فأثر ذلك فى نفسها أكثر مما أثر إسلامه . فأرسلت إليه : أن عد إلى منزلك ولا تتضيف فيلزمنا عار ، وتقول له : البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعاً . وتلك أنفة عربية ، وحمية جاهلية ، تركت أمر العرب فوضى قروناً عدة ، ليس لهم جامعة تجمعهم ولا رابطة تربطهم ، وكان حالهم فى تلك العصور كحال سكان أواسط إفريقية اليوم ، حتى عير كسرى بهم النعمان بن المنذر فيما جرى بينهما من الحديث المشهود.

ولقد كان كسرى على حق فى تفضيله الشعوب المتمدينة فى تلك العصور ، من فرس ، وروم ، وهنود ، وصينيين - على الشعب العربى الذى كان مثالا للفوضى والهمجية وقتئذ .

ولولا أن الله رحم العرب بالإسلام ، فقيد من تلك الحرية التى تجنح إلى الفوضى وعدم الإذعان للحق والنفور من التبعية لأى مخلوق كان ، ولو كان خليفة راشدا ، أو ملكا عادلا - لظلوا على تلك الحال التى عير كسرى بها النعمان ، وما كان لهم ذلك الملك الكبير ، وتلك الحضارة الراقية .

ثم أسلم عامر أخو سعد ، وأثر فيه موقف أخيه ، فتضاعفت مصيبة الأم ، وعادت إلى الحيلة التى جربتها وخابت فيها : فأضربت عن الطعام والشراب ،

ومضى الأخوان فى إسلامهما لا يسألان عنها ، وبقيت هى على شركها الذى شاخت عليه ، وصعب عليها أن تفارقه .

كان سعد هذا أول من أراق الدم فى سبيل الدعوة الإسلامية :

ذلك بأنه مكث النبى سنين يدعو إلى الإسلام فى هدوء ، والناس معرضون عنه ، لا تهمهم تلك الدعوة الهادئة ؛ وتأثير هذه الدعوة بطىء لا يجذب إلا شاباً من هنا وفتى من هناك ، ولا بد أن تحتك الأفكار ، ويرن صدى الدعوة فى الآذان ، ويكون هناك مقاومة شديدة لها تكون هى السبب فى إذاعتها ، وخلق أنصار لها ، فمن ينال شرف البدء بالقتال فى سبيل تلك الدعوة الطاهرة لتنتقل من الخفاء إلى الظهور وتنال ما قدر لها من الانتصار ؟

أدرك ذلك الشرف سعد : فبينما هو ونفر من أصحاب الرسول فى شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل من العظام المنثورة هنا وهناك ، فشجه ؛ وكان ذلك أول دم أريق من المشركين فى تأييد الدعوة الإسلامية ، وفاتحة الحروب الكثيرة التى اضطر إليها الإسلام ، بعد أن سلك فى دعوته سبيل الحسنى فقوبل بالإساءة ، وطريق اللين فنوهض بالشدة .

ثبات سعد النادر

كانت غزوة أحد فى السنة الثالثة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها أمر النبى الرماة من أصحابه ألا يبرحوا مكانهم : نصر المسلمون على المشركين أو غلبوا . ثم دار القتال بين الفريقين ورجحت كفة المسلمين ، وانهزم المشركون ؛ فأخذ المسلمون يجمعون ما تركوا من غنائم . ورأى الرماة ذلك ، فانطلقوا أيضا يجمعون المال ، ونسوا أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكشفوا بذلك ظهر المسلمين ؛ ورآها فرصة سانحة ذلك القائد الباسل الخبير خالد بن الوليد — وكان لم يسلم إلى ذلك الوقت — فأتى المسلمين من

ورائهم وأخذهم على غرة وهم مشتغلون بجمع الغنائم ، فدهشوا ، وفر كثير منهم بعد أن كثر القتل فيهم ، وأشيع أن النبي قد قتل ، وهو بعد ثابت فى نفر قليل من أصحابه ، والسهام تصيبه من هنا وهناك ، وأصابه حجر فكسر رباعيته اليمنى وشق شفته السفلى ؛ وكان من ذلك النفر القليل سعد ، فلندعه يحدث عن نفسه فى ذلك الموقف الخطر ، قال :

قد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يناولنى النبل ويقول : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحَزَوَّرُ (القوى) ، فرميت فى ذلك اليوم ألف سهم ، ما منها سهم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ارْمِ فداك أبى وأمى .

وفى رواية عنه قال : أجلسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه ، فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم عدوك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم استجب لسعد ، اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته ، فكان مجاب الدعوة طول حياته ، حتى أنه لما سعى به نفر من الكوفة إلى عمر بن الخطاب فى خلافته أرسل جماعة يسألون عنه ، فكلما سألوا رجلا قال : خيرا وأثنى عليه معروفا ، حتى سألوا رجلا يقال له أبو سعدة ، فقال : إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية . فلما بلغ سعدا ذلك قال : اللهم ، إن كان كاذبا فأطل عمره ، وأدِمْ فقره ، وأعْمِ بصره ، وعرّضه للفتن . فبقى ، وافتقر ، وكبرت سنه ، فصار يتعرض للإماء فى سكك الكوفة ، فإذا قيل له : كيف أنت يا أبا سعدة يقول : شيخ كبير فقير مفتون أصابتنى دعوة سعد .

ومن باب الصبر والاحتمال :

أن عروة بن الزبير خرج إلى الوليد بن يزيد ، فوطىء عظما فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب ، فجمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم على قطع رجله ، فقالوا له : اشرب مرقدا فقال : ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى . فأحمى له المنشار وقطعت رجله ، فقال : ضعوها بين يدى

ولم يتوجع ثم قال : لئن كنت ابتليت فى عضو فقد عوفيت فى أعضاء . فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده ، اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات فقال : الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحدا لقد أبقيت جماعة ! !

وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال : خرجت مع رفقة مسافرين ، ومعى مالى وعيالى ولا أعلم عبسيا يزيد ماله على مالى ، فعرسنا فى بطن واد فطرقنا سيل ، فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبى صغير و بعير فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير فسمعت صيحة الصغير ، فرجعت إليه فاذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه ، فرجعت إلى البعير فحطم وجهى برجليه فذهبت عيناى ، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل ، فقال الوليد : اذهبوا به إلى عروة ؛ ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه .

مثل رائع فى ضبط النفس

قال مجاهد : قال لى عمر بن عبد العزيز : ما يقول الناس فى ؟ قلت : يقولون : مسحور . قال : ما أنا بمسحور ، وإنى لأعلم الساعة التى سقيت فيها ، ثم دعا غلاماً له فقال له : ويحك ! ما حملك على أن تسقينى السم ؟ قال ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق ، فقال له : هاتها فجاء بها فألقاها فى بيت المال . وقال : اذهب حيث لا يراك أحد .

وهذا منتهى الشهامة والمروءة ؛ لأنه لو أراد ذلك الخليفة أن يقتص من ذلك المجرم الأثيم الذى تعمد قتله واعترف بجريمته ـ لكان أقل عقاب له الإعدام ، لا أن يطلق سراحه حرا ويعفو عنه ؛ وما سمع الناس بأشرف ولا بأكرم من هذا الخليفة العظيم الذى دل بعمله هذا على أنه ملك فى جسم إنسان وأن طبيعته البشرية ممتازة بشريف الخصال

ومن باب ضبط النفس :

ماحكى عن جعفر الصادق رضى الله عنه ـ أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطست ، فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفر إليه نظر مغضب ، فقال : يامولاى ، والكاظمين الغيظ . قال : قد كظمت غيظى ، قال : والعافين عن الناس ، قال : قدعفوت عنك قال : والله يحب المحسنين . قال : اذهب فأنت حر لوجه الله الكريم.

(٢١) النفوس العالية تأبى النزول عن مكانها

دخل الخليفة هرون الرشيد الحرم ليطوف بالكعبة ، ومنع الناس من الطواف حتى يخلو المكان للخليفة وحده . فسبقه أعرابى وجعل يطوف معه ، فاغتاظ أمير المؤمنين ، والتفت إلى حاجبه ، يريد بذلك أن يمنع الرجل . فكلمه الحاجب ، فقال له الأعرابى : إنّ الناس سواء فى هذا المكان . فلما سمع منه الرشيد ذلك أمر حاجبه بتركه . فكان كلما أراد الخليفة أن يعمل شيئاً تقدم الأعرابى وسبقه . فلما انتهى الخليفة من الطواف والصلاة أرسل إلى الأعرابى ليجىء إليه . فقال الأعرابى : لاحاجة لى به ؛ فإن كان هو يحتاج إلىّ وجب عليه المشى إلىّ . فغضب حاجب الخليفة ، وحكى لأمير المؤمنين ماسمعه من الرجل . فقال الخليفة : إنه صادق فيما يقول ، وعلينا أن نمشى إليه . فقام حتى وقف بجوار الأعرابى ، وقال له : السلام عليك . فرد عليه السلام . ثم سأله الخليفة وقال له : ياأخا العرب ، أجلسُ هنا بأمرك ؟ فقال له الأعرابى : ليس البيت بيتى ، وإنما هو بيت الله ، وكلنا فيه سواء . فدهش الخليفة من جوابه ، لعله أنه ماكان لأحد أن يجيب أمير المؤمنين بمثل هذا الجواب ، غير أنه أظهر له الحلم ولم يغضب منه ، وجلس بجانبه ، ثم أخذ يسأله عن أشياء كثيرة ، فأجابه عنها ، فسُرّ منه الرشيد ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولكن هذا الرجل لم يقبلها منه . فسأله عن

أهله وبلده ، فعلم بعد ذلك أنه سيدنا موسى الرضا بن جعفر الصادق بن محمد ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

(٢٢) اعتزاز العالم بمكانته

ورد أبو نصر الفارابي إلى دمشق على سيف الدولة بن حمدان وهو إذ ذاك سلطانها فلما دخل عليه وهو بزى الأتراك وكان ذلك زيه دائما وقف ، فقال له سيف الدولة : اجلس . فقال : حيث أنا أو حيث أنت ؟ فقال حيث أنت . فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارُّهم به ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وإني مسائله عن أشياء إن لم يعرفها فاخرجوا به . فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير صبرا ، فإن الأمور بعواقبها . فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقى يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون مايقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك في أن تأكل ؟ قال : لا . قال : فهل لك أن تشرب ؟ قال : لا . فقال : هل تسمع ؟ قال : نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر في الصنعة بأنواع الملاهى فخطَّأ الجميع . فقال له سيف الدولة : هل تحسن هذه الصنعة ؟ قال : نعم . ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها ، فضحك كل من بالمجلس . ثم فكها وركبها تركيبا آخر فبكى كل من في المجلس ، ثم فكها وغيَّر تركيبها وحركها فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج .

وهو الذي وضع القوانين وكان منفردا بنفسه لا يجالس الناس ، وكان مدة إقامته بدمشق لا يكون غالبا إلا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض .

وهناك يؤلف كتبه ، وكان أزهد الناس فى الدنيا ، لا يحتفل بأمر مسكن ولا مكسب ، وسأله سيف الدولة فى مرتب من بيت المال . فقال : يكفينى أربعة دراهم . ولم يزل على ذلك إلى أن توفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق ، وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه ، وقد ناهز ثمانين سنة .

(٢٣) نفسٌ عظيمة وقلبٌ شريحٌ

لما ولى عمر بن عبد العزيز خرج ليلة ومعه حرسىّ فدخل المسجد ، فمر فى الظلمة برجل نائم ، فعثر به ، فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون أنت ؟ قال : لا . فهمّ به الحرسى . فقال له عمر : مَهْ ؛ إنما سألنى : أمجنونٌ أنت فقلت : لا !!

(٢٤) الزهد الحق

يكون الرجل ناسكا فى زماننا إذا أظهر الخشوع فى مشيته ، ورئيت أمارات الذلة والمسكنة فى وجهه ، إلى غير ذلك من الأمور التى تدعو إلى الكسل ، ولكن زهد عمر وسائر أصحاب رسول الله لم يكن من هذا الضرب المتكلف ، بل إن عمر رضى الله عنه كان ينكر من يتظاهر بذلك فى خلافته ، ورأت الشفقة بنت عبد الله فتيانا يقصدون فى المشى ويتكلمون رويدا ، فقالت : « ماهذا ؟ » قالوا : نساك . فقالت : « كان والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو والله ناسك حقا » فهذا كان نسكه - رضى الله عنه - نشاطاً فى كل شىء ، وحزما ، وجدا ، واجتهادا ، وبه غلبوا العالم ، وأسسوا هذا الملك العظيم ، لا بهذا الكسل الذى نسميه ظلما نسكا .

(٢٥) تحرى مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد قد

أطاف به أصحابه ، إذ أقبل على بن أبى طالب ، فوقف ، فسلم ، ثم نظر مجلسا يشبهه . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجوه أصحابه : أيهم يوسع له ، فكان أبو بكر جالسا على يمين النبى صلى الله عليه وسلم ، فتزحزح له عن مجلس وقال : هاهنا يا أبا الحسن . فجلس بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أبى بكر . قال أنس : فرأيت السرور فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر ، فقال : « يا أبا بكر ، إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل »

مظاهر الخلال الاجتماعية

(١) — أجل مثل فى الشعور بالمسئولية

قال عبد الرحمن بن عوف : دعانى عمر بن الخطاب ذات ليلة وقال : قد نزل بباب المدينة قافلة ، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرق شىء من متاعهم . فمضيت معه . فلما وصلنا قال لى : نم أنت ، ثم أنه جعل يحرس القافلة طول ليلته .

ومنه ما ورد عن الأوزاعى : أن عمر بن الخطاب خرج فى سواد الليل ، فرآه طلحة . فذهب عمر ، فدخل بيتا ، ثم دخل بيتا آخر . فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يجىء إليك ؟ قالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا ، يحضر لى ما يصلحنى ، ويخرج عنى الأذى . فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ! لعثرات عمر تتبّع !

ومنه ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ليلة من الليالى يطوف ويتفقد أحوال المسلمين ، فرأى بيتا من الشعر مضروبا لم يكن قد رآه بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلا قاعداً فدنا منه ، وقال له : من الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية ، قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله . قال فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تتمخض قد أخذها الطلق . قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا . قال : فانطلق عمر والرجل لا يعرفه ، فجاء إلى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما : هل لك فى أجر قد ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تتمخض ليس عندها أحد . قالت : إن شئت . قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن ، وأنت بقدر وشحم وحبوب . فجاءت به . فحمل القدر ، ومشت خلفه حتى البيت . فقال : ادخلى إلى المرأة . ثم

قال للرجل : أوقد ناراً . ففعل . فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها ، والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضجها . وولدت المرأة . فقالت أم كلثوم رضى الله عنها : ياأمير المؤمنين ، بشّر صاحبك بغلام . فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال : واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين اهكذا تفعل بنفسك ؟ قال : يا أخا العرب ، من ولى شيئا من أمور المسلمين ينبغى له أن يطلع على صغير أمرهم وكبيره ، فإنه عنه مسئول ، ومتى غفل عنه خسر الدنيا والآخرة . ثم قام عمر رضى الله عنه ، وأخذ القدر وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة . فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم . فقال عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما يبقى فى البرمة ، وفى غد ائت إلينا . فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به وانصرف .

ومما يلحق بهذا الباب ما قيل من أن عمر بن عبد العزيز دخل مرة على زوجته فاطمة يسألها اذا كان معها درهم يشترى به عنباً ، فأجابته سلبا ، وكان هو أيضا لا يملك ذلك الدرهم ، فسألته فى دهشة : هل يعقل أن أمير المؤمنين لا يملك درهما يشترى به عنبا ؟ قال : إن ذلك خير من أن يعذب فى النار .

وما ورد عن وهب بن الورد أنه قال : اجتمع بنو مروان إلى باب عمر ابن عبد العزيز ، فقالوا لابنه عبد الملك : قل لأبيك : إن من كان قبله من الخلفاء كان يعطينا ويعرف لنا موضعنا ، وإن أباك قد حرمنا ما فى يديه . فدخل على أبيه ، فأخبره ، فقال لهم : إن أبى يقول لكم : «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»

وما رواه عمر بن ذر إذيقول : لما رجع عمر بن عبد العزيز من جنازة سليمان قال له مولاه : مالى أراك مغتما قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلىّ فيه ولا طالبه منى .

(٢) — المحافظة على مال الدولة

قال فرات بن السائب : قال عمر بن عبد العزيز لامرأته فاطمة بنت عبد الملك وكان لديها جواهر أمر لها بها أبوها لم ير مثلها فى النفاسة وعلو القيمة: اختارى أحد أمرين : إما أن تردى حليك إلى بيت المال ، وإما أن تأذنى لى بفراقك ؛ فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد . قالت : لا . بل أختارك عليه وعلى أضعافه . فأمر به ، فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر واستخلف يزيد قال لفاطمة : إن شئت رددته إليك . قالت : لا . والله لا أطيب به نفسا فى حياته وأرجع فيه بعد مماته !!

(٣) — مثل أعلى للحاكم

فى المحافظة على ما تملكه الدولة ومنع أقاربه عن الانتفاع بجاهه

عن على بن أبى رافع قال : كنت على بيت مال على بن أبى طالب وكاتبه ، فكان فى بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ، فأرسلت إلى بنت على ابن أبى طالب فقالت لى : إنه بلغنى أن فى بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ وهو فى يدك ، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به فى يوم الأضحى ؛ فأرسلت إليها : عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين . فقالت : نعم عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام . فدفعته إليها ، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه . فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت : استعرته من ابن أبى رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين ؛ لأتزين به فى العيد ثم أرده . فبعث إلىّ أمير المؤمنين فجئته ، فقال لى : أتخون المسلمين يا بن أبى رافع ؟ فقلت : معاذ الله أن أخون المسلمين ! فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنها بنتك وسألتنى أن أعيرها العقد تتزين به ، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة ، على أن ترده سالما إلى موضعه . فقال : رده من يومك . وإياك أن تعود لمثله فتنالك عقوبتى . ثم قال :

ويل لابنتى ! لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة لكانت إذاً أول هاشمية قطعت يدها فى سرقة . فبلغت مقالته ابنته ، فقالت له : ياأمير المؤمنين ، أنا ابنتك وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه منى ؟ فقال لها : يابنة ابن أبى طالب ، لاتذهبى بنفسك عن الحق ، أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين فى مثل هذا العيد بمثل هذا ؟ فقبضته منها ، ورددته إلى موضعه .

ومن باب فرط المحافظة على مال الدولة ما يلى : لما ولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز قدم إليه صاحب المراكب مركب الخليفة فأبى ، وقال ائتونى ببغلتى .

وقال الحكم بن عمر : شهدت عمر بن عبد العزيز حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها قال : ابعث بها إلى أمصار الشام يبيعوها لمن يريد ، واجعل أثمانها فى مال الله ؛ تكفينى بغلتى هذه الشهباء .

وروى المؤرخون أن أم كلثوم ابنة الإمام على وزوجة سيدنا عمر بعثت إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء وغير ذلك ودسته فى البريد فأبلغه لها ، فجمعت امرأة هرقل نساءها وقالت : هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم ، ثم أهدت لها ، وفيما أهدت لها عقد فاخر ، ولما انتهى به البريد إلى عمر أمره بإمساكه ، ودعا الصلاة الجامعة ، فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين ، وقال : إنه لا خير فى أمر أبرم من غير شورى ، ثم أخبرهم الخبر ، وسألهم عن أمر العقد : فكلهم أشار بدفعه إلى أم كلثوم ، فقال عمر : ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم . قال هذا ، وأمر برده إلى بيت المال ، ورد على أم كلثوم منه على قدر نفقتها .

(٤) — شدة التحرز

من استخدام مال الدولة فى المصلحة الخاصة

يقال : إن عمر بن عبد العزيز كان ينظر ليلا فى قصص الرعية فى ضوء السراج ، فجاء غلام له ، فحدثه فى شأن خاص بالأمير . فقال له عمر : أطفىء السراج ، ثم حدثنى ؛ لأن هذا الدهن من بيت مال المسلمين ، ولا يجوز استعماله إلا فى أشغال المسلمين ! !

وعن الفهرى عن أبيه قال : كان عمر بن عبد العزيز يقسم تفاح الفىء ، فتناول ابن له صغير تفاحة ، فانتزعها من فيه ، فأوجعه ، فسعى إلى أمه ، فأرسلت إلى السوق ، فاشترت له تفاحا . فلما رجع عمر وجد ريح التفاح ، فقال: يا فاطمة : هل أتيت شيئا من هـذا الفىء ؟ قالت : لا ، وقصت عليه القصة . فقال : والله لقـد انتزعتها من ابنى لكأنما انتزعتها من قلبى ، لـكن كرهت أن أضيع نفسى بتفاحة من فىء المسلمين .

(٥) ـ ما أحوجنا إلى حكام يجيعون أنفسهم ليشبعوا رعيتهم

روى أن عمر رضى الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عُمير بن سعد ، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضى الله عنه : أن أقـدم علينا . فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشيا حافيا عكازته بيـده وأدواته ومزوده وقصعته على ظهره . فلما نظر إليه عمر قال له : ياعمير ، أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ، قال له : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوانا لقيته ، ومزودا أحمل فيـه طعامى ، وإداوة أحمل فيها ماء لشربى ولطهورى ، وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسى

وآكل فيها طعامى ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معى.

فقام عمر رضى الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فبكى بكاء شديدا ، ثم قال : اللهم ألحقنى بصاحبى غير مفتضح ولا مبدل . ثم عاد إلى محله فقال : ما صنعت فى عملك يا عمير؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لأتيتك به . فقال عمر : عد إلى عملك ياعمير. قال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردنى إلى أهلى فأذن له ، فأتى أهله ، فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار وقال له : اختبر لى عمير وانزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله : أهو فى سعة أم ضيق ؟ فإن كان فى ضيق فادفع إليه مائة الدينار . فأتاه حبيب فنزل به ثلاثا ، فلم ير له عيشا إلا الشعير والزيت ، فلما مضت ثلاثة أيام قال : ياحبيب ، إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشا منا ؛ فإننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به . قال : فدفع إليه مائة الدينار وقال : قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعا بفَرْو خَلَق لامرأته فجعل يَصرمنها خمسة الدنانير والستة والسبعة ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها ، فقدم حبيب على عمر وقال : جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير ، فأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين فقال : يا أمير المؤمنين ، أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوسقان فلا حاجة لى بهما ؛ عند أهلى صاع من بر هو كافيهم حتى أرجع إليهم ! !

(٦) – العدالة تنشر الطمأنينة

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

أرسل قيصر رسولا إلى عمر بن الخطاب ؛ لينظر أحواله ويشاهد أفعاله .

فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال: أين ملككم؟ فقالوا: ما لنا ملك، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة. فخرج الرسول فى طلبه، فرآه نائما فوق الرمل، وقد وضع درّته كالوسادة. فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع فى قلبه وقال: رجل يكون جميع الملوك لايقر لهم قرار فى هيبته، وتكون هذه حالته! ولكنك يا عمر عدلت فنمت. وملكنا يجور، فلا جرم أنه لا يزال ساهرا خائفا.

(٧) — العدل العالى

روى أنسٌ قال: بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعد إذ جاءه رجلٌ من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك. فقال عمر: لقد عذت بمجير فما شأنك؟ قال: سابقت على فرس ابنا لعمرو بن العاص — وهو يومئذ أمير على مصر — فسبقته. فجعل يقمعنى بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عمرًا أباه، فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلتُّ منه، فهذا الحين جئتك. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان. وقال للمصرى: أقم حتى يجىء. فقدم عمرو، فشهد الحج. فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصرى، فرمى إليه عمر رضى الله عنه بالدرة. قال أنس: ولقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين!! قال: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت واشتفيت. قال: ضعْها على صلعة عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين، قد ضربت الذى ضربنى قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد، حتى تكون أنت الذى تنزع. ثم قال: يا عمرو، متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إنى لم أشعر بهذا.

(٨) — التشدد فى العدالة تثبيتاً لمبدإ المساواة

أسلم (١) جبلة بن الأيهم فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . واتفق أن جبلة كان يطوف يوماً بالبيت ، فداس أعرابىٌّ من فزارة على طرف ردائه ، فلطم الفزارىّ على وجهه لطمة شديدة ، فاستعدى عليه عمر ، فقال له عمر رضى الله عنه : دعه يقتصّ منك (أو ما هذا معناه) . فقال لعمر : وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟ فقال له : نعم الإسلام سوى بينكما . فقال جبلة : أجّلنى إلى غد . فلما أصبح مضى إلى قيصر ملك الروم وارتد ؛ ثم ندم وقال هذه الأبيات :

تنصرت الأشراف من عار لطمة … وما كان فيها ـ لو صبرت لها ـ ضرر
تكنفنى منها لجاجٌ ونخوةٌ … فبعت بها العين الصحيحة بالعَوَر
فياليت أمى لم تلدنى ، وليتنى … رجعت إلى الأمر الذى قاله عُمر
وياليتنى أرعى المخاض بقفرة … وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة … أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ولما تنصّر جبلة بن الأيهم ، ولحق بهرقل صاحب القسطنطينيّة ـ أقطعه هرقل الأموال والضياع ، وبقى ما شاء الله .

(٩) — فرط الحرص على كرامة العدالة

أتت امرأة يوما شريك بن عبد الله قاضى الكوفة ، وهو فى مجلس الحكم ، فقالت : أنا بالله ثم بالقاضى . قال : من ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين : كان لى بستان على شاطىء الفرات فيه نخل ورثته عن أبى ، وقاسمت إخوتى وبنيت بينى وبينهم حائطا ، وجعلت فيه

---

(١) هو آخر ملوك بنى غسان ، وهم العرب الذين كانوا يسكنون فيما يلى حدود الشام ، وكانوا تابعين لدولة الروم .

رجلا فارسيا يحفظ النخل ويقوم به . فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتى ، وساومنى ورغبنى فلم أبعه . فلما كان هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل ، فاقتلعوا الحائط . فأصبحت لا أعرف من نخلى شيئا ، واختلط بنخل إخوتى . فقال : يا غلام ، أحضر طينة . فأحضرت فختمها وقال : امضى إلى بابه حتى يحضر معك .

فجاءت المرأة بالطينة المختومة ، فأخذها الحاجب ودخل على موسى فقال : قد أعدى القاضى عليك وهذا ختمه . فقال : ادع لى صاحب الشرطة . فدعا به . فقال : امض إلى شريك ، وقل : ياسبحان الله ! ما رأيت أعجب من أمرك ! امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علىَّ . قال صاحب الشرطة : إن رأى الأمير أن يعفينى من ذلك . فقال : امض ، ويلك ! فخرج وقال لغلمانه : اذهبوا واحملوا إلى حبس القاضى بساطا وفراشا وما تدعو الحاجة إليه . ثم مضى إلى شريك . فلما وقف بين يديه أدّى الرسالة ، فقال لغلام المجلس : خذ بيده فضعه فى الحبس . فقال صاحب الشرطة : والله قد علمت أنك تحبسنى ، فقدمت ما أحتاج إليه فى الحبس . وبلغ موسى بن عيسى الخبر ، فوجّه الحاجب إليه وقال له : رسولٌ أدّى رسالة ، أى شىء عليه ؟ فقال شريك : اذهبوا به إلى الحبس مع رفيقه ، فحبس . فلما صلى الأمير موسى العصر بعث إلى إسحق بن الصباح الأشعثى ، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضى شريك وقال لهم :

أبلغوه السلام ، وأعلموه أنه قد استخفّ بى ، وأنى لست كالعامة . فمضوا إليه وهو جالسٌ فى مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة . فلما انقضى كلامهم قال لهم : مالى أراكم جئتمونى فى غبرة من الناس فكلمتمونى ؟ من هاهنا من فتيان الحى ؟ فأجيب : جماعة من الفتيان . فقال : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس ، ما أنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس . قالوا له : أجادٌ أنت ؟ قال : حقا ، حتى لا تعودوا لرسالة ظالم . فحبسهم .

فركب موسى بن عيسى فى الليلة إلى باب السجن ، وفتح الباب وأخرجهم كلهم .

فلما كان من الغد وجلس شريك للقضاء جاءه السجان فأخبره ، فدعا بالقمطر فختمه ووجه به إلى منزله ، وقال لغلامه : الحق بثقلى إلى بغداد ؛ والله ما طلبنا هذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ؛ ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز ، إذ تقلدناه لهم . ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد . وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى ، فركب فى موكبه فلحقه . وجعل يناشده الله ويقول : يا أبا عبد الله ، تثبّت ، انظر إخوانك تحبسهم دع أعوانى ! قال : نعم ؛ لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه ، ولست ببارح أو يردّوا جميعا ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى فاستعفيته مما قلدنى . فأمر موسى بردهم جميعا إلى الحبس ، وهو واقف والله مكانه حتى جاء السجان فقال : قد رجعوا جميعا إلى الحبس . فقال لأعوانه : خذوا بلجام دابته بين يدى إلى مجلس الحكم . فروا به بين يديه حتى أُدْخِلَ المسجد ، وجلس شريك فى مجلس القضاء ، فجاءت المرأة المتظلمة ، فقال : هذا خصمك قد حضر . فقال موسى : (وهو والمرأة بين يديه) : قبل كل أمر ، أنا قد حضرت ، فأولئك يخرجون من الحبس. فقال شريك : أما الآن فنعم : أخرجوهم من الحبس . ثم قال : ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟ قال : صدقت . قال: ترد ما أخذت منها ، وتبنى حائطها سريعا كما كان . قال : أفعلُ ذلك . قال لها : أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت : بيت الرجل الفارسى ومتاعه . قال موسى بن عيسى : ويرد ذلك كله . ثم قال أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وبارك الله عليك وجزاك خيرا . قال : قومى . فقامت

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه وقال : السلام عليك أيها الأمير . أتأمر بشىء ؟ فقال : أى شىء آمر وضحك . فقال له شريك : أيها الأمير ، ذاك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب .

فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه وهو يقول : من عظم أمر الله أذل الله له عظماء خلقه !!

(١٠) – مثل نبيل من أمثال العدالة

حدث الشيباني قال : جلس المأمون يوما للمظالم . فكان آخر من تقدم إليه – وقد همّ بالقيام – امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة . فوقفت بين يديه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فنظر المأمون إلى يحي بن أكثم . فقال لها يحي : وعليك السلام ، يا أمة الله تكلمي فى حاجتك . فقالت :

ياخير(١) منتصف يهدى له الرّشد ... ويا إماما به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ القوم أرملةٌ ... عدا عليها ، فلم يُترَكْ لها سبدُ
وابتزّ منّى ضياعى بعد منعتها ... ظلما ، وفرّق منى الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً . ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دون ماقلت زال الصبرُ والجلدُ ... عنّى ، وقرّح منى القلب والكبدُ
هذا أذان صلاة العصر ، فانصرفى ... وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعِدُ
والمجلس السبت ، إن يقضَ الجلوس لنا ... ننصفْكِ منه . وإلا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة . فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال : وعليك السلام . أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومأت إلى العباس ابنه . فقال : يا أحمد بن أبى خالد خذ بيده ، فأجلسه معها مجلس الخصوم فجعل كلامها يعلو كلام العباس . فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فاخفضى صوتك . فقال المأمون :

---

(١) يصح أن يكون للقصة أصل بيد أن الشعر تظهر عليه الصنعة

دعها ياأحد ، فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها . وظلم العباس بظلمه لها . وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغر (١) لها ضيعتها ، ويحسن معاونتها ، وأمر لها بنفقة .

(١١) ــ روح المساواة

قد كان أصحاب رسول الله كلهم متشبعين بروح المساواة ، لا يبلغ أحد مابلغوه فى تواضعهم للناس ، واحتقارهم كل تعاظم وتغال فى الملابس والمآكل والمشارب وغيرها . وكيف لا يكونون كذلك ، وقد رباهم رسول الله على هذه الخلة القويمة ، وكان ينهاهم أن يقوموا ويغالوا فى تعظيمه كما تفعل الأعاجم مع ملوكها .

وإنا نذكر أمثلة من روح المساواة عند أبى بكر ، الذى امتد حكمه على جزيرة العرب : حجازها ، وتهامتها ، ونجدها ، وغير هذا من أقطارها ، وعلى العراق والشام ، وصاحب الجيوش الظافرة المدوخة جيوش الأكاسرة والقياصرة .

ونؤكد لمن يتغنون «بديموقراطية» الغرب من شباننا ، أن هذه الديموقراطية التى سنذكرها لم يصل إليها فى الغرب ، ملك ، ولا رئيس جمهورية ، ولا وزير ولا مدير ، وإنما كل الذى يروونه ويتغنون به مظاهر ديموقراطية كاذبة ، ينطوى تحتها أفظع ضروب «الأرستقراطية» المتأصلة فى نفوس الغرب من قديم الزمان . ولم تصل الى ملوك بنى أمية الذين ظهروا فى الإسلام بمظهر «الأرستقراطية» إلا بطريق العدوى منهم لمجاورتهم لهم بالشام . وقد أنكر عمر رضى الله عنه فى خلافته على معاوية الذى صار أول ملوك بنى أمية ــ ظهوره بهذا المظهر «الأرستقراطى» ، وكان واليا على الشام ، فاعتذر له معاوية بأنه فى وسط الروم الذين لا يحترمون الرجل إلا إذا ظهر بهذا المظهر . فلما صار ملكا استمر ظاهرا به ، وتبعه فى ذلك ملوك بنى أميه ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز

---

(١) يجعلها من غير خراج

رحمه الله . وقد تبع ملوك بنى أمية فى ذلك ملوك بنى العباس وغيرهم :

ا ـ كان أبو بكر تاجراً قبل خلافته ، فلما صار خليفة لم يغير هذا من نفسه شيئا ، بل شرع يغدو إلى السوق ، فيعامل آحاد الناس ، ويبيع ويشترى ، كأنه واحد منهم وليس حاكما عليهم ، إلى أن أشير عليه أنه لا يمكن الجمع بين الخلافة والتجارة ، وأن الواجب التفرغ إلى المسلمين ، فترك التجارة وتفرغ لهم .

ب ـ ولما ترك التجارة وتفرغ لهم رضى لنفسه من بيت المال بستة آلاف درهم فى السنة ، ينفق منها على نفسه وعياله ، وذلك يساوى الآن مائة وعشرين جنيها مصريا ، لا يرضى بها الآن كاتب صغير فى الحكومة المصرية ، بل كل الحكومات الشرقية والغربية . هذا فى حين أن ملوك الغرب والشرق فى زمانه كانت كل أموال رعاياهم وما يجبونه منهم تحت تصرفهم ، ينفقونها فى مآكلهم ومشاربهم ، وما إلى ذلك من وجوه التبذير التى لم يكن لها حد .

حـ ـ كان أبو بكر يشمل فى قسمته ما فى بيت المال ، الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والسابق فى الإسلام وغيره . وهذه المساواة من أسمى ما يتطلبه الاشتراكيون فى هذا العصر ، وقد راعاها أبو بكر فى حكمه قبل أن يفكروا فيها بمئات من السنين . وقد قيل له : لتقدم أهل السبق على قدر منازلهم . فقال : إنما أسلموا لله ، فوجب أجرهم عليه ، يوفيهم ذلك فى الآخرة ؛ وإنما الدنيا بلاغ .

ء ـ كان عمر بن الخطاب يتعاهد عجوزا عمياء فى بعض حواشى المدينة من الليل ، فيستقى لها ، ويقوم بأمرها . وكان كثيرا ما يأتى فيجد شخصا غيره قد سبقه إلى ذلك . فرصده عمر ليعرفه ؛ فإذا هو أبو بكر خليفة المسلمين . فقال عمر : أنت هو لَعَمْرى .

هـ ـ ولما قربت وفاته ، أبت عليه نزعة المساواة أن يستأثر بالخلافة لأولاده . وكان له ولدان . محمد ، وعبد الرحمن ، فجعلها بعيدة عنهما ،

واختار عمر بن الخطاب ؛ لتظل من حقوق الشعب ، فلا يستأثر بها أحد المسلمين . ولو عف عنها من أتى بعده مثل عفته ماانقسم المسلمون هـذا الانقسام الشنيع . وهو إذا كان قد سن بذلك لأمراء المسلمين حق اختيار من يلي بعدهم ، على خلاف مافعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد يسيء بعضهم استعماله - فلا ضرر عليه من ذلك ، إذا ما كان هو قد أحسن الاختيار ، وأتى للمسلمين بذلك الفاروق ، الذي لم ينبغ مثله في الإسلام إلى الآن . فرحمه الله ! ما كان أعرفه بالرجال :

ومن روح المساواة :

حدث أبو النوار بياع الكرابيس (١) : أن عليا أتاه ومعه غلام له ، فاشترى منه قميصي كرابيس ، فقال لغلامه : اختر أيهما شئت ، فأخذ أحدهما وأخذ علي الآخر ، فلبسه . ثم مد يده وقال : اقطع الذي يفضل من قدر يدي فقطعه وكفه ، ولبسه وذهب .

فهذه هي المساواة الصحيحة يامن تتغنون بديموقراطية الغرب ، وتنكرون على الشرق والإسلام مدنيته الحقة، ولكنكم معذورون ؛ لأنكم لاتطالعون من تاريخ آبائكم بقدر ماتطالعون من تاريخ رجال الغرب . نسأل الله لكم الهداية والتوفيق .

(١٢) - استقلال القضاء

لما توجه علي كرم الله وجهه إلى صفين افتقد درعا له ، فلما انتهت الحرب ورجع إلى الكوفة أصاب الدرع في يد يهودي ، فقال لليهودي : الدرع درعي لم أهب ولم أبع . فقال اليهودي : درعي وفي يدي ، فقال : نسير إلى القاضي فتقدم علي إلى شريح القاضي . فقال له شريح : قل ياأمير المؤمنين . فقال :

(١) الكرباس : ثوب من القطن معرب

نعم : هذه الدرع التى فى يد هـذا اليهودى درعى ولم أبع ولم أهب ، فقال شريح اليهودى : ماتقول ؟ قال : درعى وفى يدى . فقال شريح : ألك بينة ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قنبر والحسن يشهدان أن الدرع درعى . فقال شريح : شهادة الابن لاتجوز للأب . فقال على : رجل من أهل الجنة لاتجوز شهادته !! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . فقال اليهودى : أمير المؤمنين قدمنى إلى قاضيه ، وقاضيه قضى عليه ! أشهد أن هذا هو الحق ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله وأن الدرع درعك .

ولا غرو ، فالحق أبلج والباطل لجلج .

(١٣) ـ البراعة فى السياسة

كان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرض معاوية ، فيها عبيد له يعمرونها ، فدخلوا أرض ابن الزبير ، فكتب إلى معاوية : « أما بعد فإنه يامعاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى كان لى ولك شأن ! » فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له : ما رأيك ؟ قال يزيد : أرى أن ترسل إليه جيشا أوله معنا وآخره عنده ، يأتيك برأسه . فقال : عندى أحسن من ذلك ، واستدعى بدواة وقرطاس ، وكتب :

وقفت على كتابك ، يابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ساءنى والله ماساءك ، والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك ، فقد كتبت على نفسى رقما بالأرض والعبيد ، وأشهدت علىّ فيه ، ولتضف الأرض إلى أرضك والسلام »

فكتب عبد الله :

« وقفت على كتاب أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام » .

فلما قرأه دفعه إلى ابنه يزيد . فلما رآه اصفر وجهه . فقال له معاوية : « يابنى إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء » .

(١٤) - تكريم الجيش وقائده سياسة عالية

أول من أدرك هذه السياسة العالية أبو بكر رضى الله عنه ؛ إذ خرج يشيع جيش أسامة راجلا ، وأسامة راكب . فقال له أسامة : « ياخليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن » فقال : والله لانزلت ولاأركب ، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله .

ومن السياسة العالية

النصيحة الآتية

نصح سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه قائد جيشه أسامة ، حين أرسله لغزو العدو : « لاتخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ؛ ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ؛ ولا تقطعوا شجرة مثمرة ؛ ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا » .

(١٥) - حيطة فى الأوامر ، واعتماد على حكمة المأمور

مما يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم من المدينة إلى الشام على حمار فتلقاه معاوية فى موكب نبيل ، فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشى إلى جنبه راجلا ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل فأقبل عليه ، وقال

يا معاوية ، أنت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوى الحاجات ببابك
قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ولم ذلك ؟ قال : لأنا في بلاد لا تمتنع الجواسيس ،
ولا بد لهم ما يردعهم من هيبة السلطان : فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن
نهيتني عنه انتهيت . قال : إن كان الذي قلت حقا فإنه رأى أريب ، وإن كان
باطلا فإنها خدعة أديب ، فلا آمرك ولا أنهاك عنه .

(١٦) — فرط الحرص على الائتلاف

روى أن معاوية كتب إلى مروان والى المدينة أن يأخذ البيعة لابنه يزيد
فخطب مروان فقال :

إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد ؛ سنة أبي بكر وعمر ،
فقام عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، فقال : بل سنة كسرى وقيصر ، إن أبا
بكر وعمر لم يجعلاها في أولادهما ، ولا في أحد من أهل بيتهما

ثم حج معاوية سنة ٥١ هـ وأخذ البيعة لابنه ، فبعث إلى ابن عمر فتشهد
وقال : أما بعد يا ابن عمر ، إنك كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء
ليس عليك فيها أمير ، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين أو تسعى في فساد
ذات بينهم فحمد ابن عمر الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد فإنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم
يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك ، ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا
الخيار ، وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين ولم أكن لأفعل ، وإنما أنا
رجل من المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا رجل منهم . فقال معاوية :
يرحمك الله .

(١٧) — تشجيع الجهر بالحق

من مناقب الخليفة المستنصر بالله أبي جعفر ، أن الوجيه القيرواني مدحه
بقصيدة يقول فيها :

لو كنت فى يوم السقيفة حاضرا كنت المقدم والإمام الأروعا

فقال له قائل فى حضرته : أخطأت ؛ قد كان حاضرا العباس جد أمير المؤمنين ولم يكن المقدم إلا أبا بكر . فأقر ذلك المستنصر ، وخلع على القائل وأكرمه.

(١٨) - استماع الحاكم لنصيحة المحكوم

فمن ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج ، ويده على المعلى بن الجارود السعيدى ، فلقيته امرأة من قريش ، فقالت له : ياعمر . فوقف لها فقالت : كنا نعرفك مدة عميرا ، ثم صرت من بعد عمير عمر ، ثم صرت من بعد عمر أمير المؤمنين ، فاتق الله يابن الخطاب ، وانظر فى أمور الناس؛ فإن من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشى الفوت . فقال المعلى إيهاً يا أمة الله ! فقد أبكيت أمير المؤمنين . فقال له عمر : اسكت . أتدرى من هذه ؟ هذه خولة بنت ثعلبة التى سمع الله قولها (١) من سمائه ، فعمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدى به .

ومن ذلك ماجاء عن الأوزاعى قال : بعث إلىّ المنصور وقال : لم أبطأت عنا ؟ قلت : وما تريد منا ؟ قال : لأستفيد منكم . فقلت له : مهلا فإن عروة ابن رويم أخبرنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن جَاءَتْه مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقَبِلَهَا شَكَرَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ ، وَمَنْ جَاءَتْهُ وَلَمْ يَقْبَلْهَا كَانَتْ عَلَيْهِ حُجَّةً يَوْمَ القِيَامَةِ » مهلا ، فإن مثلك لا ينبغى له أن ينام . إنما جعلت الأنبياء رعاة لعلمهم بالرعية : يجبرون الكسير ، ويسمنون الهزيل ، ويردون الضالة ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ويأخذ أموالهم ؟ أعيذك بالله أن تقول : إن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعوك إلى الجنة . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى يده جريدة يستاك بها ، فضرب بها قرن أعرابى فنزل عليه جبريل عليه السلام وقال : يامحمد ، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جبارا ، مونسا ، مقنطا ، تكسر قرون أمتك ،

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها .»

أبعد الجريدة من يدك . فدعا الأعرابى إلى القصاص من نفسه ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ؟ إن الله عز وجل أوحى إلى من هو خير منك داود عليه السلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » واعلم أن ثوباً من ثياب أهل النار لو عُلق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من نتن ريحه ، فكيف بمن يتقمصه ؟ ولو حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل من جبال الدنيا لذابت كما يذوب الرصاص حتى تنتهى إلى الأرض السابعة ، فكيف بمن تقلدها ؟

(١٩) — الصدق فى النصيحة للحاكم

حج سليمن بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبى حازم الأعرج وعنده ابن شهاب . فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولا تضعها إلا فى أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك . قال: عظنى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم ، أشِرْ علىّ . قال : إنما أنت سوق ؛ فما نفق عندك حُمِل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا . قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتنى فتنتنى ، وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه . قال: فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ؛ فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت .

ومما يشبه هذا من الانتفاع بالموعظة فى أى صورة صورت ما روى :

أن هرون الرشيد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عينا ؛ ليخبره بما يقول . فرآه يوما قد كتب على الحائط :

أما والله إن الظلم لوم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى الديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

فعلم الرشيد بذلك ، فبكى ، وأحضره ، واستحله ، وأعطاه ألف دينار .

وما جاء عن الأصمعى من أن الرشيد صنع يوما طعاما كثيرا ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية ، فقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا . فقال :

عش ما بدا لك سالما ... فى ظل شاهقة القصور

فقال : أحسنت . ثم قال : ماذا ؟ فقال :

يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى البكور

فقال : أحسنت ثم ماذا ؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت ... فى ظل حشرجة [1] الصدور
فهناك تعلم موقنا ... ما كنت إلا فى غرور

فبكى الرشيد ، وقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته ، فقال : دعه ؛ فإنه رآنا فى غمرة فكره أن يزيدنا .

(٢٠) ـ ما أحوج الحكام إلى علماء نصحاء

قال الفضل بن الربيع : حج هرون الرشيد سنة من السنين ، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين . فخرجت مسرعا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ أتيتك فقال : ويحك ، قد جال فى نفسى مالا يخرجه إلا عالم فانظر لى رجلا أسأله عنه . فقلت : هاهنا سفيان بن عيينة.فقال : امض بنا إليه .فأتيناه ، فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعا فقال :

(١) الغرغرة عند الموت وتردد النفس

يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ أتيتك ، فقال : جد لما جئنا له . فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم . فقال : يا أبا العباس اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا . فانظر لى رجلا أسأله . قلت : ها هنا عبد الرازق بن همام . فقال : امض بنا إليه . فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إلىّ أتيتك فقال : جد لما جئنا له . فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم ، فقال : يا أبا العباس اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا . فانظر لى رجلا أسأله : فقلت :

ها هنا الفضل بن عياض فقال : امض بنا إليه فأتيناه فإذا هو قائم يصلى فى غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها ، فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين فقال : مالى ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله . أما تجب عليك طاعته ؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفى إليه ، فقال : أواه من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله تعالى ! . فقلت فى نفسى : ليُكلِّمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى ، فقال : جد لما جئنا له رحمك الله تعالى فقال :

وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شِقصا (١) من ذنب ما فعلوا ، ولكان أشدهم حبالك أشدهم هربا منك ، ثم قال : إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حَيْوَة فقال لهم : إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على ، فعدّ الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

---

(١) نصيبا

فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها على الموت ، فقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرُهم عندك ولداً : فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك ،

وقال رجاء بن حَيْوَة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فأحبّ للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإنى لأقول هذا ولأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام ، فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم ؟ من يأمرك بمثل هذا ؟ ، فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه ، فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين فقال : يابن الربيع ، قتلته أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ، ثم أفاق هرون الرشيد فقال : زدنى . فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه شكا إليه سهرا فكتب له عمر يقول :

يا أخى ، اذكر سهر أهل النار فى النار وخلود الأبدان ، فان ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك وينقطع الرجاء منك . فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر : ما أقدمك ؟ فقال له : قد خلعت قلبى بكتابك لا وليت ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال زدنى قال :

يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليه فقال : يارسول الله ، أمِّرنى إمارة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ياعباس ، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها ؛ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل . فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ، ثم قال : زدنى يرحمك الله . فقال : ياحسن الوجه أنت الذى يسألك الله عن هذا

الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تق هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة . فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال له : أعليك دين ؟ قال نعم : دين لربى يحاسبنى عليه فالويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن سألنى ، والويل لى إن لم يُلهمنى حجتى . فقال هرون : إنما أعنى دين العباد . قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، وإنما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » فقال له هرون : هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك وتَقَوَّ بها على عبادة ربك ، فقال : سبحان الله ! ! أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئنى أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده . فقال لى هرون : إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا ؛ فإن هذا صفوة الأخيار اليوم .

(٢١) — مثل أعلى فى الاقرار بالفضل لأهله

جرى بين الحسين بن على بن أبى طالب وأخيه محمد بن الحنفية رضى الله عنهما كلام فانصرفا متغاضبين فلما وصل محمد إلى منزله أخذ رقعة وكتب فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن على بن أبى طالب إلى أخيه الحسين ابن على « أما بعد » فان لك شرفا لا أبلغه ، وفضلا لا أدركه ، فاذا قرأت رقعتى هذه فالبس رداءك ونعليك وَسِرْ إلىّ فترضنى ، وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذى أنت أولى به منى والسلام)

فلما قرأ الحسين رضى الله عنه الرقعة لبس رداءه ونعليه ثم جاء إلى أخيه محمد فترضاه .

(٢٢) — كرامة العلم والعلماء

بعث هرون الرشيد إلى الإمام مالك يستحضره ليسمع منه ابناه : الأمين، والمأمون . فحضر كالأمر . فقال له الرشيد : يا أبا عبد الله ، ينبغى أن تختلف إلينا حتى يسمع منك صبياننا « الموطأ » . فقال مالك رضى الله عنه : أعز الله أمير المؤمنين . إن هذا العلم من بيتكم ، فإن أعززتموه عز ، وإن أذللتموه ذل ، والعلم يُؤتَى إليه ، ولا يأتى إلى أحد . فقال الرشيد : صدقت . ثم قال لابنيه : الأمين ، والمأمون : اخرجا إلى المسجد حتى تسمعا مع الناس . فقال مالك : بشرط أن يجلسا حيث ينتهى بهما المجلس. فقبل الرشيد ذلك .

(٢٣) — حسن الأدب فى الارشاد

سيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضى الله عنهما

مرّ الحسن والحسين على شيخ كبير يتوضأ وهو لا يحسن الوضوء ، فاتفقا على إرشاد الرجل إلى ذلك ، فتحاكما إليه فى أيهما يحسن الوضوء ، وتوضأ كل منهما أمامه . فلما وجد الرجل كلا منهما يجيد الوضوء علم أنه هو الذى لا يحسنه ؛ فشكر لهما حسن إرشادهما ، وأعاد الوضوء بكيفية صحيحة .

(٢٤) — أحق الناس بتكريم المعلم الأمراء

كان الكسائى يؤدب الأمين والمأمون ابنى هرون الرشيد ، فأراد يوما النهوض من عندهما ، فابتدرا إلى نعله ليقدماها له ، فتنازعا أيهما يقدمها له ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردا منها . فلما رفع الخبر إلى الرشيد وجه إلى الكسائى ، فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس ؟ قال : لا أعلم أعز من أمير المؤمنين . قال : بلى ، إن أعز الناس من إذا نهض تقاتل

على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل منهما أن يقدم له فردامنها ، فأخذ الكسائي يعتذر حاسبا أنه أخطأ .

فقال الرشيد : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا ، ولألزمتك ذنبا ، وما وضع مافعلا من شرفهما ، بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما ، ولقد تبينت مخيلة الفراسة بفعلهما ؛ فليس يكبر المرء وإن كان كبيرا عن ثلاث : تواضعه لسلطانه ، ولوالديه ، ولمعلمه . ثم قال : وقد عوضتهما مما فعلا عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما .

ومن هذا الباب ماأثر عن هرون الرشيد :

كان هرون الرشيد يتواضع للعلماء . قال أبو معاوية الضرير وكان من علماء الناس : أكلت مع الرشيد يوما ، فصب على يدى الماء رجل ، فقال لي ياأبا معاوية ، أتدرى من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا . يا أمير المؤمنين ، قال : أنا . فقلت : ياأمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ؟ قال : نعم

(٢٥) — الاحتفاظ بكرامة العلم

مع رعاية مراسم الأدب فى حق الحكام

مالك بن أنس ، وهرون الرشيد

قال عتيق بن يعقوب الزبيرى : قدم هرون الرشيد المدينة ، وكان قد بلغه أن مالك بن أنس عنده الموطأ يقرؤه على الناس . فوجه إليه البرمكى وقال له أقرئه السلام ، وقل له يحمل الكتاب فيقرؤه على . فأتاه البرمكى فأخبره فقال له : أقرئه السلام ، وقل له : إن العلم يزار ولا يزور ، وإن العلم يؤتى ولا يأتى . فأتاه البرمكى فأخبره ، وكان عنده أبو يوسف القاضى فقال : ياأمير المؤمنين ، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بن أنس فى أمر فخالفك ؛ اعزم عليه . فبينما هم كذلك إذ دخل مالك بن أنس ، فسلم وجلس ، فقال له الرشيد : يابن أبى عامر ، أبعث إليك فتخالفنى ، فقال مالك : ياأمير

المؤمنين ، أخبرني الزهرى عن خارجة بين زيد بن ثابت عن أبيه قال : كنت أكتب الوحى بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم فكتبت : « لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ » ، وكان ابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى رجل ضرير وقد أنزل الله تعالى فى فضل الجهاد ماقد علمت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لاأدرى . وقلمى رطب ماجف حتى ثقل فخذ النبي صلى الله عليه وسلم على . ثم أغمى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يازيد ، اكتب « غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ » . يا أمير المؤمنين ، حرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة من مسيرة خمسة آلاف عام ، ألا ينبغى لى أن أعزه وأجله ؟ وإن الله تعالى رفعك وجعلك فى هذا الموضع ، فلا تكن أنت أول من يضع عز العلم فيضع الله عزك . قال : فقام الرشيد فمشى مع مالك إلى منزله ليسمع منه الموطأ ، وأجلسه معه على المنصة . فلما أراد أن يقرأ على مالك قال لمالك تقرؤه على ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، ماقرأته على أحد منذ زمان . قال الرشيد : فيخرج الناس حتى أقرأه أنا عليك . فقال : إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة . فأمر أن يقرأه معن بن عيسى القزاز عليه : فلما بدأ بالقراءة قال مالك رضى الله عنه لهرون الرشيد : ياأمير المؤمنين ، أدركت أهل العلم ببلدنا وإنهم ليحبون التواضع للعلم . فنزل الرشيد عن المنصة فجلس بين يديه ! !

(٢٦) — إجلال مكارم الأخلاق

مما يروى عن على بن أبى طالب أنه قال : سبحان الله ! ! ماأزهد كثيرا من الناس فى الخير ! عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير ، ولا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً ، وكان ينبغى له أن يسارع إلى

مكارم الأخلاق ؛ فإنها تدل على سبل النجاح ، فقام إليه رجل فقال : ياأمير المؤمنين ، أسمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم : لما أتى بسبايا طيء وقفت جارية بها فقالت : يامحمد ، إن رأيت أن تخلى سبيلى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ؛ فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ، ولا يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم الطائى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خلوا عنها ؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

(٢٧) — المروءة النادرة

لما أفضت الخلافة إلى بنى العباس اختفت رجال بنى أمية ، ومنهم إبراهيم ابن سليمان بن عبد الملك ، وكان رجلا عالما عاملا أديبا كاملا وهو فى سن الشبيبة ، فأخذوا له أمانا من السفاح . فقال له يوما : حدثنى عما مر بك فى اختفائك قال : كنت مختفياً بالحيرة فى منزل شارع [1] على الصحراء ، فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت أعلاما سودا قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدنى فخرجت من الدار متنكرا ، حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أختفى عنده فبقيت فى حيرة ، فاذا أنا بباب كبير رحبته واسعة ، فدخلت فيها فاذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه ، فقال : من أنت وما حاجتك ؟ فقلت : رجل خائف على نفسه ، وقد استجار بمنزلك ، فأدخلنى منزله ، ثم صيرنى فى حجرة تلى حرمه ، وكنت عنده فى ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألنى عن شيء من حالى ؛ إلا أنه يركب فى كل يوم ركبة فقلت له يوما : أراك تدمن الركوب ففيم ذلك ؟ قال :

---

(١) على طريق نافذ

إبراهيم بن سليمان قتل أبى صبرا ؛ وقـد بلغنى أنه مختف فأنا أطلبه لأدرك منه ثأرى . فكثر والله تعجبى ، وقلت : القدر ساقنى إلى حتفى فى منزل من يطلب دمى ، وكرهت الحياة . فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه ، فأخبرنى ، فعلمت أن الخبر صحيح ، وأنا الذى قتلت أباه . فقلت له : ياهذا ، قد وجب على حقك ، ومن حقك أن أدلك على خصمك ، وأقرب إليك الخطوة . قال : وماذاك ؟ قال : أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك ، فخذ بثأرك . فقال : إنى أحسبك رجلا قد مضه الاختفاء ، فأحببت الموت . فقلت لا . والله ، ولكن أقول لك الحق : يوم كذا وكذا .

فلما علم صدقى تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق مليا ، ثم قال : أما أنت فستلقى أبى عند حكم عدل فيأخذ بثأره ، وأما أنا فغير مُخفر ذمتى فاخرج عنى ؛ فلست آمن عليك من نفسى ، وأعطانى ألف دينار ، فلم آخذها منه ، وانصرفت عنه . فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين .

(٢٨) — مثل صادق فى المروءة

كان عمر بن الخطاب بمنى ، فعطش ، فانتهى إلى عجوز فاستسقاها ماء ، فقالت : ماعندنا . فقال : لبنا . فقالت : ماعندنا . فبدرت جارية فقالت لها تكذبين وماتستحين ! ثم قالت لعمر : هذا السقاء فيه لبن . فسأل عمر عن الجارية ، فإذا أبوها ثقفى . فخطبها على عاصم بن عمر ، فزوجها منه . فولد له منها أم عاصم . فتزوجها عبد العزيز بن مروان . فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان رحمة الله عليه .

(٢٩) — سخاء عثمان بن عفان فى سبيل الاسلام

لم يكن عثمان رضى الله عنه فتى حرب وجلاد ، وقليل فى أرباب الجمال من يكون رجل حرب وجلاد . ولكنه كان المحسن الكبير ، المضحى فى الاسلام

بماله الغزير ، وله فى ذلك مواقف تفوق الحرب والضرب . منها موقفه فى غزوة تبوك ، وقد تجهز النبى صلى الله عليه وسلم لحرب الروم ؛ وهم ذلك الشعب القوى الحاكم على ممالك لاتحصى فى الشرق والغرب ، وكان المسلمون وقتها فى عسر وضيق شديد ؛ ولذلك سمى جيشها « جيش العسرة » وهنا ظهر كرم عثمان ؛ وأين منه كرم حاتم ؟ لجهز نصف الجيش من ماله ، وكان الجيش ثلاثين ألفا . فتصدق بعشرة آلاف دينار ، وأعطى ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين فرسا ، بل فى رواية أخرى : إن الجمال كانت تسعمائة ، والخيل كانت مائة .

وقد أثر هذا الكرم العظيم فى النبى صلى الله عليه وسلم أيما تأثير ، حتى رئى من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان ويقول : اللهم ، عثمان رضيت عنه ، فارض عنه .

(٣٠) — مثل عال فى السخاء وتفريج الكرب

عن ابن عباس قال : قحط الناس فى زمان أبى بكر . فقال أبو بكر : لا تمسون حتى يفرّج الله عنكم . فلما كان من الغد جاء البشير إليه قال : قدمت لعثمان ألف راحلة برًّا وطعاماً . قال : فغدا التجار على عثمان ، فقرعوا عليه الباب ، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه . فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : قد بلغنا أنه قدم لك ألفُ راحلة بُراً وطعاماً ؛ بعْنَا حتى نوسع به على فقراء المدينة : فقال لهم عثمان : ادخلوا . فدخلوا ، فإذا ألف وِقْر قد صُبَّ فى دار عثمان . فقال لهم : كم تربحونى على شرائى من الشام ؟ قالوا : العشرة اثنا عشر . قال : قد زادونى . قالوا : العشرة أربعة عشر . قال قد زادونى . قالوا : العشرة خمسة عشر قال : قد زادونى . قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال : قد زادنى الله لكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة .

(٣١) — سخاء الزبير بن العوام والثقة المالية به

حسن حال الزبير فى الإسلام، وأثرى إثراء عظيما. فكان له ألف مملوك يؤدون له الخراج، فما يدخل إلى بيته منه درهم، بل يتصدق به كله. وكان موضع ثقة أصحاب الرسول، حتى إن كثيراً منهم: كعثمان، وابن عوف، والمقداد، وابن مسعود — أوصوا إليه بعد وفاتهم. فكان يسهر على مصالح ورثتهم، ويحفظ لهم أموالهم. ولهذه الآثار الجليلة، والخصال الحميدة التى تحلى بها — مدحه حسان بن ثابت شاعر الرسول، ففضله على الجميع حيث يقول فيه:

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه ... يوالى ولى الحق، والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذى ... يصول، إذا ما كان يوم محجّل
وإن امرأ كانت صفية أمّه ... ومن أسد فى بيته لمرفل (١)
له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل
فكم كربة ذبّ الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطى ويجزل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حشها ... بأبيض سباق إلى الموت، يرقل (٢)
فما مثله فيهم، ولا كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبل (٣)

(٣٢) — مثل فى الجود والكرم

أتى رجل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فقال: يابن عباس، إن لى عندك يداً، وقد احتجت إليها. فصعّد فيه بصره وصوّبه، فلم يعرفه. ثم قال له: ما يدك عندنا؟ قال: رأيتك واقفاً بزمزم، وغلامك يمتح (٤) لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بطرف كسائى حتى شربت. قال:

(١) مؤمر (٢) يرقل: يسرع (٣) اسم جبل (٤) يخرج

إنى لأذكر ذلك ؛ وإنه يتردد بين خاطرى وفكرى . ثم قال لقيمه : ما عندك؟ قال : مائتا دينار ، وعشرة آلاف درهم . قال : ادفعها إليه ، وما أراها تفى بحق يده عندنا . فقال الرجل : والله لو لم يكن لإسمعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه .

(٣٣) — إعطاء السائل ولو كان ظاهره الغنى

كان أحمد بن طولون كثير الصدقة ، وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليها من نذر أو صلة وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة ، وكان الموكل بصدقته سليم الخادم ، فقال له سليم يوما : أيها الأمير ، إنى أطوف القبائل وأدق الأبواب لصدقاتك ، وإن اليد تمد إلى ، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب أفأعطى أم أرد ؟ فأطرق طويلا ، ثم قال : كل يد امتدت إليك فلا تردها .

(٣٤) — مثل فى علو الهمة

كان الأرقم بن أبى الأرقم عظيم الهمة ، كبير النفس ، ذا مروءة وكرم . فلما رأى إخوانه مشتتين منتشرين فى مكة ، لا يجدون مكانا يجتمعون فيه بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ ليغرفوا منه أحكام الدين الجديد الذى ملك عليهم نفوسهم ، وحلا لهم ذوق العذاب فى سبيله ـ قدم لهم داره ؛ وكانت فى أصل الصفا ، فكانت نادى هؤلاء الشبان ، والمعهد الأول الذى تلقوا فيه الدروس الدينية عن النبى عليه السلام ، وسمعوا مواعظه الشريفة ، وأخبار من سبقهم من الأنبياء وما لاقى أتباعهم من عذاب واضطهاد ، ودرسوا آثار الخالق فى الأرض والسموات ، فعرفوا بهذا كثيرا من مسائل العلوم الطبيعية والرياضية مع العلوم الدينية وغيرها . وكانت مدة الدراسة فيه أربع سنين ، عرفوا فيها تلك العلوم ، وطرق الدعوة والتبشير بهذا الدين الجديد . وكان من خريجى

هذا المعهد الأرقمي أبطال بدر ، وأحد ، وحنين ؛ والقواد الذين دوخوا ممالك الفرس والروم : كسعد ، والزبير ، وأبي عبيدة . وكان منهم السياسيون المحنكون الذين بذوا رجال السياسة في عصرهم : كأبي بكر ، وعمر . وكان منهم العلماء النابغون الذين وضعوا أساس العلوم والمعارف لمن أتى بعدهم من علماء المسلمين : كعبد الله بن مسعود . فلو لم يكن لفتانا الأرقم إلا هذه الدار التي جعلها معهدا لهؤلاء الشبان ، وكانت هذه آثارها ـ لكفاه بها شرفا وفضلا . وقد شهد مع الرسول غزوة بدر ، ثم استعمله على الصدقات . وعاش إلى سنة ٥٥ هجرية .

(٣٥) – مثل جليل في علو الهمة

لما هاجر عبد الرحمن بن عوف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع . فقال له سعد : إن لي مالا ، فهو بيني وبينك شطران ولي امرأتان ، فانظر أيهما أحببت حتى أخلعها . فقال له : لا حاجة لي في أهلك ومالك ، بارك الله لك فيهما . دلني على السوق . وتاجر الفتى ، فأثرى في الإسلام إثراء عظيما . وقدم له مرة سبعمائة بعير تحمل البُرَّ ، والدقيق ، والطعام ؛ فلما دخلت المدينة سمع لأهلها رجة ، فتصدق بها وبما تحمل في سبيل الله . وتصدق على عهد رسول الله بشطر ماله أربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفا ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة في سبيل الله ، وأوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله ولمن بقي ممن شهد بدرا ، لكل رجل أربعمائة دينار ، فكانوا مائة رجل . وخلف بعد وفاته مالا عظيما من ذهب ، قطع بالفئوس حتى مجلت منه أيدي الرجال . وكان له أربع نسوة صُولِحَتْ واحدة منهن على ثمانين ألفا .

فهذا صاحب رسول الله ومقدار جمعه للمال ؛ فلينظر أولئك الذين يزهدون المسلمين في جمع المال ، حتى أصبحوا أفقر خلق الله في بلادهم ، وصاروا

بعد الفقر يمدون أيديهم إلى الأجانب ؛ ليأخذوا منهم المال بالربا الذى حرّمه الله عليهم .

ومن علو همته وشرف نفسه ما فعله حينما أدخله عمر فى الستة الذين اختارهم ليَلِىَ الخلافة بعده واحدٌ منهم ؛ فإنه جمعهم ، وعرض عليهم أن يخرج كل واحد منهم نفسه منها ويختار للمسلمين ، فلم يجيبوه إلى ذلك . فقال : أنا أخرج نفسى من الخلافة وأختار للمسلمين . فما أكبر تلك النفس ! وما أعلى همتها ! لو كانت كل النفوس على غرارها ما تقاتلت على الخلافة وفرقت كلمة المسلمين . وقد مات رحمه الله سنة ٣١ هجرية .

(٣٦) — مثل آخر فى علو الهمة

خرج العباس وأهل بيته يريدون الكوفة ؛ ليظهروا بها ويظهروا أمرهم فقابله داود وقال له : يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحران مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن هبيرة فى العراق فى جند العرب فقال : يا أعمى ، من أحب الحياة ذل ، ثم تمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن متها غير عاجز ... بعار إذا ما غالت النفس غولها

(٣٧) — مثل فى علو الهمة

حكى أن رجلا من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة ، فجعل المهدى لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم ، فأخذه رجل من بغداد ، فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة ، فقال له : يا أبا الوليد ، أجرنى أجارك الله . فقال معن للرجل : مالك وماله ؟ فقال : إن أمير المؤمنين طالبه قال : خل سبيله قال : لا أفعل . فأمر معن غلمانه ، فأخذوه غصبا ، وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل ، فأخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة ، فأرسل خلف

معن ، فأحضره ، فلما دخل عليه قال له : يامعن أتجير عليّ ؟ قال : نعم . يا أمير المؤمنين ، قتلت فى طاعتكم عددا كبيرا ، فما ترونى أهلا لأجير رجلا واحدا استجار بى ؟ فاستحيا المهدى وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد قال : إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بى فيكون قد أجاره وحباه قال : قد أمرت له بخمسين ألف درهم . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل قال : قد أمرت له بمائة ألف درهم . فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له : لا تتعرض لمساخط الخلفاء .

(٣٨) — الوفاء بالوعد

لما أُتِىَ عمر بن الخطاب بالهرمزان أسيراً دعاه إلى الإسلام ، فأبى عليه ، فأمر بقتله . فلما عرض عليه السيف قال : لو أمرت يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلى على الظمأ . فأمر له بها فلما صار الإناء فى يده قال : أنا آمن حتى أشرب ؟ قال : نعم . فألقى الإناء من يده وقال : يا أمير المؤمنين ، الوفاء نور أبلج . قال : لك التوقف حتى أنظر فى أمرك . فلما رفع عنه السيف قال : الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . فقال له عمر : ويحك ! أسلمت خير إسلام فما أخرك ؟ قال : خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال : إن إسلامى إنما كان جزعا من الموت . فقال عمر : إن لفارس حلوماً بها استحقت ما كانت فيه من الملك .

ثم كان عمر رضى الله عنه يشاوره بعد ذلك فى إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه .

(٣٩) — آية الوفاء والمحافظة على الكرامة

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت إلى أن تصير مع عدوى ، وتظهر الغدر بى ؛ فإن إعجابهم بأدبك ،

وحاجتهم إلى كتابتك تدعوانهم إلى حسن الظن بك . فإن استطعت أن تغنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن نفع أسرتى بعد مماتى . فقال عبد الحميد : إن الذى أمرت به أنفع الأشياء لك وأقبحها بى ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك ، أو أقتل معك ! !

(٤٠) – مثل نبيل فى المكافأة

أخرج البيهقى من طريق الحسن بن حبيب قال : سمعت الربيع يقول : رأيت الشافعى ركب حماراً ، فمر على سوق الحذائين ، فسقط سوطه من يده . فوثب غلام من الحذائين ، فمسح السوط بكمه ، وناوله إياه . فقال الشافعى لغلامه : ادفع تلك الدنانير التى معك لهذا الفتى . قال : ما أدرى إن كانت تسعة أم سبعة .

(٤١) – توفية الناس حقوقهم

عن أبى مطر البصرى : أنه شهد عليا أتى أصحاب التمر وجارية تبكى عند التمار ، فقال : ماشأنك ؟ قالت : باعنى تمرا بدرهم ، فرده مولاى ، فأبى أن يقبله . فقال : ياصاحب التمر ، خذ تمرك وأعطها درهمها ، فإنها خادم ، وليس لها أمر . فدفع عليا . فقال المسلمون : تدرى من دفعت ؟ قال : لا . قالوا : أمير المؤمنين . فصب تمرها وأعطاها درهمها ، وقال : أحب أن ترضى عنى فقال : ماأرضانى عنك إذا أوفيت الناس حقوقهم !!

(٤٢) – المعاونة وحسن الجوار

كان سعيد بن العاص يحب مساعدة غيره ومعاونته ، فأراد جاره ابن أبى الجهم أن يبيع داره ، فأعطاه المشترى فيها مائة ألف درهم . فقال ابن أبى الجهم : وبكم تشترى جوار سعيد ؟ فقال المشترى : مارأيت جوارا يباع ! فرجع ابن

أبى الجهم عن البيع وقال : لاأدع جوار رجل يحب معاونتى : إن غبت سأل عنى ، وإن رآنى رحب بى ، وإن سألته أعطانى ، وإن لم أسأله ابتدأنى بالعطاء. فلما بلغ ذلك سعيدا بعث إليه بالثمن وأبقاه فى داره .

(٤٣) - مثل رائع فى القيام بحقوق الجوار

إن أبا حنيفة رضى الله عنه كان له جار إسكاف يعمل نهاره ، فاذا رجع إلى منزله ليلا تعشى ثم شرب . فاذا دب الشراب فيه غنى وقال :

أضاعونى، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وأبو حنيفة يسمع صوته كل ليلة . وكان أبو حنيفة يصلى الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته . فسأل عنه . فقيل : أخذه العسس منذ ليال . فصلى أبو حنيفة الفجر من غده ثم ركب بغلته وأتى إلى دار الأمير ، فاستأذن عليه ، فقال : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكبا ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط . ففعل به ذلك ، فوسع له الأمير من مجلسه وقال : ماحاجتك ؟ فقال : أشفع فى جارى . فقال الأمير : أطلقوه وكل من أُخِذَ فى تلك الليلة ، فأطلقوهم أيضا ، وذهبوا . وركب أبو حنيفة بغلته ، وخرج الاسكاف يمشى وراءه . فقال له أبو حنيفة : يافتى ، هل أضعناك ؟ فقال : بل حُفِظْتُ ورُعيت . جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار

(٤٤) – مقابلة الاساءة بالاحسان

لما فعل المشركون بالنبى عليه السلام مافعلوا يوم أحـــد ، وطلب منه أن يدعو عليهم - قال : اللهم ، اغفر لقومى؛ فانهم لايعلمون .وحسبك فى هذا الباب مافعله مع مشركى قريش الذين آذوه واستهزءوا به وأخرجوه من دياره وأصحابه ، ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركى العرب ، حتى

ثمالا عليه جمعهم ، ثم لما فتح الله عليه مكة مازاد عن أن عفا وصفح ، وقال: ماتقولون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ؛ أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وعن أنس كنت مع النبى عليه السلام وعليه بُرْدٌ(١) غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابى بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عنقه ثم قال : يامحمد ، احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذى عندك ؛ فإنك لاتحمل لى من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك ياأعرابى مافعلت بى . قال : لا . قال : لِمَ ؟ قال : لأنك لاتكافىء بالسيئة السيئة ! ! فضحك عليه السلام ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

(٤٥) – الاحسان إلى المسىء أسمى ضروب الأخلاق

خرج زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنه إلى المسجد ، فسبَّه رجل ، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه ، فنهاهم زين العابدين وقال لهم : كفوا أيديكم عنه . ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال : ياهذا ، أنا أكثر مما تقول ، ومالا تعرفه منى أكثر مما عرفته ، فإن كان لك حاجة فى ذكره ذكرته لك . فخجل الرجل واستحيا . فخلع عليه زين العابدين قميصه ، وأمر له بألف درهم . فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤٦) – مثل رائع من أمثلة مقابلة الاساءة بالاحسان

حكى أن المأمون أشرف يوما على قصره ، فرأى رجلا يكتب بفحمة على حائط قصره . فقال المأمون لبعض خدمه : اذهب إلى ذلك الرجل ، فانظر

---

(١) البرد : ثوب مخطط .

ما كتب ، وأتني به. فبادر الخادم إلى الرجل مسرعا ، وقبض عليه ، وقال : ما كتبت ؟ فإذاهو قد كتب بيتين أولهما :

ياقصر ، جمع فيك الشؤم واللوم　　متى يعشش فى أركانك البوم ؟

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين . فقال الرجل : سألتك بالله لاتذهب بى إليه . فقال الخادم : لابد من ذلك . ثم ذهب به فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين ، وأعلم بما كتب ، قال له المأمون : ويلك ! ماحملك هذا فقال : ياأمير المؤمنين ، إنه لايخفى عليك ماحواه قصرك هذا من خزائن الأموال ، والحلى والحلل ، والطعام والشراب ، والفرش والأوانى ، والأمتعة ، والجوارى ، والخدم ، وغير ذلك مما يقصر عنه وصفى ، ويعجز عنه فهمى ؛ وإنى قد مررت عليه الآن وأنا فى غاية الجوع والفاقة ، فوقفت مفكرا فى أمرى ، وقلت فى نفسى : هذا القصر عامر عال ، وأنا جائع ولا فائدة لى فيه ؛ فلو كان خرابا ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسمارا أبيعه وأتقوت بثمنه . أوماعلم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى دولةامرىء　　نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وماذاك من بغض له ، غير أنه　　يرجّى سواها ، فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون : ياغلام ، أعطه ألف درهم . ثم قال : هى لك فى كل سنة مادام قصرنا عامرا بأهله مسرورا بدولته . وأنشدوا فى معنى ذلك :

إذا كنت فى أمر فكن فيه محسنا　　فعما قليل أنت ماض وتاركه

فكم دحت الأيام أرباب دولة　　وقد ملكوا أضعاف ماأنت مالكه

(٤٧) — صفح وأريحية

مما يحكى أنه كان بين غسان بن عباد وبين على بن عيسى عداوة عظيمة ، وكان الأخير ضامنا أعمال الخراج والضياع ببلده ، فبقيت عليه بقية مقدارها

أربعون ألف دينار ؛ فألح المأمون عليه بطلبها وأمهله ثلاثة أيام : فإن أحضر المال وإلا يضرب بالسياط حتى يؤديه أو يتلف . فانصرف عليُّ من دار المأمون آيسا من نفسه ، وهو لايدرى وجها يتجه إليه ، فدله كاتبه على غسان بن عباد فقال له : على ماينى وبينه من العداوة ؟ فقال : نعم ، فإن الرجل أريحى كريم .

فلما دخل على غسان تلقاه بالجميل ، وقال له : إن دخولك إلى دارى له حرمة توجب بلوغ مارجوته منى مع مابيننا من العداوة ، فاذكر حاجتك . فقص عليه قصته ، فقال : أرجو أن يكفيكه الله تعالى ، ولم يزد على ذلك شيئا ، فنهض على وخرج آيسا نادما على قصده ، غير أنه لم يصل إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه المال وسلمه إليه ، فأخذه وأسرع إلى دار المأمون ، فوجد غسان قد سبقه إليها ودخل على الخليفة ، وقال: ياأمير المؤمنين إن لعلى ابن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة ، وقد لحقه من الخسران فى ضمانه ماتعارفه الناس ، وقد توعدته بما أطار عقله ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يخفف عنه بعض ماعليه فهى صنيعة ومنة . ولم يزل يتلطف به إلى أن حط عنه النصف ، فقال غسان : على أن يشرفه أمير المؤمنين بخلعة تقوى نفسه ، ويعرف بها مكان الرضا عنه .

فأجابه المأمون إلى ذلك ، وخرج على بالخلعة ، ولما وصل إلى داره أرسل إلى غسان عشرين ألف دينار وشكره على جميع فعله معه ، فرفض غسان قبول المبلغ ، وقال لكاتبه : إنى لم أشفع له عند أمير المؤمنين إلا لتوفر عليه وينتفع بها . فعلم عيسى فضل غسان عليه ، فلم يزل يخدمه إلى آخر العمر .

(٤٨) – كرم وعفو

يحكى عن معن بن زائدة أنه أتى بجملة من الأسرى فعرضهم على السيف ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، نحن أسراك ، وبنا جوع وعطش فلا

تجمع علينا الجوع والعطش والقتل . فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم ، فلما فرغوا قال الرجل : أصلح الله الأمير . كنا أسراك ، ونحن الآن أضيافك ، فانظر ماتصنع بأضيافك . قال : قد عفوت عنكم . فقال الرجل : أيها الأمير ، ماندرى أى يوم أشرف : يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنا ؟ فأمر لهم بمال وكسوة .

(٤٩) — جود ونبل فى العطاء

حكى الأصمعى قال : كان سعيد بن العاص يسمر ومعه سماره إلى أن ينقضى حين من الليل ، فانصرف عنه القوم ليلة ورجل قاعد لم يقم ، فأمر سعيد باطفاء الشمعة ، وقال : ماحاجتك يافتى ؟ فذكر أن عليه ديناً أربعة آلاف درهم ، فأمر له بها ، وكان إطفاؤه للشمعة أكثر من عطائه .

(٥٠) — غرس الشجاعة المعنوية فى قلوب الرعية

سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم

جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأصابته رعدة ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ (١)) .

(٥١) — مثل رائع فى التفدية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حافياً لحفى . فحمله أبو بكر رضى الله عنه على كاهله حتى انتهى إلى الغار . فلما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخل الغار قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق نبياً لا تدخله حتى أدخل فأسبره

(١) اللحم القديد : المشرح طولا

قبلك . فدخل أبو بكر رضى الله عنه فجعل يلتمس بيده الغار فى ظلمة الليل ؛ مخافة أن يكون فيه شىء ، يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم . فلما لم ير فيه شيئا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه ، رأى فى الغار أجحاراً متعددة ، فصار يقطع ثوبه ويسد به الأجحار ؛ فبقى جحر لم يفضل له شىء من الثوب ، فجلس قريباً منه ، ووضع عقبه عليه وسدّه ، فجعلت الحيات والأفاعى تضربه وتلسعه ، فصارت دموعه تنحدر ، وكان النبى قد نام وجعل رأسه فى حجره ، فصار يتجلد ولا يوقظه ، فسقطت دموعه على وجه النبى ، فتنبه ، فقال : مالك ؟ قال : لدغت . فتفل عليه ، فذهب ما يجده . فلما أصبح سأله النبى عن ثوبه ، فأخبره الخبر ، فتوجه ودعاله وقال : « اللهم ، اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة . فنودى : إنه قد استجيب لك »

(٥٢) — روح التفدية

لسيدنا علىّ مواقف عظيمة فى نصرة الاسلام : منها موقفه حين عزم النبى عليه السلام على الهجرة إلى المدينة التى وجد فيها أنصارا له ، وعزمت قريش على منعه أو قتله ، لتنتهى من أمره ، وقد عزم على الهجرة خفية فى ليلة من الليالى ، وأن يختار من الشبان الذين آمنوا به شاباً ينام على فراشه حتى لا تعلم قريش فتطلبه قبل أن يبعد عن مكة ، فقدم سيدنا علىّ نفسه لهذه التفدية ، وهو يعرف أن قريشاً عازمة على اغتيال النبى ، وقد تنفذه فيه فتقتله بدله ، فنام الفتى مكان ابن عمه الذى خرج من بلده ، كما خرج موسى من مصر خائفاً يترقب ، وتم للنبى صلى الله عليه وسلم ما أراد ، فكانت قريش تنظر طول الليل ، فترى عليا نائما على فراشه ، فتظنه هو وتطمئن ، حتى إذا أصبحوا رأوه عليا ، فقالوا : لو خرج محمد لأخذ عليا معه ، وهكذا

تمت الحيلة . وأفلت النبى منهم بفضل الله وتفدية على رضى الله عنه .

ومنها موقفه فى فتح خيبر ، وقد تعذرت حصونها القوية على المسلمين ، ولم يكن للعرب عهد بفتح الحصون ، فما أن سير النبى إليها عليا حتى تغلبت شجاعته عليها مع أنه كان فى ذلك الوقت يشتكى عينيه .

ومنها موقفه فى غزوة الخندق وقد أحاطت قريش ومن انضم إليها بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، وخرج عمرو بن ود فارس العرب المشهور ، فقال : من يبارز ؟ فقال على : أنا له يا نبى الله . فقال النبى : اجلس ، فإنه عمرو ابن ود . ثم كرر عمرو النداء ، وجعل يوبخ المسلمين ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها ؟ فقال على : أنا له يانبى الله . فقال له : اجلس ، فانه عمرو بن ود . ثم نادى عمرو الثالثة ، فقال على : أنا له يارسول الله . فقال له : إنه عمرو بن ود . فقال على : وإن كان عمرا ، فأذن له . فلما رآه عمرو قال له : من أنت ؟ فقال : على . فقال : ابن أبى طالب ؟ قال : نعم . فقال : غيرك يابن أخى من أعمامك من هو أشد منك ، وإنى أكره أن أريق دمك . فقال على : وأنا والله ما أكره أن أريق دمك . فلما سمع ذلك عمرو غضب ، وكان راكباً فرسه ، وعلىٌّ واقف على قدمه ، فقال له : كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ ولكن انزل معى . فنزل عمرو وسل سيفه كأنه شعلة نار ، فعقر فرسه ، وضرب وجهه ، وأقبل على سيدنا على ، فاستقبله بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأس على فشجه ، وهنالك ضربه على رضى الله عنه على حبل عنقه فسقط قتيلا ، وكبر المسلمون فرحا بذلك ، ورجع على إلى رسول الله وهو متهلل . فقال له : كيف وجدت نفسك معه ؟ فقال : وجدته لو كان أهل المدينة فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم .

(٥٣) — روح التفدية أيضا

وقف طلحة بن عبيد الله فى غزوة أحد موقفاً جليلا ، وأبلى فيها بلاء عظيما ، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، واتقى عنه النبل بيده حتى شلت أصبعه ، ولما وقع رسول الله فيما كان هناك من حفر حمله على ظهره حتى صعد صخرة كانت هناك ، وأصابه فيها نيف وسبعون جراحة : من طعنة ، وضربة ، ورمية . ونزف به الدم حتى غُشِيَ عليه ، ورش أبو بكر رضى الله عنه وجهه بالماء حتى أفاق ، فلم يكن همه إلا رسول الله ، فسأل عنه أبا بكر ، فقال له : هو بخير ، وهو أرسلنى إليك ، فقال : « الحمد لله ؛ كل مصيبة بعده جلل [1] وقليلة » فهذا ما قدمه من نفسه فى تلك الغزوة التى نكب فيها المسلمون ، وأما ما قدمه من ماله فبلغ سبعمائة ألف درهم ، وكذلك أنفق من ماله فى غزوة تبوك حتى سماه المصطفى عليه السلام : « طلحة الفياض » .

(٥٤) — قدوةٌ حسنة فى الحلم والاحتمال

شتم رجلٌ أبا حنيفة وهو فى درسه وأكثر ، فما التفت إليه ، ولا قطع كلامه ، ونهى أصحابه عن مخاطبته . فلما فرغ وقام تبعه إلى باب داره . فقام على بابه وقال للرجل : هذه دارى ، إن كان بقى معك شىء فأتِمّه حتى لا يبقى فى نفسك شىء . فاستحيا الرجل .

وفى قصة أخرى أنه تبعه ، فلما دخل جعل يسب ويشتم فلم يجبه أحد . فقال : أتعدوننى كلباً ؟ فقيل من داخل الدار : نعم .

---

(١) الجلل : العظيم والصغير ضد

(٥٥) — تفوق فى الحلم

كان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه رجل بشتم أو قول سيئ لم يجبه ، رفعا لنفسه عنه . فجرى بينه وبين على بن عبد الله كلام فأسرع إليه . فقال له على : خفض عليك أيها الرجل ؛ فانى أتركك اليوم لما كنت تترك له الناس .

(٥٦) — الصفح الجميل

ا — حكى عن المأمون أنه قال ليحي بن أكثم يوما : سر بنا نتفرج . فسارا . فبينما هما فى الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له . فنفرت دابته منه فألقته على الأرض صريعا . فأمر بضرب ذلك الرجل . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، ويتجاوز الأدب وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على رد مالم تفعل أقدر منى على ردّ ما قد فعلت . فبكى المأمون وقال : بالله أعد علىّ ما قلت . فأعاده . فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال : أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه . والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى . فوقف ، وأمر له بصلة جزيلة ، واعتذر إليه . فلما همّ المأمون بالانصراف قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، بيتان قد حضرانى ثم أنشد :

ما جاء بالوفر إلا وهو معتذرٌ ولا عفا قطُّ إلا وهو مقتدرُ
وكلما قصدوه زاد نائلُه كالنار يؤخذ منها وهى تستعرُ

ب — كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى : فقام إليه أصغر القوم ، فقال له : يا معن ، أتقتل الأسرى عطاشا ؟ فأمر لهم بالماء . فلما سُقوا قال : يا معن ، أتقتل ضيفانك ؟ فأمر معن بإطلاق سراحهم .

(٥٧) – مثل حسن فى التلطف بالعمال

حدث سليمان الوراق قال : ما رأيت أعظم حلماً من المأمون ؛ دخلت عليه يوما وفى يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس وهو يقلبه بيده ويستحسنه ؛ ثم دعا برجل صائغ وقال له : اصنع بهذا الفص كذا وكذا واحلل فيه كذا وكذا ، وعرّفه كيف يعمل به ؛ فأخذه الصائغ وانصرف .

ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره ، فاستدعى بالصائغ ، فأتى وهو يرعد وقد امتقع لونه . فقال المأمون : ما فعلت بالفص ؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام . ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه حتى سكن جأشه ، ثم التفت إليه وأعاد القول . فقال : الأمان يا أمير المؤمنين . قال : لك الأمان . فأخرج الفص أربع قطع ، فلما خرج الرجل من عنده قال: أتدرون كم قيمة هذا الفص ؟ قلنا : لا . قال : اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفا .

(٥٨) – الاحسان إلى الخدم

ا – قال عبدالله بن طاهر : كنت عند المأمون يوما ، فنادى بالخادم : ياغلام . فلم يجبه أحد . ثم نادى ثانيا وصاح : ياغلام . فدخل غلام تركى وهو يقول : أما ينبغى للغلام أن يأكل ويشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح : ياغلام يا غلام ، إلى كم ياغلام ! فنكس المأمون رأسه طويلا ، فما شككت فى أن يأمرنى بضرب عنقه . ثم نظر إلىّ فقال . يا عبد الله ، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ، ساءت أخلاق خدمه ؛ وإذا ساءت أخلاقه ، حسنت أخلاق خدمه ؛ وإنا لا نستطيع أن نسىء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا ! !

ب – يروى أن زين العابدين استدعى غلاما له ، وناداه مرتين فلم

يجبه . فقال له زين العابدين : أما سمعت ندائى ؟ فقال : بلى . قد سمعت . قال : فما حملك على تركك إجابتى ؟ قال : أمنت منك ، وعرفت طهارة أخلاقك فتكاسلت . فقال : الحمد لله الذى أمن منى عبدى .

حـ ـ عن النضر بن سهل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجاريته يوما : روحينى حتى أنام ، فروحته فنام . فغلبها النوم فنامت . فلما انتبه أخذ المروحة يروحها . فلما انتبهت ورأته يروحها صاحت . فقال لها عمر : إنما أنت بَشَرٌ مثلى ، أصابك من الحر ما أصابنى ، فأحببت أن أروحك كما روحتنى .

(٥٩) ـ فرط الرأفة بالحيوان

١ ـ بلغ الامام أحمد بن حنبل أن رجلا وراء النهر يروى أحاديث ثلاثية . فرحل الامام أحمد إليه . فلما ورد عليه وجده يطعم كلبا . فسلم عليه أحمد رضى الله عنه ، فرد عليه السلام . ثم اشتغل باطعام الكلب ، ولم يُقْبِلْ على الامام . فوجد الامام أحمد فى نفسه شيئا ، إذ أقبل الرجل على الكلب ولم يلتفت إليه ، فلما فرغ الرجل من طعمة الكلب التفت إلى الامام وقال : لعلك وجدت فى نفسك ؛ إذ أقبلت على الكلب ، ولم أقبل عليك . قال : نعم . فقال : حدثنى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ قَطَعَ رَجَاءَ مَنِ ارْتَجَاهُ قَطَعَ اللهُ رَجَاءَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلَنْ يَلِجَ الجَنَّةَ) . ثم قال الرجل : أرضنا هـذه ليست بها كلاب ، وقد قصدنى هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه . فقال الامام أحمد : يكفينى هذا الحديث .

ب ـ جاء فى طبقات ابن السبكى رحمه الله تعالى أن الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله عنه لما نام يوم الجمعة جاء الهر فنام على كمه . فاستيقظ وقت

الصلاة ، فقطع كمه ولم يزعجه . فلما فرغ من الصلاة وذهب الهر أعاد كمه إلى موضعه . رضى الله عنه .

(٦٠) – إيثار منقطع النظير

ا ـ حصل لعلى بن أبى طالب ولأهله جوع ، فأخذ من يهودى صوفا لتغزله فاطمة رضى الله عنها بثلاثة آصع من شعير . فغزلت أول يوم شيئا منه ، وطحنت صاعا وخبزته ، فلما أرادوا الأكل طرق بابهم مسكين ، وقال : السلام عليكم بأهل بيت النبوة ، أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئاً لله ، فدفعوا إليه الأقراص . وفى اليوم الثانى جاءهم يتيم ، وقال : السلام عليكم ياأهل بيت النبوة ، أنا يتيم من أيتام أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئا لله ، فدفعوا إليه الأقراص . وفى اليوم الثالث جاءهم أسير ، وقال : السلام عليكم ياأهل بيت النبوة ، أنا أسير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أطعمونى شيئا لله ، فدفعوا إليه الأقراص ، وباتوا على الماء ، فجاع الحسن والحسين رضى الله عنهما جوعا شديدا . فخرج على إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بذلك ، فطاف على نسائه فلم يجد شيئا . ثم جاء أبو بكر يشتكى الجوع . فقيل : يارسول الله ، إن المقداد بن الأسود عنده تمر ، فخرجوا إليه فلم يجدوا شيئا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه : خذ هذه السلة ، واذهب إلى تلك النخلة ، وقل لها : إن محمدا يقول لك : أطعمينا من تمرك . فرمت عليهم رطباً بإذن الله تعالى ، فأكلوا حتى شبعوا ، وأرسلوا إلى فاطمة وولديها مايشبعهم . فأنزل الله تعالى فى حق على : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) الآية .

ب ـ عن الحسن : أن رجلا جَهَده الجوعُ ، ففطن له رجل من الأعيان ، فلما أمسى أتى به رحله ، فقال لامرأته : هل لك أن نطوى ليلتنا

هذه لضيفنا ؟ قالت : نعم ، قال : فإذا قدمت الطعام فادنى إلى السراج كأنك تصلحينه فأطفئيه ، ففعلت وجاءت بثريدة كأنها قطاة فوضعتها بين أيديهما ، ثم دنت إلى السراج كأنها تصلحه فأطفأته ، فجعل الأنصارى يدع يده فى القصعة ثم يرفعها خالية . فأطلع على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح الأنصارى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أسلم أقبل على الأنصارى وقال : « أنت صاحب الكلام الليلة » ففزع الأنصارى وقال : أى كلام يا رسول الله ؟ قال : « كذا وكذا » : قوله لامرأته . قال : « كان ذاك يا رسول الله » قال : « فوالله لقد عجب الله من صنعكما الليلة » .

حـ — فى ثمرات الأوراق : لما سعى غلام خليل بالصوفية إلى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم : فأما الجنيد فإنه استتر بالفقه ، وأما الشحام والرقام والنورى وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم ، فتقدم النورى ، فقال له السياف : أتدرى لماذا تتقدم ؟ قال : نعم . قال : فما يعجلك ؟ قال : أوثر أصحابى بحياة ساعة ، فتحير السياف ، ونما الخبر إلى الخليفة ، فردهم إلى القاضى ؛ ليعرف أحوالهم . فألق القاضى على أبى الحسن النورى مسائل فقهية ، فأجاب عن الكل ، ثم أخذ يقول : إن لله عبادا إذا قاموا قاموا بالله ، وإذا نطقوا نطقوا بالله ، وسرد حتى بكى القاضى ، فأرسل إلى الخليفة يقول : إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم . فأكرمهم وأطلقهم .

ء — ومن شهى المجتنى من ثمرات الأوراق : ما نقله أبو الحسن على بن عبد المحسن التنوخى فى المستجاد : أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لما بات على فراش النبى صلى الله عليه وسلم ليفديه بنفسه أوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : « إنى آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ » فاختار كل منهما

الحياة ! فأوحى الله إليهما : « أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب · آخيت بينه وبين نبى محمد ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره الحياة ؟ اهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه . فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادى : بخ بخ يابن أبى طالب يباهى الله بك الملائكة فصدق عليه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ »

(٦١) — رأفة وإيثار

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها ، فأتى بثلاثة أقراص من الخبز فدخل كلب فدنا منه فرمى إليه بواحد فأكله ثم رمى إليه بالثانى والثالث فأكلها . وعبد الله ينظر إليه فقال : ياغلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال : مارأيت ، قال : فلم آثرت الكلب ؟ قال : لأن أرضنا ماهى بأرض كلاب ، وإخاله جاء من مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت رده قال : فما كنت صانعا اليوم ؟ قال : أطوى يومى هذا فقال : عبد الله بن جعفر : الأمر على السخاء ، والله إن هذا لأسخى منى ؛ فاشترى النخل والعبد فأعتقه ووهب ذلك له .

(٦٢) — يقدر المرء بدينه

قدم عقيل بن أبى طالب على معاوية ، فأكرمه وقربه وقضى عنه دينه ، ثم قال له فى بعض الأيام : ياعقيل ، أنا خير لك من أخيك على قال : صدقت ؛ أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى ، وأخى خير لنفسه منك لنفسك .

(٦٣) — فضل الانسان بقدر ما يسديه إلى الناس من النفع العام

كان الامام أحمد بن حنبل يعظم الامام الشافعى رضى الله عنهما ، ويذكره

كثيراً ويثنى عليه . وكانت له ابنة صالحة : تقوم الليل ، وتصوم النهار ، وتحب أخبار الصالحين الأخيار ، وتود أن ترى الشافعى لتعظيم أبيها له . فاتفق مبيت الامام الشافعى عند أحمد رضى الله عنهما فى وقت . ففرحت البنت بذلك ؛ طمعاً فى أن ترى أفعاله ، وتسمع مقاله . فلما كان الليل قام الامام أحمد إلى وظيفة صلاته وذكره ، والامام الشافعى مستلق على ظهره ، والبنت ترقبه إلى الفجر . فقالت لأبيها : رأيتك تعظم الامام الشافعى ، وما رأيت له فى هذه الليلة لا صلاة ، ولا ذكرا ، ولا وردا . فبينما هما فى الحديث إذ قام الامام الشافعى ، فقال له أحمد : كيف كانت ليلتك ؟ فقال : ما رأيت ليلة أطيب منها ، ولا أبرك ، ولا أربح . فقال كيف : ذلك ؟ قال : لأنى رتبت فى هذه الليلة مائة مسألة وأنا مستلق على ظهرى ، كلها فى منافع المسلمين . ثم ودعه ومضى . فقال أحمد بن حنبل لابنته : هذا الذى عمله الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم .

قال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة ، إلا وأنا أدعو للشافعى . فقال له ابنه : يا أبت ، أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال الامام أحمد : يا بنى ، كان الشافعى كالشمس للدنيا ، والعافية للناس . فانظر يابنى : هل من هذين خلف . ؟

(٦٤) - مزاولة العظيم أعمال بيته لا تنقص من قدره

عمر بن عبد العزيز

عن رجاء بن حيوة قال : سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز ، فاعتل السراج . فذهبت أقوم لأصلحه ، فأمرنى عمر بالجلوس . ثم قام فأصلحه . ثم عاد فجلس فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز ، وليس من المروءة أن يستخدم الرجل ضيفه .

(٦٥) - التزام الصدق فى حال الخطر

لجأ هارب من أعدائه إلى سيدنا على الخواص رضى الله عنه ، وطلب إليه أن يخفيه من أعدائه . فقال له : نم هنا . ثم ألقى عليه حزمة من الخوص فلما أتى إليه أعداء الرجل وسألوه عنه ، قال لهم : هاهو ذا تحت الخوص فظنوا أنه يسخر منهم ، فتركوه ، ونجا الرجل من أيديهم ببركة الصدق .

(٦٦) - مقت الكذب فى أى صورة من صوره

الامام البخارى رضى الله عنه

خرج البخارى رضى الله عنه يطلب الحديث من رجل ، فرآه قدهربت فرسه ، وهو يشير إليها بردائه ، كأن فيه شعيرا ، فجاءته ، فأخذها . فقال للرجل : أكان معك شعير ؟ قال : لا ، ولكن أوهمتها . فقال البخارى : لا آخذ الحديث عمن يكذب على البهائم .

(٦٧) - أثر الصدق فى النفوس

اتهم رجلان بالمؤامرة على الحجاج أمير الكوفة ، فأودعا السجن ، ثم أحضرا بين يديه لينالا جزاءهما من العقاب : فقال أحدهما : إن لى عليك حقا يا أمير المؤمنين . فقال: وماهو ذاك ؟ فقال له : دفعت عنك فى مجلس يوم كذا . فأجابه الحجاج : إن هذه الدعوى تحتاج إلى بينة ، فأين هى ؟ فقال له الرجل : صاحبى هذا كان حاضرا بالمجلس . فقال له الحجاج : أحقا مايقول صاحبك ؟ فقال : نعم . فقال له : وهل دفعت أنت عنى كذلك ؟ فقال : لا . فقال له : ولم ذلك ؟ فقال له : لكراهتى إياك . فعند ذلك قال الحجاج : قد عفوت عن الرجلين : أما الأول فلحقه علينا ، وأما الثانى فلصدقه .

(٦٨) — الشجاعة فى الحق والنجاة بسبب الصدق

خطب الحجاج يوماً فأطال . فقال رجل من الحاضرين : الصلاة ! فان الوقت لاينتظرك ، والرب لايعذرك ؛ فأمر بحبسه . فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون . فقال الحجاج : إن أقر بالجنون خلصته . فقال الرجل : لايسوغ لى أن أجحد نعمة الله التى أنعم بها على ، وأثبت لنفسى صفة الجنون التى نزهنى الله عنها . فلما رأى صدقه خلى سبيله .

(٦٩) — الصدق وسيلة الفلاح

قال الشيخ عبد القادر الكيلانى رضى الله عنه : بنيت أمرى على الصدق ، وذلك أنى خرجت من مكة إلى بغداد أطلب العلم ، فأعطتنى أمى أربعين ديناراً ، وعاهدتنى على الصدق . فلما وصلنا أرض همدان خرج علينا عرب فأخذوا القافلة ، فمرّ واحد منهم وقال : ما معك ؟ قلت : أربعون دينارا . فظن أنى أهزأ به فتركنى . فرآنى رجل آخر فقال : ما معك ؟ فأخبرته ، فأخذنى إلى كبيرهم ، فسألنى ، فأخبرته . فقال : ماحملك على الصدق ؟ قلت : عاهدتنى أمى على الصدق ، فأخاف أن أخون عهدها . فصاح ، ومزق ثيابه وقال : أنت تخاف أن تخون عهد أمك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهدالله ! ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائب لله على يديك . فقال من معه : أنت كبيرنا فى قطع الطريق ، وأنت اليوم كبيرنا فى التوبة . فتابوا جميعا ببركة الصدق .

ولاغرابة فقد قيل : « إن كذبٌ أنجى فصدق أنجى »

(٧٠) — مقت السعاية

روى أن الخليفة المستنجد بالله أبا المظفر سجن رجلا كان يسعى بالناس ،

لجاءه رجل وبذل فيه عشرة آلاف دينار ، فقال له الخليفة : أنا أعطيك عشرة آلاف مثلها ودلني على آخر مثله ، لأحبسه ، وأكف شره عن الناس .

(٧١) — أدب الاستئذان

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وابنته السيدة فاطمة رضى الله عنها

روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال : كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه . فقال : ياعمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : نعم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله . فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة . فقرع الباب وقال :السلام عليكم ، أأدخل ؟ فقالت: ادخل يارسول الله . قال : ومن معى ؟ قالت : ومن معك يارسول الله ؟ فقال : عمران بن حصين . فقالت : والذى بعثك بالحق نبيا ماعلى إلا عباءة . فقال : اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده . فقالت : هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة خلقة كانت عليه فقال : شدى بها على رأسك . ثم أذنت له فدخل .

كان من نتائج تخلق المسلمين بالأخلاق العالية التى جاء بها دينهم أن شهد لهم خصمهم شهادة باهرة تتجلى فى القصة الآتية :

قدمت منهزمة الروم على هرقل وهو بأنطاكية ، فدعا رجالا من عظمائهم فقال : ويحكم ! أخبرونى ماهؤلاء الذين تقاتلونهم ؟ أليسوا بشرا مثلكم ؟ - يعنى العرب - قالوا : بلى . قال : أفأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن . قال : ويلكم ! فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فسكتوا . فقال شيخ منهم : أنا أخبرك أيها الملك من أين تؤتون . قال : أخبرنى . قال :

إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا صدقوا ، ونحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر . قال : ويلكم ! فما بالكم كما تصفون وهم كما تزعمون ؟

قال الشيخ : ما كنت أراك إلاوقد علمت من أين هذا ، قال له : من أين هو؟ قال : لأن القوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، ويوفون بالعهد . ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدا ، ويتناصفون بينهم ؛ ومن أجل أنا نشرب الخمر . ونزنى ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ، ونظلم ، ونأمر بما يسخط الله ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض .

قال : صدقتنى ، والله لأخرجن من هذه القرية ، فما لى فى صحبتكم خير وأنتم هكذا .

ما يجب أن يكون عليه المعلم

« ١ » المعلم وهو الأستاذ والمؤدب والمربى — إنسان أكملته التربية، يحاول أن ينقل صورته ونظام أحواله إلى غيره ليكون خلفا منه ، فلم يمنح حق سياسة التهذيب لإظهار جلاله والرغبة فى تعظيمه ، ولكن ليدير شئون تلاميذه ، ويبحث عن الطرق المهمة لإفادتهم ؛ فمن أهم واجباته التواضع ومجانبة العجب ؛ فإن التواضع عطوف ، والعجب منفر ؛ وأن يدع التكلف لما لا يحسن ، وألا يستنكف من تعلم ماليس يعرفه ، وأن يستقل ما أوتيه ليستزيد ، وألا يتصنع بما أدرك ، وألا يجهل من نفسه مبلغ علمها ، ولا يتجاوز بها قدر حقها ، وأن يكون من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ، وأن يكون فى مشيه وسكونه وإشارته بالتحية وفى منظره إذا تبسم ، وفى منطقه إذا تكلم — مايشير إلى وقاره وكمال عقله وحسن خلقه ، لاسيما فى المجامع والمحافل ؛ وألا يبخل بتعليم مايحسن ، ولا يمتنع من إفادة مايعلم ؛ فإن البخل به لؤم وظلم ، والمنع منه حسد وإثم ، وفى التعليم زيادة العلم وإتقان الحفظ ؛ وأن ينقب طوال حياته عن أهم المؤلفات وأقربها فائدة وأبدعها أسلوبا ، وأن ينظر فى شئون تلامذته ، ويمهد لهم سبيل المجد والارتقاء وأن يكون لهم مثال العقل ونموذج الوقار والصلاح ، وأن ينصحهم ويرفق بهم ، ويبذل المجهود فى رفدهم ومعونتهم ، وألا يحتقر ناشئا ، ولا يتصغر مبتدئا ، وأن يوجه ذهن الطالب إلى تعقل المسائل وفهم المعانى من أقرب الوجوه متجنبا الاحتمالات البعيدة وتكلف التعسفات .

المقوتة ، وأن يحضر درسه قبل إلقائه ، فيراجع مايحتاج إلى مراجعته من الكتب لتصحيح ألفاظ وتحقيق بحث ، وألا يأتى للطلبة فى أثناء الدرس بما يوش الفهم ، فلا يغرب بالإكثار من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بالاحتمالات فإن ذلك مضيعة للأوقات ، وألا يخلط مسائل علم بمسائل علم آخر إلا ما جاء عرضا وتوقف عليه فهم المقام ؛ وأن يمرنهم على المناقشة فيما يصل بهم إلى المطلوب فليس بنافع أن يلقن المعلم الطلبة ما يريد من الأحكام والمسائل ليحفظوها عن ظهر قلب ، بل يستمر معهم فى أخذ ورد وبحث وتمثيل حتى يصل بهم إلى ما يريد، وأن يعودهم أيضا القدرة على التعبير عما يدركونه بعد إيضاح الموضوع لهم إيضاحا تاما ، وأن يمرنهم على إثبات الشيء بالبرهان الصحيح الثابت الذى لا يقبل النقص لتجرى فى نفوسهم حركة المعقولات ، ويحيي فيهم قوة التأمل والتعقل ، حتى تصير ملكة راسخة ، وأن يقتلع جذور التعصب من قلوب المتعلمين ، ويحبب إليهم الإنصاف ، فإن التعب يسبب تفريق الناس بعضهم عن بعض ويحجب العقول عن الحق ، والإنصاف راحة لأنه يرفع الخلاف ، ويوجب الائتلاف .

(ب) المعلم كما يراه الغزالى :

قال الغزالى : اعلم أن للإنسان فى علمه أربعة أحوال كحاله فى اقتناء الأموال؛ إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار فيكون غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا ، وهى أشرف أحواله .

فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال : فله حال طلب واكتساب ؛ وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكر فى المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال :

فمن علم وعمل وعلّم فهو الذى يدعى عظيما ؛ فإنه كالشمس تضيء لغيرها .

وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيّب غيره وهو طيب .

والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره، وهو خال عن العلم ، وكذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت تضيء للناس وهى تحترق

ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما ، وخطرا جسيما فليحفظ شرائطه :

الشرط الأول : الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » البخارى : فيقصد إنقاذهم من نار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ؛ فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سببُ الحياة الباقية ، ولولا المعلم لانساق ماحصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم ، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة إذا علّم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وإلا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . والذين يطلبون الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » وداخلون فى مقتضى قوله تعالى : « الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ »

الشرط الثانى : أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه : فلا يرى لنفسه على المتعلمين منة وإن كانت المنة لازمة عليهم .

الشرط الثالث : ألا يدع من نصح المتعلم شيئا : وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ، ثم ينبهه على أن الغرض من طلب العلم القرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، وأن يقبح ذلك فى نفسه بأقصى ما يمكن ؛ فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده ،

فإذا تعلم الطالب وقصده الدنيا فلا بأس أن يتركه ؛ فإنه يثمر له طمعا في الوعظ .

الشرط الرابع : وهو من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ؛ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار : إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل متعلم : « لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ الْبَعْرِ لَفَتُّوهُ وَقَالُوا مَا نُهِينَا عَنْهُ إِلاَّ وَفِيهِ شَيْءٌ » البخاري، ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

الشرط الخامس : إن المتكفل ببعض العلوم ينبغى ألا يقبّح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه : كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ؛ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره ، والمتكفل بعلوم ينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

الشرط السادس : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » البخارى . فليبثُّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَى بَعْضِهِمْ » وقال على رضى الله عنه وأشار إلى صدره : « إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة » وصدق رضى الله عنه ؛ فقلوب الأبرار قبور الأسرار ؛ فلا ينبغى أن يفشى العالم

كل مايعلم إلى كل أحد . هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ، ولذلك قيل : « كِلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ؛ حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار » .
وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » فقال : أترك اللجام وأذهب ؛ فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني ، فقد قال تعالى : (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحقين .
الشرط السابع : إن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه ؛ فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ، ويهوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ؛ إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ؛ فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله . وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله ، وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخت فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل وحسنت مع ذلك سريرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك — فلا ينبغى أن يهوش عليه اعتقاده ، بل ينبغى أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ، فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى ، وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره .
وعلى الجملة يجب أن يقتصر مع العوام على تعليم العبادات ، وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من الرغبة فى الجنة والرهبة من النار كما نطق به القرآن ، وينبغى ألا يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

الشرط الثامن: أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر ؛ فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأثر به .

ومثل المسترشدين من المعلم المرشد مثل الظل من العود ، ومتى استقام الظل والعود أعوج ؟ . وقد قيل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ولذا كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال على رضى الله عنه: قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه . والله أعلم

فضيلة العلم

١ – لا ريب أن العلم متقدم الوجود على العمل ، لأن العمل لا يكون إلا بعد العلم : وهو ثبات صورة المعلوم وتصور أشخاص المعانى فى نفس العالم. والإيمان هو الذى يوجب العلم ؛ لأنه متقدم الوجود عليه : ألا ترى أن الأنبياء عليهم السلام إنما قالوا أولا بالدعوة إلى الإقرار بما جاءوا به ، والتصديق إلى ما دعوا إليه مما صححته الدلائل وصدقته الآيات ، وكان غائبا عن تصور الأوهام وتدبر الأفهام فإذا أقر من دعوا بالألسنة طولبوا بالتصديق ، فإذا صدقوا صح الإيمان ، فإذا صح الإيمان دعوا إلى العلم المؤدى إلى معرفة الواجب عليهم الباعث على القيام باللازم لهم من شرائع دينهم وتوابع دنياهم : روى عن جندب أنه قال : كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم غلمانا حزاورة يعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا .

وعن القاسم قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : لقد عشنا برهة عن دهرنا وإن أحدنا ليتعلم الإيمان قبل القرآن : وذلك لأن أول الإيمان سماع بالآذان ، فإذا وعت وجب الإقرار باللسان ، فإذا أقر أخذ بتصديق القلب ، فإذا صدق طولب بالعلم ، فإذا علم خرج من ظلمة الجهل إلى نور الهدى ؛ لأنه ليس للسمع ولا للنطق حقيقة فى نفع ولا ضرر إلا بصحة ثبوت المعرفة فى القلب ؛ فإن العلم ينقسم قسمين ظاهرا وباطنا : فالظاهر سماع بالأذن ونطق باللسان وعمل بالجوارح ، والباطن تصديق القلب وصحة اليقين وثبوت المعرفة ، فإذا صدق القلب استنار بنور الهدى الذى هو من هبات الله عز وجل ، لأن الهدى لا يدرك بوقوع علم ولا بحضور فهم ، والله يقول عز من قائل : « إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ » وقال جل وعز : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » وقال تبارك

اسمه : « ذَلِكَ هُـدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وقال سبحانه : « مَنْ يَهْدِي اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي » وهذا كثير فى كتاب الله العزيز فإذا اجتمعت الهداية مع العلم تأيد المرء فى جميع أحواله ، وتزيد من الخير فى أقواله وأفعاله ، وبعد عن عوارض الارتياب ، وقوى فى كل الأسباب ؛ لأنه لا يعبد الله عز وجل على حقيقة الايمان به إلا بالعلم ، كما لا يعصى إلا بالجهل .

٢ ـ ومما يدل على مكانة العلم أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بمجلسين : فى أحدهما قوم يذكرون الله ، وفى الآخر قوم يتفقهون فى الدين ، فقال عليه السلام : « كُلُّ الْمَجْلِسَيْنِ عَلَى خَيْرٍ ، وَأَحَدُهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صَاحِبِهِ : أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَذْكُرُونَ اللهَ وَيَسْأَلُونَهُ ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ ، وَأَمَّا الْمَجْلِسُ الْآخَرُ فَيَتَعَلَّمُونَ الْفِقْهَ وَيُعَلِّمُونَ الْجَاهِلَ ؛ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا فَجَلَسَ إِلَى مَجْلِسِ الْفِقْهِ »

٣ ـ وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ ظَنَّ أَنَّ لِلْعِلْمِ غَايَةً فَقَدْ بَخَسَهُ حَقَّهُ ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي وَضَعَهُ اللهُ بِهَا حَيْثُ يَقُولُ : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) » .

٤ ـ وقد أبان الله عز وجل فضل العلم على الجهل بقوله تعالى : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقال عز ذكره : (يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) ومثل هذا كثير فى كتابه .

ووصف على بن أبى طالب رضى الله عنه علماء الدين فقال : هم الأقلون عددا الأعظمون قدرا ، بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الايمان حتى باشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استخشن المترفون ، وأنسوا بما استوحش الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأرواح معلقة بالرفيق الأعلى . هاه هاه شوقا إليهم .

١ وقال رضي الله عنه : ماقطع ظهري في الإسلام إلا رجلان : عالم فاجر، ومبتدع ناسك : فالعالم الفاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره ، والمبتدع الناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه

وكان السلف الأول يتعوذون بالله من العالم الفاجر العالم بالسنة .

٥ - وبالعلم اعتصم الملوك من الظلم ، وامتنعوا من الجور ، وعدلوا في أحكامهم وأقسطوا في أقسامهم ، فتسددت آراؤهم ، وحسنت في كل الأحوال أنحاؤهم ، فصاروا أئمة هدى يقضون بالحق وبه يعدلون .

٦ - مما تقدم يتجلى أن العلم مناط الحياة الاجتماعية ، وأس الحضارة والعمران ، وأول المقومات التي لا تقوم إلا بها حياة المجتمعات .

وحد العلم بوجه الاجمال : أنه العقل الغرزي إذا ترقى إلى متناول المعرفة بحقائق المحسوسات ؛ ولهذا يمدح الانسان العاقل بنسبة ما عنده من العلم بتلك الحقائق فيقال : فلان عاقل عالم ، أو نابغة أو حكيم وهكذا بالتدريج . وكلما كان الانسان واسع العلم كثير المعرفة واقفا على حقائق الأشياء كان وجيها في قومه محترما من الناس ، قوي الجانب ، مقبول الرأي ، عارفا بطرق السعادة ، ميسرا للعمل ، شديد الهيبة في نفوس الناس .

وهكذا الحال أيضا باعتبار المجموع كما هو باعتبار الأفراد : أي كما تكون هذه النعوت لشخص بمفرده كذلك تكون الأمة بمجموعها إذا انتشرت بين أفرادها أنوار العلم ، وعمت بينهم المعارف .

ولا دليل نقيمه على هذين الأمرين أعظم مما هو واقع تحت الحس والمشاهدة فإننا نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا أن كل عالم بلغ درجة الكمال في العلم لا تنفك عنه هذه النعوت ، ومقامه في المجتمع أعلى وأعظم من مقام الجاهل . والأمم كذلك ؛ فإن الشرق الآن يموج بكثرة الأمم والشعوب موج البحار ، ومع هذا فهو منحط عن الغرب بسائر أوصاف القوة والكمال ، وقد أصبحت السيادة للغربيين على معظم أنحاء الشرق وسكانه . ولماذا ؟ لعلم أولئك وجهل هؤلاء .

العلم طريق السعادة للدارين ومبعث مجد الأمم وينبوع ثروة الشعوب ، وما أذل الشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنى وأقفر أوطانه بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه إلا إهمال أهله للعلوم واسترسالهم فى الشهوات مع أن أعظم أمم الشرق التى بلغت أعلى مقامات الحضارة وترقت فى العلوم إلى ذروة الكمال ، فرفعت منار التمدين وتبسطت فى مناحى العمران — لم تبلغ ما بلغته من ذلك الأمة الاسلامية فى عصر ترقيها وإبان مجدها . وأين هى من ذلك المجد الآن ؟ ولماذا أخنى عليها الزمان ؟ لتركها العلوم النافعة فى الدنيا واشتغالها عن ذلك بالاستغراق فى البذخ الذى أنهك قواها ، وأفقدها مجدها . ولو استمرت على خطتها الأولى والقرآن إمامها يحثها على العلم ، ويمهد لها طرق السعادة — لكانت لهذا العهد صاحبة السيادة على معظم أجزاء المعمور والمتسلطة على خزائن الأرض .

ومع هذا فهى إذا طرحت دواعى اليأس الآن ، واستيقظت من غفلة الوسنان ، واسترشدت بالقرآن ، فنهضت نهضة رجل واحد فى سبيل تعميم العلم والتعليم على طرقه النافعة وأصوله المرغوبة لمثل هذا العصر ، عصر الاختراع والابداع ، عصر العجائب والغرائب ، عصر العلوم والمعارف — إذا فعلت كل ذلك — فهى واصلة بلا ريب إلى مبتغاها وإعادة سالف مجدها

قلب نظرك فى القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يحث المؤمنين على العلم ، ويخاطب العقل ، ويأمر بالتبصر فى آيات الكون والتفكر فى خلق الله وذلك كما فى قوله تعالى : « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » ، « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ، « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ، « لِأُولِي النُّهَى » ، « لِأُولِي الْأَلْبَابِ » وغير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على عناية الله تعالى بالمؤمنين ، وحثهم على إطلاق العقل من قيد الجهل المهين ، ليخرج بهم من الظلمات إلى النور ، ومن العمى إلى الهدى .

وأية عناية من هذا القبيل أعظم من عنايته تعالى بالمؤمنين فى قوله جل

وعلا : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ) : أى إلى العلم .

بل أى ترغيب فى العلم وتشريف لقدر العلماء أحسن وأجل من قوله تعالى : (يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ) ؟ بل أى منشط على العلم داع إلى التملص من الجهل أعظم من قوله تعالى يصف العلم بالحياة والجهل بالموت ، ويفضل العالمين على الجاهلين : « أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها) ؟

فعلينا أن نتم هذا الجد لندرك شأو آبائنا الأولين ، ونحيا حياة طيبة كحياة أسلافنا الطاهرين : « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

لا تستقيم أعمال الإنسان إلا بالعلم اليقينى الذى هو ترقى العقل إلى درجة الإحاطة بما يكتنف الإنسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذى هو حياة القوى بموت الضعيف ، وإنما يتيسر وصول العقل إلى هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهذيب إذا روعى فيهما جانب الفضيلة على وجه يشعر معه المتعلم أنه إنما يتعلم ليعمل ، فينفع نفسه وبنى جنسه بالعلم . وكأين من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور بوجوب العمل وعاش عمرا طويلا فى هذا الوجود ولم يترك فيه أثرا من آثار العلم النافع ؛ لأنه إنما علم ولكن لم يعمل بما علم ، فعلمه وجهله سيان ؛ إذ ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أنا عالم ولا يتبع القول بالعمل ، فيعمل بما رزقه الله من العلم ؟ وأولى بمثل هذا العالم أن يخشى الله بكذبه على العمل ، فإن الله تعالى يقول : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ »

العلم هو الميزان الذى تتكافأ به قوى الشعوب المتنازعة فى مضمار الحياة المدنية مادام العمل به متبادلا بين المتنازعين ، ومتى وقف أحدهما عن العمل

واستمر الآخر في عمله رجح هذا على ذاك بالضرورة ، فنازعه البقاء ، وغلبه عليه، ولهذا وردت الاشارة في قوله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وأنزلنا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أي بالعدل المانع من تغالب الناس : فالقسط رد جميع الأعمال إلى ميزان الشرع الذى هو الكتاب المرشد إلى العلم بمصالح الانسان الدنيوية والأخروية ، ومتى قام الناس بالقسط وتكافئوا بميزان العمل في مصالح حياتهم الاجتماعية ـ أمن كل فريق منهم غائلة تنازع البقاء مالم يختل ذلك التكافؤ برجحان إحدى كفتى ميزان العمل من المتنازعين ، فعندئذ لامناص من غلبة الراجح على المرجوح ؛ وحياة قوم بفناء آخرين بحكم السنن الطبيعية التى سبق بها العلم الالهى في هذا الوجود الخلق ، وإليها يشير القرآن في قول الله تعالى : (سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) وقوله تعالى: (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

إذا تقرر هذا فقد وضح أن العلم بلا عمل لا يغنى عن الحياة شيئاً بل لايكون العلم علماً إلا إذا ظهرت آثاره في الخارج ، وإنما تظهر آثاره بالعمل ؛ فالعمل العمل ؛ فإن خير ماعلمه الانسان هو العمل ، وإلا فأى فائدة من علم المؤمن في دينه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا لم يصل فينتهى عن ذلك ؟ ومن علمه في دنياه أن الزراعة مثلا من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها ؟ وهكذا يقال في كل علم من علوم الدين والدنيا .

ومن نظر إلى آثار العمل الصادرة عن العلم التى تفيضها على أرجاء المشرق الأمم الأوربية الآن يحكم حكما جازما أن لا حياة لأمة ولا بقاء لشعب بإزاء الأمم المتمدينة مالم يجارها في ميدان العمل مجاراة لا يعترى صاحبها الوهن ولا الكلل ، وإلا جرفت بتيار علومها وجود الجاهلين ، وسحقت بقوة عملها أجسام المستضعفين : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ـ بعد إذ هداهم إلى طريق

العمل وحذرهم عاقبة الإهمال والكسل ، وأبان لهم عن سنن الوجود ، ودعاهم بها إلى الاستبصار والاعتبار ، فقال تعالى : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) وقرّع المعرضين منهم عن البحث فى بدائع الكون ونظامه المصون ، فقال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

أصول هامة فى التعليم تجب رعايتها

١ – يجب أن يكون للتلميذ رغبة فى تحصيل العلم الذى يتعلمه

٢ – كل تلميذ يختلف عن غيره تجب مراعاة مقدرته العقلية وأخلاقه فى تعليمه

٣ – إذا عجز تلميذ عن تحصيل علم مهم لا يجوز أن يحرمه كله ، فيلزم تحصيل أقل ما يجوز الاكتفاء به من ذلك العلم ، ويجب أن تقلل العلوم التى يلزم جميع التلاميذ تعلمها على السواء .

٤ – من التلاميذ من يميل إلى العلوم العقلية المجردة كالرياضيات وولع بها ، ومنهم من لا يقدر على تحصيلها فلا مناص من معاملة كل فريق بما يناسبه .

٥ – من التلاميذ من يميل إلى تعلم اللغات ، ومنهم من لا يميل إلى ذلك ، فواجب التمشى مع استعدادهم

٦ – فى وسع كل ولد أن يتعلم قراءة لغته وكتابتها ، وفى الإمكان ترغيبه فى القراءة والمطالعة .

٧ – أفضل ما يقوى عقل الصغير ويزيد مقدرته على استخراج النتائج وبناء الأحكام على المقدمات اختباره الأمور بنفسه ، وتعلمه بالعمل : كأن يوضع بين يديه قطع الخشب والمعدن ليقطعها ويطرقها ويقيسها ويزنها ، ويتصرف فيها كيف شاء ، وكأن يعهد إليه فى

القيام على حديقة سقيا وغرسا وتشذيبا إلى غير ذلك . فإذا اعتاد ابن ثمان سنوات وزن الأجسام وقياسها هان عليه تعلم الحساب ، بحيث يمكن تفهيمه الكسور العشرية مثلا فى ساعة من الزمن ؟ وما مثل تعليم الأولاد من غير عمل إلا كمثل تعليم السباحة بالكلام

٨ – يجب أن يلتفت إلى كل تلميذ على حدته ويهتم به اهتمام خاص إذا استطاعت المدرسة .

٩ – إن العناية بوضع مناهج التعليم وإعداد معداته لا يأتى بالفائدة المطلوبة مالم يقم به المعلمون الكفاة ، وهم لا يقبلون مناصب التعليم إلا إذا أغروا بالأجور الكبيرة ، أما المعلمون الذين يقبلون الأجور الزهيدة فليسوا فى الغالب من أهل العمل ، فعلى الذين فى أيديهم أمر المدارس أن يفهموا أنه يجب عليهم دفع الأجور الكافية للمعلمين الكفاة .

١٠ – قد يتمكن ذو المقدرة من المعلمين من أن يفيد التلاميذ ولو أجراهم على طريقة غير صالحة ، ولكن الفائدة المطلوبة لا تحصل عادة إلا على أيدى المعلمين المهرة إذا علموا الطرق الصالحة

١١ – أفضل ما يعلم فى المدارس لترقية مدارك الطلبة وتعويدهم البحث عن الحقائق واستنباط النتائج هو العلوم الطبعية ، وقد تحققت اليابان ذلك فأصلحت مدارسها وطرق التعليم فيها فوصلت إلى ما وصلت إليه من الارتقاء ، واليابانى لا ينقطع عن المطالعة بعد خروجه من المدرسة لأنه تعود تحصيل المعارف بنفسه ، ولذلك تظل معارفه تزداد ومداركه تتسع كل أيام حياته . واشتغال الطالب بالمسائل العلمية البسيطة يزيد مقدرته على التمييز بين الأمور والحكم فيها وتعليلها والنظر فى عواقبها، والمسائل العلمية الطبعية قليلة الملابسات والاختلاط ، ونتيجتها إما أن تكون صوابا أو غلطا ولا ثالث لهاتين

النتيجتين ، وذلك قريب من طبع الولد ؛ فإنه إذا صور صورة لم يمزج الألوان فيها ويدرج بعضها إلى بعض بل جعل السواد حالكا والبياض ناصعا ، وإذا قرأ سيرة رجل حكم أنه نبيل كامل أو نذل سافل

وعلينا أن نتثبت من أن العلوم ذات المسائل البسيطة القليلة الملابسات التي يراد تعليمها للولد ليست فوق مداركه ، وإلا وجب ألا يلزم تعلمها : مثال ذلك الهندسة التي يرى بعض المعلمين أن يتعلمها كل طالب ؛ فهي من أفضل العلوم لتعويد الطلبة التفكير الصحيح والتوصل إلى النتائج من المقدمات ، ولكن فهمها فوق طاقة الكثير منهم ، ولا يفهمها حق الفهم إلا الذين في وسعهم تصور الأمور المجردة عن الحس ، وهم على العموم نحو ٥ في المائة من الطلبة ، ويرتاحون إلى تعلمها ارتياح البط إلى السباحة في الماء ، أما الباقون وهم ٩٥ في المائة فيكرهون على تعلمها إكراها ، فيضرهم ذلك أكثر مما ينفعهم ، وقديما لم يكن يؤذن بتعلمها إلا للأذكياء المتقدمين في السن ، وإذا ظهر قصور طالب في تعلم الهندسة أو غيرها عده معلموه بليدا ، وتابعهم في ذلك أهله ورفاقه مع أنه قد يفوق غيره ذكاء إذا علم كما يجب أن يعلم .

١٢ - ليس على المعلم أن يتقيد بالفرع الذي يعلمه، بل إذا رأى تلاميذه تعبوا من ذلك الفرع وسئموه فليأتهم بما يلذ لهم ويفيدهم، ولو كان خارجا عن دائرة اختصاصه .

ومما يفيد الطالب في اختباراته العلمية أن يفكر من وجوه مختلفة، فيبصر ويزن ويقيس ويدون ما يراه ويقابل النتيجة التي يصل إليها بالنتائج التي وصل إليها غيره ، وإذا كشف حقيقة بنفسه زاد حماسه للبحث عن قوى الطبيعة وتحصيل العلم ؛ أما ما يتعلق تعلمه بالذاكرة فقط كاستظهار جداول الأقيسة والأوزان والقصائد وتعلم اللغات

فالأفضل تعليمه فى الحداثة ، ومايستظهره الولد فى حداثته يرسخ فى ذهنه ولولم يفهمه .

١٣ – قد دل الاختبار على أن مخالفة الطبيعة أصل كل بلاء فى التعليم ، فعلينا أن نطبق طرقنا فى التعليم على الطريقة الطبعية أى التعلم بالملاحظة والاختبار ، وهى الطريقة التى يتعلم بها الصغير من تلقاء نفسه قبل أن يسلم للمؤدب أو يرسل إلى المدرسة ، فتراه لا ينفك يتناول ما تصل إليه يده و يقلبه و يدقق فى الفحص عنه ، و يشتغل بحل المسائل الطبعية التى تعرض له ، وهو مرتاح إلى الاشتغال بها مسرور بعمله ولو أتعبه ، ويبقى رضىّ الأخلاق يتدفق البشر من محياه إذا كان معلمه يحبه بعد دخول المدرسة ؛ ولكن إذا أخذ المعلم أوغيره يهزأ به ويشهر أغلاطه ، وإذا كانت أمة تدلله يوما ، وتشتد عليه آخر — قام فى نفسه أنه مظلوم ، ومن قام فى نفسه أنه مظلوم كان كمن فيه روح خبيثة

١٤ – ليس من الصواب إلزام الأولاد تعلم أمور مخصوصة ، ولكن كل ولد فى الحادية عشرة لا بد له من أمور منها :

(ا) المقدرة على التكلم والقراءة والكتابة فى لغته

(ب) المقدرة على حل المسائل الحسابية البسيطة

(ج) المعرفة بالمبادئ البسيطة من علم الطبعيات يحصلها بذاته بالاختبار والملاحظة ولكل ولد ولع شديد بالقصص ويسهل استخدام ولعه هذا لتعليمه القراءة ، ثم لا يصعب ترغيبه فى القراءة بصوت عال ، فيتمرن على النطق الفصيح ، والولد الذى ينشأ بين أناس يكثرون من المطالعة يشب على حبها ؛ والولد المولع بالقراءة والمطالعة يظل يزيد معارفه إلى يوم مماته ، أما الإكراه على الدرس والتعلم فضرره أكثر من نفعه إلا إذا كان مصحوبا بالرفق واللين وقام به من تمكن حبه من قلب الولد ، والتملق أيضا يضر فى بعض الأحيان ، فيجب أن

يستدرج الولد استدراجا إلى عمل كل مايزيده خبرة ويوسع مداركه ويزيده عافية .

لايمكن تعليم أى تلميذ كان قسرا ، ولكن ليس فى كل مائة من الأولاد ولد واحد لايميل إلى القيام بما يجب عليه .

١٥ - من الأغلاط المضرة إرسال الصغار إلى المدارس الكبيرة (وبخاصة المدارس الداخلية) أما إذا كانت المدرسة خارجية يتردد عليها الولد ويعود إلى بيته فالضرر أقل . ولا يجوز إرسال الولد إلى مدرسة داخلية مادام دون الثالثة عشرة من العمر إلا إذا كانت المدرسة صغيرة ، وكان مديرها وزوجته رفيقين بأولاد الناس محبانهم ، ولا يزال كثير من الوالدين إلى الآن لايعرفون أن أكبر واجباتهم تأديب أولادهم وتهذيبهم وتعليمهم ، فيكلون ذلك إلى غيرهم ، وكثيرون من ذوى المقامات يشتغلون بجمع المال ويهملون تربية أولادهم حتى إذا شب أولئك الأولاد بذروا المال الذى شغل آباءهم عن العناية بهم .

أما إذا كان الوالدان أميين فخير للولد أن يكون فى المدرسة مهما كانت ، وكذلك إذا كان الوالدان فقيرين لأنه يرى فى المدرسة النظافة والترتيب ، ويعتنى به فيها أكثر مما يعتنى به فى بيته ، وكثير من المدارس يقبل الطلبة الخارجيين والداخليين على السواء ، ويميز بين الفريقين فى أمور لايجوز التمييز بينهما فيها ، فينجم عن ذلك ضرر كبير .

١٦ - يجب أن يكون المعلم واسع الاطلاع يكثر من المطالعة ، فيقتدى به تلاميذه ، ولا يلبثون أن يظهر كل منهم ميله إلى علوم مخصوصة ، وحينئذ لايجوز ردعهم عن شىء منها ، بل يشجع كل على متابعة ما يميل إليه وتقوية مواهبه الطبيعية الخاصة .

١٧ ـ ومن تلاميذ المدارس من يولع بقراءة القصص والروايات ، فيبادر المعلمون إلى منعه من ذلك وقد ينتزعون منه بعملهم هذا حب القراءة والمطالعة ، والأفضل أن يتركوه وشأنه فى ذلك ، فإذا ارتقى عقله واتسعت مداركه عدل عنها إلى قراءة ما هو أنفع منها

١٨ ـ وأفضل طريقة لتعليم الرياضيات واللغات وجميع العلوم هى أن يتدرج التلميذ إلى التنقيب عنها وتحصيلها بذاته وقرن العلم بالعمل أى أن تعلم على الطريقة المتبعة الآن فى تعليم العلوم الطبعية كعلم الحيوان وعلم النبات والكيمياء

١٩ ـ ما من أحد ينكر ما للتعليم الابتدائى من الأهمية ؛ إذ ليس من سبيل سواه إلى توسيع مدارك العامة ، وارتقاء الأمة جمعاء يتوقف على ارتقاء عامتها ؛ بل إن العامة يحكمون الخاصة لكثرة عددهم وتحكمهم فى انتخابات الحكومة وغيرها ، فإذا لم يكتسبوا الاستقلال فى الرأى من تعلمهم فى المدارس وكانوا لا يقرءون الصحف ـ كانت أصواتهم فى الانتخابات أُلعوبة فى أيدى الذين يضللونهم ؛ ولا سبيل إلى إصلاح التعليم فى المدارس الأولية إصلاحاً يأتى بالفائدة المطلوبة سوى تعيين المعلمين الكفاة ولو تقاضوا الأجور الكبيرة. ويحسن أن يمتحن الطلبة معلموهم لأنه إذا عرف الطلبة أن ممتحنهم هو غير معلمهم لم يكن همهم فى تحصيل العلوم سوى الاستعداد لاجتياز الامتحان ، حتى إذا اجتازوه حمدوا الله على تخلصهم من عناء الدرس ، وأقصوا الكتب .

٢٠ ـ لا جرم أن التعليم العالى لازم للفتيات كما هو لازم للفتيان ، ولكنهن يعلمن الآن كما يعلم الفتيان تماما ، وفى ذلك ضرر لهن ناشئ عن اختلاف الجنسين فى الطبائع فلا بد فى تعليمهن من رعاية طبائعهن ، ومثالب تعليم الفتيان كثيرة ولكنها فى تعليم البنت أكثر .

(٣) أثر العلم فى المعتقدات

كان الانسان فى عصور الحضارات البدائية يعتقد أن الطبيعة متقلبة الأطوار وكان يسند الحوادث المختلفة التى تخيفه أو تبهره إلى آلهة مختلفة ، وكانت صورة هذه الآلهة منتزعة فى الغالب من صور الناس أنفسهم ، فلما استخرج غليلو سنن القوة والحركة ، واستنبط مبادئ الاتساق فى بعض الأفعال الطبيعية ، وتمكن هو وغيره من التنبؤ بوقوع الحوادث الفلكية ، فوقعت فى المواعيد التى ضربوها — اقتضى نجاحهم إحداث تغيير أساسى فى تفكير الناس .

ثم لما طلع علينا علماء التدرج بأدلتهم المستخرجة من الصخور ، والطبقات المنضدة فى قشرة الأرض ، والعظام ومافيها من آثار ، والدماء وما تخضع له من تجارب — بان ارتباط الانسان بمملكة الحيوان :

وجاء فى إثر هؤلاء ، وهؤلاء علماء النفس المحدثون ، فذهبوا إلى أن نوازع الانسان ليست إلا أفعالا عكسية تحولت بفعل البيئة التى نشأ فيها ، وأن دوافعه النفسية التى تلون سلوكه ليست إلا دوافع جنسية غرضها إخلاف النسل وضمان بقائه ، فزال آخر حاجز يفصل بيننا وبين الحيوانات .

(٤) أثر العلم فى الأسرة

إن شريعة آداب النفس التى لا تتحول إلا تحولا بطيئا تتبدد اليوم بين سمعنا

وبصرنا ، والعادات المتصلة أصولها بنشأة الإنسان على الأرض ، الممتدة إلى أغوار في التاريخ ـ تتهاوى بين أيدينا :

ففروسية القرون الوسطى التي بدت في عصرنا مفرغة في قالب الأدب الخاص في معاملة النساء بلطف لم تثبت على تحرر المرأة الاقتصادى ، أما الزواج الذى كان سبيل الاجتماع إلى حفظ النوع على أسلوب منظم فقد أخذ يفقد استهواءه وإغراءه ودفعت الأعباء التي يحملها الزوجان في عصر الصناعة إلى تأخير سن الزواج ، والأسرة التي كانت مربى الأخلاق قد لانت للنزعة الفردية في حياة المدنية الصناعية فتفرقت بددا .

وإننا لندهش عند قراءة التاريخ ؛ إذ نتبين مدى ما يصيب قواعد الأخلاق وآداب السلوك من التغير والتحول مع أنها قد تبدو ثابتة راسخة لا يأتيها التحول إذا حصرنا النظر في فترة قصيرة من الزمن .

إننا لا نعلم في أى عصر من عصور التاريخ انتقل الإنسان من طور الصيد والقنص إلى طور الزراعة ، ولكننا نعلم أن هذا الانتقال اقتضى تحولا عظيما في نظر الإنسان إلى الفضيلة والرذيلة ؛ فالاجتهاد في عصر الزراعة كان مفضلا على الشجاعة التي كانت رأس الفضائل في عصر القنص ، وفيه كان يؤثر الادخار والسلم على السلب والحرب ، ثم إن الانتقال إلى عهد الزراعة بدل من مقام المرأة ؛ فهى أجدى على الجماعة في دور الزراعة منها في دور القنص ؛ لذلك كانت الأمومة مقدسة ، وكان ضبط النسل لو أدركت وسائله عملا غير أدبى لأنه يقلل الولد .

في ذلك العهد نبتت أصول شريعة الآداب التي نأخذ اليوم بها ، ففي المزرعة كان الفتى يبلغ سن الرجولة باكرا ، وكان كل ما يحتاج إليه ـ إذا أدرك سن العشرين ـ محراثا وذراعا قوية ، فكان يبكر إلى الزواج ، ولا يضطر أن يعانى ما يعانيه عشرات الألوف من شبان اليوم في الفترة التي تمضى بين المراهقة والزواج المتأخر .

(٥) أثر العلم فى الزوجية والأمومة

ثم أخذ الرجال والنساء والأولاد يهجرون البيوت؛ لينتظموا فى المصانع. فانحلت بذلك وحدة الأسرة، وضعفت سلطة الوالدين، وانصرف الناس من الحرث والبذر والحصاد إلى كفاح هو الحياة والموت فى مخازن ضيقة قذرة قاتمة أومصانع تدوى فيها أصوات الآلات والعجلات، وتوالت المستنبطات الآلية فتأخر سن البلوغ العقلى، وطال زمن المراهقة العقلية وطالت فترة التعليم.

فى هذا المعترك العنيف رأى الرجل المرأة وقد جردت من نفعها الأول فى حياة الحقل وواجهته مصاعب الأولاد؛ لأن الأمومة فى المدن سلسلة من الأطباء والممرضات والأدوية، فإذا أرهق نفسه فى نفقات تعليم أولاده، ومسكنهم وملبسهم وفقا للبيئة التى يعيش فيها، وبلغوا السن التى تمكنهم من كسب رزقهم — نفروا من البيت إلى المصنع. لذلك بدا للناس أن الأمومة فى البيئات الصناعية أشبه ما تكون بضرب من الاستعباد، أو التضحية السخيفة فى سبيل النوع، فلما نبتت فكرة ضبط النسل شاعت فى الأوساط الصناعية، ثم تعدتها إلى غيرها.

ولهذه الناحية من حياة الانسانية وجه آخر: إن التقدم فى علوم الطب والصحة أخذ يكشف عما فى سلامة الجسم وصحته من الروعة والجمال، فالعناية التى توجهها الانسانية إلى الرياضة البدنية وتكريم أبطالها شاهد بليغ على ذلك، وهذا الشعور بوجوب الصحة يتعدى الانسان إلى الانسانية المقبلة متمثلة فى ذرياته.

ومن هنا المذهب الذى يقضى على الانسان أن يورث المجتمع جماعة من الذريات تتألق عافية جسدية وصحة عقلية، ومن هنا أيضا النزعة التى ترمى إلى تعقيم الرجال والنساء الضعفاء والتى هى فى طريقها إلى الذيوع والانتشار.

فموضوع النسل الذى كان إلى العهد الأخير من الأسرار المقدسة فى حياة البشرية قد أصبح موضوع بحث وجدل وتنازع فى الرأى، ولايزال كل يدلى برأيه ويعزز حجته جهد طاقته.

أهل الخلق القويم كما وصفهم الامام على كرم الله وجهه

روى أن صاحبا لأمير المؤمنين على رضى الله عنه يقال له همام — كان عابدا ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، صف لى المتقين حتى كأنى أنظر إليهم. فتثاقل على كرم الله وجهه من جوابه ثم قال : ياهمام ، اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

أما بعد فإن الله سبحانه خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم آمنا من معصيتهم ؛ لأنه لاتضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه . فقسم بينهم معيشتهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم ، فالمتقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم (١) الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم

---

(١) ملبسهم الخ : أى أنهم لايأتون من شهواتهم إلا بقدر حاجتهم فى تقويم حياتهم فكان الانفاق كثوب لهم على قدر أبدانهم ، لكنهم يتوسعون فى الخيرات .

فى البلاء كالذى نزلت فى الرخاء (١) ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب .

عظم الخالق فى أنفسهم فصغر مادونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها (٢) فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة (٣) ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحةً طويلة ، تجارة مربحة (٤) يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ،

أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلا :

يحزنون أنفسهم ، ويستثيرون دواء دائهم (٥) ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا ، وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم (٦) ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم

---

(١) نزلت الخ : أى أنهم إذا كانوا فى بلاء كانوا بالأمل فى الله كأنهم كانوا فى رخاء لا يجزعون ولا يهنون ، وإذا كانوا فى رخاء كانوا من خوف الله وحذر النقمة كأنهم فى بلاء لا يبطرون ولا يتجبرون . (٢) أى هم على يقين من الجنة والنار كيقين من رآهما فكأنهم فى نعيم الأولى وعذاب الثانية رجاء وخوفا . (٣) نحافة أجسادهم من الفكر فى صلاح دينهم والقيام بما يجب عليهم له . (٤) يقال : أربحت التجارة إذا أفادت ربحا . (٥) استثار الساكن هيجه ، وقارئ القرآن يستثير به الفكر الماحى للجهل فهو دواؤه . (٦) زفير النار : صوت توقدها وشهيقها الشديد من زفيرها كأنه تردد البكاء أو نهيق الحمار : أى أنهم من كمال يقينهم بالنار يتخيلون صوتها تحت جدران آذانهم فهم من شدة الخوف قد حنوا ظهورهم وسلطوا الانحناء على أوساطهم ،

وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم
وأما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف برى القداح (١) ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ويقول : قد خولطوا (٢). ولقد خالطهم أمر عظيم ، لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون (٣) إذا زُكى (٤) أحدهم خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسى من غيرى ، وربى أعلم بى من نفسى ، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفر لى مالا يعلمون :

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين وحرصا فى علم ، وعلما فى حلم ، وقصدا (٥) فى غنى ، وخشوعا فى عبادة ، وتجملا فى فاقة ، وصبرا فى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا عن طمع (٦) ، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ، ويصبح فرحا : حذرا لما حذر من الغفلة ، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة .

إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره (٧) لم يعطها سؤالها فيما تحب ، قرة عينه

وفكاك الرقاب خلاصها . (١) القداح جمع قدح وهو السهم قبل أن يراش ، وبراه : نحته : أى رقق الخوف أجسامهم كما ترقق السهام بالنحت (٢) خولط فى عقله : أى مازجه خلل فيه ، والأمر العظيم الذى خالط عقولهم هو الخوف الشديد من الله. (٣) مشفقون : خائفون من التقصير فيها (٤) زُكى : مدحه أحد . (٥) قصدا : أى اقتصادا ، والتجمل التظاهر باليسر عند الفاقة (٦) التحرج عن الشىء حرجا أى إثما : أى تباعدا عن طمع . (٧) إن استصعبت : أى إذا لم تطاوعه نفسه فيما يشق عليها من الطاعة عاقبها بعدم إعطائها ما ترغبه من الشهوة .

فيما لا يزول (١) ، وزهادته فيما لا يبقى .

يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل ، تراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، خاشعا قلبه ، قانعة نفسه ، منزورا (٢) أكله ، سهلا أمره ، حريزا (٣) دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، إن كان فى الغافلين كتب فى الذاكرين (٤) وإن كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه (٥) ، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره .

فى الزلازل وقور (٦) ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم (٧) فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينابز بالألقاب (٨) ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق .

إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته ، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذى ينتقم له .

نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة .

---

(١) مالا يزول هو الآخرة ، ومالا يبقى هو الدنيا ، (٢) منزورا : قليلا . (٣) حريزا : حصينا . (٤) أى إن كان بين الساكتين عن ذكر الله فهو ذاكر له بقلبه ، وإن كان بين الذاكرين بلسانهم لم يكن مقتصرا على تحريك اللسان مع غفلة القلب . (٥) الفحش : القبيح من القول . (٦) الزلازل : الشدائد المرعدة والوقور : الذى لا يضطرب (٧) لا يأثم : لا تحمله المحبة على أن يرتكب إثما لإرضاء حبيبه (٨) لا يدعو غيره باللقب الذى يكرهه ويشمئز منه .

قال : فصعق (١) همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين رضى الله عنه : أما والله لقد كنت أخافها عليه ثم قال : أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها ؟ فقال له قائل : فما بالك يا أمير المؤمنين (٢) ؟ فقال : ويحك ! إن لكل أجل وقتا لا يعدوه ، وسببا لا يتجاوزه ، فهلا لا تعد لمثلها ، فإنما نفث الشيطان على لسانك .

أهل الخلق القويم فى رأى بعض المتصوفين

يقول بعض المتصوفة : ليست التقوى فى الابتعاد عن الناس ، واعتزال مخالطتهم واجتناب مشاركتهم فى شئونهم وأحوالهم ، ثم الانصراف بعد ذلك كله إلى عبادة الله تعالى والتوفر على أداء الأعمال الدينية ثم الإسراف فى الأخذ برسومها ومظاهرها ؛ فإن هذا النوع من التقوى ـ على ما فيه من خير قليل ـ لا تتمثل فيه قوة الإرادة ، ولا يبين المدى الصحيح لمقدار التأثر بالوازع الدينى المتغلغل فى أعماق النفس ، ولا يكشف عن حقيقة ثباتها فى رعاية هذا الوازع وتقديرها إياه عن إخلاص وعزم ، وتدين برىء من الشوائب والعلل .

وإنما التقوى الخالصة تكون فى مخالطة الناس ومعاشرتهم والنزول إلى ميادين العمل معهم ، والإقدام على تحمل المسئوليات ، ومواجهة التكاليف والمشقات والتعرض لكل ما من شأنه الإغراء والفتنة والانخداع بمتع الحياة وزخارفها ، ثم السلامة بعد ذلك كله من جميع [illegible] النفس عن الشهوات المؤذية ، والحيلولة بينها وبين ما يقارفه غيرها من النفوس الضالة المفتونة ، وحملها على الطريق السوى فى مجاهدة النزعات ومغالبة الهوى ، ومجانبة الرذائل ، ورياضتها على الاستمساك بالدين للدين ، وتقديس الفضيلة للفضيلة دون

---

(١) صعق : غشى عليه (٢) فما بالك : أى لا تموت مع انطواء سرك على هذه المواعظ البالغة .

أن يكون [illegible] غرض أو شهوة : من وجه أو وجهة ، أو وعد أو وعيد يترقب حسوة دنيا أو نعمى .

فهذه القوى الشخصية التي تعد أساسيا ، والتي تكون في الفاتح [illegible] وتشتمل وسع الذهن ، وقوة الفطنة ، ومضاء العزم ، وشجاعة النفس ، وقوة الإرادة ، وشدة الشكيمة .

[illegible] هؤلاء الصفوة في تكييف حالات القوى وفي [illegible] حاجة - قد يكون أحد الأمور شبيها بهذا الضرب الأخير منا الخلق الكامل ؛ [illegible] التي يأخذ به ، ويرده إليه ، ويدنو منه [illegible] نفسه ، [illegible] من موجبات القيم والأخلاق ، والتي [illegible] من خلق الفرص والتقلبات لإحكام روابط الصلة ؛ وتعميم أوامر [illegible] في أطواره العادية الثلاثة ؛ لأن هذا النوع من الخلق [illegible] ما أشرنا إليه من القوى الناشئة من الفطرة ، وتنامي الوعي في [illegible] والنزوات ، [illegible] النفس [illegible] والتجارب ، والتي لا [illegible] إلى [illegible] من كمال النفس ، وسلامة الاستعداد ؛ وهو نوع [illegible] كثيرا ، [illegible] إلى أصل من الأصول الثابتة التي تقيمها الفطرة ، وتعين عليها التربية ، وهو فوق هذا أو ذاك تمرن التجارب الكثيرة [illegible] ، والثبات من دوام المراس وطول [illegible] الآلية [illegible] النية ، [illegible] من قبل [illegible] الاكتمال ، وهذا النوع من الخلق لا يصلح في [illegible] الكثيرة [illegible] في التجارب والاختبار أن يكون [illegible] في [illegible] .

[illegible] الخلق الكامل [illegible] التي إذا زالت [illegible] [illegible] ، [illegible] في السر والعلن ، [illegible] البعد

فى الغيب والحضور ، ولزم الحال التى كانت بينكما زمان السلم والرخاء ، لا : بل هو الذى كلما زادتك الأيام عنتا وشدة ازداد هو إخلاصا لك ومودة ، ... فلا يحابى أحدا بخيانة عهدك ، ولا يجامل إنسانا بالغض من قدرك ، ولا يعين ظالما بالتنكر لك ، وكفران عشرتك ، ولا يلتمس رضاه بإظهار هجرانك ، وإخفاء الصلة بك ، ولا ينشد مسرته فى طريق إقرار ظلمه ، والسكوت على آثامه ، بل يسمو بعلاقته معك إلى مافوق مستوى الروابط العادية المألوفة ، ويضعها فى الذروة من المناعة والصون بحيث لا يتسنى لأحد أن يفكر فى المساس بحرمتها ، أو العبث بقدسيتها .

هذا هو الخلق الكامل ... الذى يسوغ لصاحبه أن يطمع فى احترام الناس له وثقتهم به ، وتعويلهم على نبله ونزاهته فى أوقات المحن والشدائد ، وعند حلول النعم الطارئة التى يكون لها أثر كبير فى تحويل نفسيات أهل الملق والنفاق ؛ وتشجيعهم على الاستهانة بكل مايوجه إليهم من دعوة إلى تقدير معانى الكرامة والحق ، والانسانية والفضيلة .

وإذا كان بين الناس من تأبى عليهم طباعهم عبور هذا الطريق المستقيم ، وتريدهم أطماعهم الزائلة على أن يكونوا دائما منغمسين فى حمأة الرذائل الخلقية الشنيعة فإن أقل مايوجبه علينا الوفاء للأخلاق الفضيلة هو أن يبيح لنا هؤلاء أن نعرف عنهم هذا النقص ، ونسجل عليهم هذا العيب ؛ ونسير فى معاملتهم على مقتضاه ، وأن يعذرونا إذا نحن أخذناهم بالقسوة على مايكسبون والتجهم لما يقترفون ، وإذا نحن لم نقم وزنا لكل مايصنعونه من أساليب الختل والرياء ونالهم مناماهم أهل له من احتقار وازدراء ، فقديما قالوا : من لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ، ويصلح العفو من الكريم بقدر إفساده من اللئيم .

الإعلان العالمى لحقوق الانسان (★)

فى العاشر من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨ أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمى لحقوق الانسان وأذاعته ، وبعد هذا الحدث التاريخى دعت الجمعية العامة الدول الأعضاء إلى ترويج نص الإعلان ، وإلى العمل على نشره وتوزيعه وقراءته ومناقشته ، وخصوصاً فى المدارس والمعاهد التعليمية بدون أى تمييز بشأن الوضع السياسى للدول أو الأقاليم .

● الديباجة :

لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة فى جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم .

ولما كان تناسى حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنسانى ، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة .

ولما كان من الضرورى أن يتولى القانون حماية حقوق الإنسان ، لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم .

ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت فى الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية ، وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقى الاجتماعى قدماً وأن ترفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .

ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها .

ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد .

(★) الشيخ محمد الغزالى ، فى كتابه «حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة» - دار الدعوة ، ط ١ ص ٢٣١ .

فإن الجمعية العامة تنادى بهذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان :

على أنه المستوى المشترك الذى ينبغى أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة فى المجتمع ، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم ، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ إجراءات مطردة قومية وعالمية ، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الأعضاء ذاتها ، وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها .

مادة ١ : يولد جميع الناس أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلاً وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء .

مادة ٢ : لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان ، دون أى تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر . أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر ، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء .

وفضلاً عما تقدم فلن يكون هناك أى تمييز أساسه الوضع السياسى أو القانونى أو الدولى للبلد أو البقعة التى ينتمى إليها الفرد سواء أكان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلاً ، أو تحت الوصاية ، أو غير متمتع بالحكم الذاتى ، أو كانت سيادته خاضعة لأى قيد من القيود .

مادة ٣ : لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه .

مادة ٤ : لا يجوز استرقاق أو استعباد أى شخص ، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما .

مادة ٥ : لا يعرض أى انسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة .

مادة ٦ : لكل انسان أينما وجد الحق فى أن يعترف بشخصيته القانونية .

مادة ٧: كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق فى التمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة ، كما أن لهم جميعاً الحق فى حماية متساوية ضد أى تمييز يخل

بهذا الإعلان وضد أى تحريض على تمييز كهذا .

مادة ٨ : لكل شخص الحق فى أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لانصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التى يمنحها اياه القانون .

مادة ٩ : لا يجوز القبض على أى انسان أو حجزه أو نفيه تعسفياً .

مادة ١٠ : لكل إنسان الحق ، على قدم المساواة التامة مع الآخرين ، فى أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً للفصل فى حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه .

مادة ١١ :

(١) كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت ادانته قانونا بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه .

(٢) لا يدان أى شخص من جراء أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرماً وفقاً للقانون الوطنى أو الدولى وقت الارتكاب ، كذلك لا يوقع عليه عقوبة أشد من تلك التى كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة .

مادة ١٢ : لا يعرض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته ، ولكل شخص الحق فى حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات .

مادة ١٣ :

(١) لكل فرد حرية التنقل واختيار محل اقامته داخل حدود كل دولة .

(٢) يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما فى ذلك بلده كما يحق له العودة إليه .

مادة ١٤ :

(١) لكل فرد الحق فى أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد .

(٢) لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة فى جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها .

مادة ١٥:

(١) لكل فرد حق التمتع بجنسية ما .

(٢) لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفاً ، أو إنكار حقه في تغييرها .

مادة ١٦:

(١) للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون قيد بسبب الجنس أو الدين ، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله .

(٢) لا يبرم عقد الزواج إلا برضا الطرفين الراغبين في الزواج رضاً كاملاً لا إكراه فيه .

(٣) الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة .

مادة ١٧:

(١) لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره .

(٢) لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً .

مادة ١٨: لكل شخص الحق في حرية التفكير ، والضمير ، والدين ، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته ، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ، ومراعاتها ، سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة .

مادة ١٩: لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير ، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل ، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية .

مادة ٢٠:

(١) لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية .

(٢) لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما .

مادة ٢١:

(١) لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده إما مباشرة

واما بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حرا .

(٢) لكل شخص نفس الحق الذى لغيره فى تقلد الوظائف العامة فى البلاد .

(٣) إن إرادة الشعب هى مصدر سلطة الحكومة . ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تجرى على أساس الاقتراع السرى وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أى إجراء مماثل يضمن حرية التصويت .

مادة ٢٢ : لكل شخص بصفته عضواً فى المجتمع الحق فى الضمانة الاجتماعية وفى أن تحقق بوساطة المجهود القومى والتعاون الدولى ، وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها : الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والتربوية التى لا غنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته .

مادة ٢٣:

(١) لكل شخص الحق فى العمل ، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية كما أن له حق الحماية من البطالة .

(٢) لكل فرد دون أى تمييز الحق فى أجر متساو للعمل .

(٣) لكل فرد يقوم بعمل الحق فى أجر عادل مرض يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه ، عند اللزوم وسائل أخرى للحماية الاجتماعية .

(٤) لكل شخص الحق فى أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته .

مادة ٢٤: لكل شخص الحق فى الراحة ، وفى أوقات الفراغ ، ولا سيما فى تحديد معقول لساعات العمل وفى عطلات دورية بأجر .

مادة ٢٥:

(١) لكل شخص الحق فى مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته ، ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة ، وله الحق فى تأمين معيشته فى حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته .

(٢) للأمومة والطفولة الحق فى مساعدة ورعاية خاصتين ، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعى أم بطريقة

مادة ٢٦:

(١) لكل شخص الحق فى التعلم ، ويجب أن يكون التعليم فى مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان ، وأن يكون التعليم الأولى إلزامياً ، وينبغى أن يعمم التعليم الفنى والمهنى ، وأن ييسر القبول للتعليم العالى على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة .

(٢) يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملاً ، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية ، وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية ، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام .

(٣) للآباء الحق الأول فى اختيار نوع تربية أولادهم .

مادة ٢٧:

(١) لكل فرد الحق فى أن يشترك اشتراكاً حراً فى حياة المجتمع الثقافى وفى الإستمتاع بالفنون ، والمساهمة فى التقدم العلمى والاستفادة من نتائجه .

(٢) لكل فرد الحق فى حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمى أو الأدبى أو الفنى .

مادة ٢٨: لكل فرد الحق فى التمتع بنظام اجتماعى دولى تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الإعلان تحققاً تاماً .

مادة ٢٩:

(١) على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذى يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نمواً حراً كاملاً .

(٢) يخضع الفرد فى ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التى يقررها القانون فقط ، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها ، ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة ، والأخلاق فى مجتمع ديمقراطى .

(٣) لا يصح بأى حال من الأحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها .

مادة ٣٠: ليس فى هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أى حق فى القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه .

***

البيان العالمي عن حقوق الانسان في الإسلام

● تقـديم :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، وبعد :

فهذه هي الوثيقة الإسلامية الثانية ، يعلنها المجلس الإسلامي الدولي للعالم .. متضمنة حقوق الإنسان في الإسلام .

ومن قبل أصدر المجلس الوثيقة الأولى « البيان الاسلامي العالمي »(*) . عن النظام الإسلامي متضمنة الأطر العامة لهذا النظام .

وإنه لمن دواعي التفاؤل أن يسر الله صدور الوثيقتين في مستهل القرن الخامس عشر الهجري ومع تصاعد الحركة الإسلامية ، التي تؤذن بصحوة الأمة ، والتقاء شعوبها على كلمة جامعة .. دعوة صادقة للعودة إلى منهاج الله تعالى ، وسعياً حثيثاً لإعادة صياغة المجتمع الإسلامي على أصول هذا المنهاج .

إن حقوق الإنسان في الإسلام ليست منحة من ملك أو حاكم ، أو قراراً صادراً عن سلطة محلية أو منظمة دولية ، وانما هي حقوق ملزمة بحكم مصدرها الإلهي ، لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل ، ولا يسمح بالاعتداء عليها ، ولا يجوز التنازل عنها .

ووثيقة حقوق الإنسان في الإسلام — التي نعلنها اليوم — ثمرة طيبة لجهد مخلص أمين ، توافر له ، وتعاون عليه نخبة صالحة ، من كبار مفكري العالم الإسلامي ، وقادة الحركات الإسلامية فيه ، وقد ارتفعوا بها فوق الواقع الراهن ، بما يلابسه من اعتبارات الزمان والمكان والأشخاص الخاصة ببيئة أو شعب ، فجاءت بحمد الله وتوفيق منه معبرة عن تمثل صحيح وشامل لحقوق الانسان ،

(*) المؤتمر الإسلامي العالمي : لندن — أبريل سنة ١٩٨٠ — وقد ألحقنا نص الوثيقة الأولى بكتابنا « الإسلام والطاقات المعطلة » الطبعة الرابعة ، ١٩٨٣ .

مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ،

إن المجلس الإسلامى الدولى ــ وهو يعلن للعالم كله هذه الوثيقة ــ ليأمل أن تكون زاداً للمسلم المعاصر ، فى جهاده اليومى ، وأن تكون دعوة خير لقادة المسلمين وحكامهم : أن يتواصوا بالحق فيما بينهم وبين أنفسهم ، وفيما بينهم وبين غيرهم تواصياً ينتهى بهم إلى مراجعة جادة لمناهج حياتهم ، وطرائق حكمهم ، وعلاقاتهم بشعوبهم وأمتهم ، وإلى احترام « حقوق الإنسان » التى شرعها الإسلام ، الذى لا يقبل من مسلم أن يتجاهله ، أو يخرج عليه .

كما يأمل المجلس : أن تلقى هذه الوثيقة ما هى جديرة به من عناية المنظمات المحلية والدولية ، التى تعنى بحقوق الإنسان ، وأن تضمها إلى ما لديها من وثائق ، تتصل بهذه الحقوق ، وتدعو إلى إقرارها فى حياة الإنسان حقيقة واقعة .

والله تعالى أسأل : أن يجزى خيراً كل من شارك فى إعداد هذه الوثيقة ، وأن يفتح لها القلوب ، والضمائر ، والعقول ، بما يحقق ما نرجوه من التجديد الحق لحياة المسلمين .

باريس ٢١ من ذى القعدة ١٤٠١ هـ

١٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٨١ م

***

مدخل

شرع الإسلام — منذ أربعة عشر قرناً — « حقوق الإنسان » فى شمول وعمق، وأحاطها بضمانات كافية لحمايتها، وصاغ مجتمعه على أصول ومبادىء، تمكن لهذه الحقوق وتدعمها.

والإسلام هو ختام رسالات السماء، التى أوحى بها رب العالمين إلى رسله — عليهم السلام — ليبلغوها للناس، هداية وتوجيهاً، إلى ما يكفل لهم حياة طيبة كريمة، يسودها الحق والخير والعدل، والسلام.

ومن هنا كان لزاماً على المسلمين أن يبلغوا للناس جميعاً دعوة الإسلام، امتثالاً لأمر ربهم **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾**[1]، ووفاء بحق الإنسانية عليهم، وإسهاماً مخلصاً فى استنقاذ العالم مما تردى فيه من أخطاء، وتخليص الشعوب مما تئن تحته من صنوف المعاناة.

ونحن معشر المسلمين — على اختلاف شعوبنا وأقطارنا — انطلاقاً من : عبوديتنا لله الواحد القهار...

ومن : إيماننا بأنه ولى الأمر كله فى الدنيا والآخرة، وأن مردنا جميعاً إليه، وأنه وحده الذى يملك هداية الإنسان إلى ما فيه خيره، وصلاحه، بعد أن استخلفه فى الأرض، وسخر له كل ما فى الكون..

ومن : تصديقنا بوحدة الدين الحق، الذى جاءت به رسل ربنا، ووضع كل منهم لبنة فى صرحه حتى أكمله الله تعالى برسالة محمد ﷺ فكان كما قال ﷺ : « وأنا اللبنة — الأخيرة — وأنا خاتم النبيين.. »[2].

ومن تسليمنا بعجز العقل البشرى عن وضع المنهاج الأقوم للحياة، مستقلاً عن هداية الله ووحيه...

---

(١) آل عمران : ١٠٤.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

ومن : رؤيتنا الصحيحة — فى ضوء كتابنا المجيد — لوضع الإنسان فى الكون ، وللغاية من إيجاده ، وللحكمة من خلقه ...

ومن : معرفتنا بما أضفاه عليه خالقه ، من كرامة وتفضيل على كثير من خلقه ...

ومن : استبصارنا بما أحاطه به ربه — جل وعلا — من نعم ، لا تعد ولا تحصى ...

ومن : تمثلنا الحق لمفهوم الأمة ، التى تجسد وحدة المسلمين ، على اختلاف أقطارهم وشعوبهم .

ومن : إدراكنا العميق ، لما يعانيه عالم اليوم من أوضاع فاسدة ، ونظم آثمة ...

ومن : رغبتنا الصادقة ، فى الوفاء بمسئوليتنا تجاه المجتمع الإنسانى ، كأعضاء فيه ...

ومن : حرصنا على أداء أمانة البلاغ ، التى وضعها الإسلام فى أعناقنا ... سعياً من أجل إقامة حياة أفضل ...

تقوم على الفضيلة ، وتتطهر من الرذيلة ...

يحل فيها التعاون بدل التناكر ، والإخاء مكان العداوة ...

يسودها التعاون والسلام ، بدلاً من الصراع والحروب ...

حياة يتنفس فيها الإنسان معانى :

الحرية ، والمساواة ، والإخاء ، والعزة والكرامة ...

بدل أن يختنق تحت ضغوط :

العبودية ، والتفرقة العنصرية ، والطبقية ، والقهر والهوان ...

وبهذا يتهيأ لأداء رسالته الحقيقية فى الوجود :

عبادة الخالقه تعالى .

وعمارة شاملة للكون .

تتيح له أن يستمتع بنعم خالقه ، وأن يكون باراً بالإنسانية التى تمثل — بالنسبة له — أسرة أكبر ، يشده إليها إحساس عميق بوحدة الأصل الإنسانى ، التى تنشئ رحماً موصولة بين جميع بنى آدم .

انطلاقاً من هذا كله :

نعلن نحن معشر المسلمين ، حملة لواء الدعوة إلى الله – في مستهل القرن الخامس عشر الهجري – هذا البيان باسم الإسلام ، عن حقوق الإنسان ، مستمدة من القرآن الكريم و « السنة النبوية » المطهرة .

وهي – بهذا الوضع – حقوق أبدية ، لا تقبل حذفاً ، ولا تعديلاً ... ولا نسخاً ولا تعطيلاً ...

إنها حقوق شرعها الخالق – سبحانه – فليس من حق بشر – كائناً من كان – أن يعطلها ، أو يعتدي عليها ، ولا تسقط حصانتها الذاتية ، لا بإرادة الفرد تنازلاً عنها ، ولا بإرادة المجتمع ممثلاً فيما يقيمه من مؤسسات أياً كانت طبيعتها ، وكيفما كانت السلطات التي تخولها .

إن إقرار هذه الحقوق هو المدخل الصحيح لإقامة مجتمع إسلامي حقيقي ...

١ – مجتمع : الناس جميعاً فيه سواء ، لا امتياز ولا تمييز بين فرد وفرد على أساس من أصل ، أو عنصر ، أو جنس ، أو لون ، أو لغة ، أو دين .

٢ – مجتمع : المساواة فيه أساس التمتع بالحقوق ، والتكليف بالواجبات ... مساواة تنبع من وحدة الأصل الإنساني المشترك :
﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾(٣) ومما أسبغه الخالق – جل جلاله – على الإنسان من تكريم ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾(٤) .

٣ – مجتمع : حرية الإنسان فيه مرادفة لمعنى حياته سواء ، يولد بها ، ويحقق ذاته في ظلها ، آمناً من الكبت ، والقهر ، والإذلال ، والاستعباد .

٤ – مجتمع : يرى في الأسرة نواة المجتمع ، ويحوطها بحمايته وتكريمه ، ويهيئ لها كل أسباب الاستقرار والتقدم .

---

(٣) الحجرات : ١٣ .
(٤) الإسراء : ٧٠ .

٥ – مجتمع : يتساوى فيه الحاكم والرعية ، أمام شريعة من وضع الخالق – سبحانه – دون امتياز أو تمييز .

٦ – مجتمع : السلطة فيه أمانة ، توضع في عنق الحاكم ، ليحقق ما رسمته الشريعة من غايات ، وبالمنهج الذي وضعته لتحقيق هذه الغايات .

٧ – مجتمع : يؤمن كل فرد فيه أن الله – وحده – هو مالك الكون كله .. وأن كل ما فيه مسخر لخلق الله جميعاً ، عطاء من فضله ، دون استحقاق سابق لأحد ، ومن حق كل إنسان أن ينال نصيباً عادلاً من هذا العطاء الإلهي : ﴿ وسخر لكم ما في الأرض جميعاً منه ﴾[٥] .

٨ – مجتمع : تقرر فيه السياسات التي تنظم شئون الأمة ، وتمارس السلطات التي تطبقها وتنفذها « بالشورى » ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[٦] .

٩ – مجتمع : تتوافر فيه الفرص المتكافئة ، ليتحمل كل فرد فيه من المسئوليات بحسب قدرته وكفاءته ، وتتم محاسبته عليها دنيوياً أمام أمته ، وأخروياً أمام خالقه « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[٧] .

١٠ – مجتمع : يقف فيه الحاكم والمحكوم على قدم المساواة أمام القضاء ، حتى في اجراءات التقاضي .

١١ – مجتمع : كل فرد فيه هو ضمير مجتمعه ، ومن حقه أن يقيم الدعوى – حسبة – ضد أي إنسان يرتكب جريمة في حق المجتمع ، وله أن يطلب المساندة من غيره ... وعلى الآخرين أن ينصروه ولا يخذلوه في قضيته العادلة .

١٢ – مجتمع : يرفض كل ألوان الطغيان ، ويضمن لكل فرد فيه : الأمن ، والحرية ، والكرامة ، والعدالة ، بالتزام ما قررته شريعة الله للإنسان من حقوق ، والعمل على تطبيقها ، والسهر على حراستها ... تلك الحقوق التي يعلنها للعالم : « هذا البيان »

---

(٥) الجاثية : ١٣ .
(٦) الشورى : ٣٨ .
(٧) . رواه الخمسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الإنسان في الإسلام

١ - حق الحياة :

(أ) حياة الإنسان مقدسة ... لا يجوز لأحد أن يعتدى عليها :
﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾(٩) .

ولا تسلب هذه القدسية إلا بسلطان الشريعة وبالاجراءات التى تقرها .

(ب) كيان الإنسان المادى والمعنوى حمى ، تحميه الشريعة فى حياته ، وبعد مماته ، ومن حقه الترفق والتكريم ، فى التعامل مع جثمانه : « إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه »(١٠) ، ويجب ستر سوآته وعيوبه الشخصية : « لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا »(١١) .

٢ - حق الحرية :

(أ) حرية الإنسان مقدسة — كحياته سواء — وهى الصفة الطبيعية الأولى التى بها يولد الإنسان : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة »(١٢) . وهى مستصحبة ومستمرة ، ليس لأحد أن يعتدى عليها : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »(١٣) . ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية حرية

---

(٨) اكتفينا باستخدام لفظ « حقوق » ولم نستخدم معه لفظ « واجبات » .. لأن كل ماهو « حق » لفرد هو « واجب » على آخر (حق الرعية = واجب على الراعى ، حق الوالد = واجب على الولد ، حق الزوجة = واجب على الزوج ؛ وبالعكس حق الراعى = واجب على الرعية ، الخ .) ، وما دامت حقوق الإنسان فى الإسلام شاملة جميع الأفراد ، على اختلاف مواقعهم وعلاقاتهم ، فقد أصبح ما هو « الحق » من وجه .. هو « الواجب » من وجه آخر !

(٩) المائدة : ٣٢ .

(١٠) رواه مسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .

(١١) رواه البخارى .

(١٢) رواه الشيخان .

(١٣) من كلمة لعمر رضى الله عنه .

الأفراد ، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة ، وبالإجراءات التي تقرها .

(ب) لا يجوز لشعب أن يعتدي على حرية شعب آخر ، وللشعب المعتدى عليه أن يرد العدوان ، ويسترد حريته بكل السبل الممكنة :

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[14] . وعلى المجتمع الدولي مساندة كل شعب يجاهد من أجل حريته ، ويتحمل المسلمون في هذا واجباً لا ترخص فيه : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾[15] .

٣ - حق المساواة :

(أ) الناس جميعاً سواسية أمام الشريعة : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى »[16] . ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[17] ، ولا في حمايتها إياهم : « ألا إن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق له ، وأقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق منه »[18] .

(ب) الناس كلهم في القيمة الإنسانية سواء : « كلكم لآدم وآدم من تراب »[19] . وإنما يتفاضلون بحسب عملهم : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[20] . ولا يجوز تعريض شخص لخطر أو ضرر بأكثر مما يتعرض له

---

(١٤) الشورى : ٤١ .
(١٥) الحج : ٤١ .
(١٦) من خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم .
(١٧) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي .
(١٨) من خطبة أبي بكر رضي الله عنه عقب توليه خليفة على المسلمين .
(١٩) من خطبة حجة الوداع . (٢٠) الأحقاف : ١٩ .

غيره : « المسلمون تتكافأ دماؤهم »[٢١] . وكل فكر وكل تشريع ، وكل وضع يسوغ التفرقة بين الأفراد على أساس الجنس ، أو العرق ، أو اللون ، أو اللغة ، أو الدين ، هو مصادرة مباشرة لهذا المبدأ الإسلامي العام .

(ج) لكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل مكافئة لفرصة غيره : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[٢٢] . ولا يجوز التفرقة بين الأفراد كماً وكيفاً : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[٢٣] .

٤ – حق العدالة :

(أ) من حق كل فرد أن يتحاكم إلى الشريعة ، وأن يحاكم إليها دون سواها : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾[٢٤] .

﴿ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾[٢٥] .

(ب) من حق الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾[٢٦] . ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك : « لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً : إن كان ظالماً فلينهه وإن كان مظلوماً فلينصره »[٢٧] .

ومن حق الفرد أن يلجأ إلى سلطة شرعية تحميه وتنصفه ، وتدفع عنه ما لحقه من ضرر أو ظلم ، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه السلطة ، ويوفر لها الضمانات الكفيلة بحيدتها واستقلالها : « إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ، ويحتمى به »[٢٨] .

---

(٢١) رواه أحمد .
(٢٢) الملك : ١٥ .
(٢٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٢٤) النساء : ٥٩ .
(٢٥) المائدة : ٤٩ .
(٢٦) النساء : ١٤٨ .
(٢٧) رواه الشيخان والترمذي .
(٢٨) رواه الشيخان .

(ج) من حق الفرد — ومن واجبه — أن يدافع عن حق أى فرد آخر ، وعن حق الجماعة « حسبة » : « ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسئلها »[٢٩] — يتطوع بها حسبة دون طلب من أحد — .

(د) لا تجوز مصادرة حق الفرد فى الدفاع عن نفسه تحت أى مسوغ : « إن لصاحب الحق مقالاً »[٣٠] . « إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر ، كما سمعت من الأول ، فأنه أحرى أن يتبين لك القضاء »[٣١] .

(هـ) ليس لأحد أن يلزم مسلماً بأن يطيع أمراً يخالف الشريعة ، وعلى الفرد المسلم أن يقول « لا » فى وجه من يأمره بمعصية ، أياً كان الآمر : « إذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٣٢] . ومن حقه على الجماعة أن تحمى رفضه تضامناً مع الحق : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »[٣٣] .

٥ – حق الفرد فى محاكمة عادلة :

(أ) البراءة هى الأصل : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين »[٣٤] . وهو مستصحب ومستمر حتى مع إتهام الشخص ما لم تثبت إدانته أمام محكمة عادلة إدانة نهائية .

(ب) لا تجريم إلا بنص شرعى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٣٥] . ولا يعذر مسلم بالجهل بما هو معلوم من الدين بالضرورة ، ولكن ينظر إلى جهله — متى ثبت — على أنه شبهة تدرأ بها الحدود فحسب : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾[٣٦] .

---

(٢٩) رواه مسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .
(٣٠) رواه الخمسة .
(٣١) رواه أبو داوود والترمذى بسند حسن .
(٣٢) رواه الخمسة .
(٣٣) رواه البخارى .
(٣٤) رواه الشيخان .
(٣٥) الإسراء : ١٥
(٣٦) الأحزاب : ٥ .

(ج) لا يحكم بتجريم شخص ، ولا يعاقب على جرم إلا بعد ثبوت إرتكابه له بأدلة لا تقبل المراجعة ، أمام محكمة ذات طبيعة قضائية كاملة : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾(٣٧) . ﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾(٣٨) .

(د) لايجوز — بحال — تجاوز العقوبة ، التى قدرتها الشريعة للجريمة : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾(٣٩) . ومن مبادىء الشريعة مراعاة الظروف والملابسات ، التى ارتكبت فيها الجريمة درءاً للحدود : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فان كان له مخرج فخلوا سبيله »(٤٠) .

(هـ) لا يؤخذ إنسان بجريرة غيره : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾(٤١) . وكل إنسان مستقل بمسئوليته عن أفعاله : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾(٤٢) . ولا يجوز بحال — أن تمتد المساءلة الى ذويه من أهل وأقارب ، أو أتباع وأصدقاء : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمون ﴾(٤٣) .

٦ – حق الحماية من تعسف السلطة :

لكل فرد الحق فى حمايته من تعسف السلطات معه ، ولا يجوز مطالبته بتقديم تفسير لعمل من أعماله أو وضع من أوضاعه ، ولا توجيه اتهام له إلا بناء على قرائن قوية ، تدل على تورطه فيما يوجه إليه : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾(٤٤) .

٧ – حق الحماية من التعذيب :

(أ) لا يجوز تعذيب المجرم فضلاً عن المتهم : « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا »(٤٥) . كما لا يجوز حمل الشخص على الإعتراف بجريمة لم

---

(٣٧) الحجرات : ٦ .
(٣٨) النجم : ٢٨ .
(٣٩) البقرة : ٢٢٩ .
(٤٠) رواه البيهقى والحاكم بسند صحيح .
(٤١) الإسراء : ١٥ .
(٤٢) الطور : ٢١ .
(٤٣) يوسف : ٧٩ .
(٤٤) الأحزاب : ٥٨ .
(٤٥) رواه الخمسة .

مرتكبها ، وكل ما ينتزع بوسائل الإكراه باطل : « ان الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[٤٦] .

(ب) مهما كانت جريمة الفرد ، وكيفما كانت عقوبتها المقدرة شرعاً ، فإن إنسانيته ، وكرامته الآدمية تظل مصونة .

٨ – حق الفرد فى حماية عرضه وسمعته :

عرض الفرد ، وسمعته حرمة لا يجوز انتهاكها : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا »[٤٧] . ويحرم تتبع عوراته ، ومحاولة النيل من شخصيته ، وكيانه الأدبى : ﴿ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾[٤٨] ، ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾[٤٩] .

٩ – حق اللجوء :

(أ) من حق كل مسلم مضطهد أو مظلوم أن يلجأ إلى حيث يأمن ، فى نطاق دار الإسلام . وهو حق يكفله الإسلام لكل مضطهد ، أيا كانت جنسيته ، أو عقيدته ، أو لونه ، ويحمل المسلمين واجب توفير الأمن له متى لجأ إليهم : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾[٥٠] .

(ب) بيت الله الحرام ـــ بمكة المشرفة ـــ هو مثابة وأمن للناس جميعاً لا يصد عنه مسلم : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾[٥١] ، ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾[٥٢] ، ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾[٥٣] .

---

(٤٦) رواه ابن ماجه بسند صحيح .
(٤٧) من خطبة حجة الوداع .
(٤٨) الحجرات : ١٢ .
(٤٩) الحجرات : ١١ .
(٥٠) التوبة : ٦
(٥١) آل عمران : ٩٧ .
(٥٢) البقرة : ١٢٥ .
(٥٣) الحج : ٢٥ .

١٠ – حقوق الأقليات :

(أ) « الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني العام : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾[٥٤] .

(ب) الأوضاع المدنية ، والأحوال الشخصية للأقليات تحكمها شريعة الإسلام إن هم تحاكموا إلينا : ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾[٥٥] . فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي — عندهم — لأصل إلهي : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك ﴾[٥٦] . ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾[٥٧] .

١١ – حق المشاركة في الحياة العامة :

(أ) من حق كل فرد في الأمة أن يعلم بما يجري في حياتها ، من شئون تتصل بالمصلحة العامة للجماعة ، وعليه أن يسهم فيها بقدر ما تتيح له قدراته ومواهبه ، إعمالاً لمبدأ الشورى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[٥٨] . وكل فرد في الأمة أهل لتولي المناصب ، والوظائف العامة ، متى توافرت فيه شرائطها الشرعية ، ولا تسقط هذه الأهلية ، أو تنقص تحت أي اعتبار عنصري أو طبقي : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم »[٥٩] .

(ب) الشورى أساس العلاقة بين الحاكم والأمة ، ومن حق الأمة أن تختار حكامها ، بإرادتها الحرة ، تطبيقاً لهذا المبدأ ، ولها الحق في محاسبتهم وفي عزلهم إذا حادوا عن الشريعة : « إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على

---

(٥٤) البقرة : ٢٥٦ .
(٥٥) المائدة : ٤٢ .
(٥٦) المائدة : ٤٣ .
(٥٧) المائدة : ٤٧ .
(٥٨) الشورى : ٣٨ .
(٥٩) رواه أحمد .

حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم »[٦٠] .

١٢ – حق حرية التفكير والاعتقاد والتعبير :

(أ) لكل شخص أن يفكر ، ويعبر عن فكره ومعتقده ، دون تدخل أو مصادرة من أحد ما دام يلتزم الحدود العامة التي أقرتها الشريعة ، ولا يجوز إذاعة الباطل ، ولا نشر ما فيه ترويج للفاحشة أو تخذيل للأمة :

﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً . ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾[٦١] .

(ب) التفكير الحر – بحثاً عن الحق – ليس مجرد حق فحسب ، بل هو واجب كذلك : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ﴾[٦٢] .

(ج) من حق كل فرد ومن واجبه : أن يعلن رفضه للظلم ، وإنكاره له ، وأن يقاومه ، دون تهيب من مواجهة سلطة متعسفة ، أو حاكم جائر ، أو نظام طاغ .. وهذا أفضل أنواع الجهاد : « سئل رسول الله ﷺ : أي الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق عند سلطان جائر »[٦٣] .

(د) لا حظر على نشر المعلومات والحقائق الصحيحة ، إلا ما يكون في نشره خطر على أمن المجتمع والدولة : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[٦٤] .

---

(٦٠) من خطبة أبي بكر رضي الله عنه عقب توليه الخلافة .
(٦١) الأحزاب : ٦٠ ، ٦١ .
(٦٢) سبأ : ٤٦ .
(٦٣) رواه الترمذي والنسائي بسند حسن .
(٦٤) النساء : ٨٣ .

(هـ) احترام مشاعر المخالفين في الدين من خلق المسلم ، فلا يجوز لأحد أن يسخر من معتقدات غيره ، ولا أن يستعدى المجتمع عليه :

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم ﴾[٦٥] .

١٣ – حق الحرية الدينية :

لكل شخص : حرية الاعتقاد ، وحرية العبادة وفقاً لمعتقده : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾[٦٦] .

١٤ – حق الدعوة والبلاغ :

(أ) لكل فرد الحق أن يشارك — منفرداً ومع غيره — في حياة الجماعة : دينياً ، واجتماعياً ، وثقافياً ، وسياسياً ، الخ ، وأن ينشىء من المؤسسات ، ويصطنع من الوسائل ما هو ضرورى لممارسة هذا الحق : ﴿ قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾[٦٧] .

(ب) من حق كل فرد ومن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن يطالب المجتمع بإقامة المؤسسات التى تهىء للأفراد الوفاء بهذه المسئولية ، تعاوناً على البر والتقوى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٦٨] ، ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[٦٩] ، « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب »[٧٠] .

---

(٦٥) الأنعام : ١٠٨ .
(٦٦) الكافرون : ٦ .
(٦٧) يوسف : ١٠٨ .
(٦٨) آل عمران : ١٠٤ .
(٦٩) المائدة : ٢ .
(٧٠) رواه أصحاب السنن بسند صحيح .

١٥ – الحقوق الاقتصادية :

(أ) الطبيعة — بثرواتها جميعاً — ملك لله تعالى ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾(٧١). وهي عطاء منه للبشر، منحهم حق الانتفاع بها: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾(٧٢). وحرم عليهم إفسادها وتدميرها: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾(٧٣). ولا يجوز لأحد أن يحرم آخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾(٧٤).

(ب) لكل إنسان أن يعمل وينتج، تحصيلاً للرزق من وجوهه المشروعة: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾(٧٥)، ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾(٧٦).

(ج) الملكية الخاصة مشروعة — على انفراد ومشاركة — ولكل إنسان أن يقتني ما اكتسبه بجهده وعمله: ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾(٧٧). والملكية العامة مشروعة، وتوظف لمصلحة الأمة بأسرها: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾(٧٨).

(د) لفقراء الأمة حق مقرر في مال الأغنياء، نظمته الزكاة: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم﴾(٧٩). وهو حق لا يجوز تعطيله، ولا منعه، ولا الترخص فيه، من قبل الحاكم، ولو أدى به الموقف إلى قتال مانعي الزكاة: «والله لو منعوني عقالاً، كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»(٨٠).

---

(٧١) المائدة : ١٢٠ .
(٧٢) الجاثية : ١٣ .
(٧٣) الشعراء : ١٨٣ .
(٧٤) الإسراء : ٢٠ .
(٧٥) هود : ٦ .
(٧٦) الملك : ١٥ .
(٧٧) النجم : ٤٨ .
(٧٨) الحشر : ٧ .
(٧٩) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .
(٨٠) من كلام أبي بكر رضي الله عنه في مشاورته للصحابة في أمر مانعي الزكاة .

(هـ) توظيف مصادر الثروة ، ووسائل الإنتاج لمصلحة الأمة واجب ، فلا يجوز إهمالها ولا تعطيلها : « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بالنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة »[٨١] .

كذلك لا يجوز إستثمارها فيما حرمته الشريعة ، ولا فيما يضر بمصلحة الجماعة .

(و) ترشيداً للنشاط الاقتصادى ، وضماناً لسلامته ، حرم الإسلام :

١ – الغش بكل صوره : « ليس منا من غش »[٨٢] .

٢ – الغرر والجهالة ، وكل ما يفضى إلى منازعات ، لا يمكن اخضاعها لمعايير موضوعية : « نهى النبى ﷺ عن بيع الحصاة ، وعن بيع الغرر »[٨٣] ، « نهى النبى ﷺ عن بيع العنب حتى يسود وعن بيع الحب حتى يشتد »[٨٤] .

٣ – الاستغلال والتغابن فى عمليات التبادل : ﴿ ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾[٨٥] .

٤ – الاحتكار ، وكل ما يؤدى إلى منافسة غير متكافئة : « لا يحتكر إلا خاطىء »[٨٦] .

٥ – الربا ، وكل كسب طفيلى ، يستغل ضوائق الناس : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾[٨٧] .

٦ – الدعايات الكاذبة والخادعة : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن غشا وكذبا محقت بركة بيعهما »[٨٨] .

(ز) رعاية مصلحة الأمة ، والتزام قيم الإسلام العامة ، هما القيد الوحيد على النشاط الاقتصادى ، فى مجتمع المسلمين .

---

(٨١) رواه الشيخان .
(٨٢) رواه مسلم .
(٨٣) رواه مسلم وأبو داوود والترمذى والنسائى .
(٨٤) رواه الخمسة .
(٨٥) المطففين : ١ – ٣ .
(٨٦) رواه مسلم .
(٨٧) البقرة : ٢٧٥ .
(٨٨) رواه الخمسة .

١٦ – حق حماية الملكية :

لا يجوز انتزاع ملكية ، نشأت عن كسب حلال ، إلا للمصلحة العامة : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾[٨٩] ، ومع تعويض عادل لصاحبها : « من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[٩٠] . وحرمة الملكية العامة أعظم ، وعقوبة الاعتداء عليها أشد ، لأنه عدوان على المجتمع كله ، وخيانة للأمة بأسرها : « من استعملناه منكم على عمل فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة »[٩١] . « قيل يا رسول الله : إن فلاناً قد استشهد ! قال : كلا ! لقد رأيته في النار بعباءة قد غلها . ثم قال : ياعمر : قم فناد : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون – ثلاثاً – »[٩٢] .

١٧ – حق العامل وواجبه :

« العمل » : شعار رفعه الإسلام لمجتمعه : ﴿ وقل اعملوا ﴾[٩٣] . وإذا كان حق العمل : الاتقان : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »[٩٤] فإن حق العامل :

١ – أن يوفى أجره المكافىء لجهده دون حيف عليه أو مماطلة له : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه »[٩٥] .

٢ – أن توفر له حياة كريمة تتناسب مع ما يبذله من جهد وعرق : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[٩٦] .

٣ – أن يمنح ما هو جدير به من تكريم المجتمع كله له ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾[٩٧] ،

---

(٨٩) البقرة : ١٨٨ .
(٩٠) رواه البخاري .
(٩١) رواه مسلم .
(٩٢) رواه مسلم والترمذي .
(٩٣) التوبة : ١٠٥ .
(٩٤) رواه أبو يعلى ، مجمع الزوائد جـ ٤
(٩٥) رواه ابن ماجه بسند جيد .
(٩٦) الأحقاف : ١٩ .
(٩٧) التوبة : ١٠٥ .

« إن الله يحب المؤمن المحترف »(٩٨) .

٤ - أن يجد الحماية ، التى تحول دون غبنه واستغلال ظروفه قال الله تعالى :« ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره »(٩٩) .

١٨ - حق الفرد فى كفايته من مقومات الحياة :

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضروريات الحياة .. من طعام ، وشراب ، وملبس ، ومسكن .. ومما يلزم لصحة بدنه من رعاية . وما يلزم لصحة روحه ، وعقله ، من علم ، ومعرفة ، وثقافة ، فى نطاق ما تسمح به موارد الأمة — ويمتد واجب الأمة فى هذا ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل بتوفيره لنفسه من ذلك ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾(١٠٠) .

١٩ - حق بناء الأسرة :

(أ) الزواج — بإطاره الإسلامى — حق لكل إنسان . وهو الطريق الشرعى لبناء الأسرة وإنجاب الذرية ، وإعفاف النفس ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾(١٠١) .

ولكل من الزوجين قبل الآخر — وعليه له — حقوق وواجبات متكافئة قررتها الشريعة : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ﴾(١٠٢) . وللأب تربية أولاده : بدنياً ، وخلقيا ، ودينيا ، وفقاً لعقيدته وشريعته ، وهو مسئول عن اختياره الوجهة التى يوليهم إياها : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »(١٠٣) .

---

(٩٨) رواه الطبرانى ، مجمع الزوائد جـ ٤ .

(٩٩) رواه البخارى (حديث قدسى) .

(١٠٠) الأحزاب : ٦ .

(١٠١) النساء : ١ .

(١٠٢) البقرة : ٢٢٨ .

(١٠٣) رواه الخمسة .

(ب) لكل من الزوجين — قبل الآخر — حق احترامه ، وتقدير مشاعره ، وظروفه ، في إطار من التواد والتراحم ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾(١٠٤) .

(ج) على الزوج أن ينفق على زوجته وأولاده دون تقتير عليهم : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾(١٠٥) .

(د) لكل طفل على أبويه حق إحسان تربيته ، وتعليمه ، وتأديبه : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾(١٠٦) . ولا يجوز تشغيل الأطفال في سن باكرة ، ولا تحميلهم من الأعمال ما يرهقهم ، أو يعوق نموهم أو يحول بينهم وبين حقهم في اللعب والتعلم .

(هـ) إذا عجز والدا الطفل عن الوفاء بمسئوليتهما نحوه ، انتقلت هذه المسئولية إلى المجتمع ، وتكون نفقات الطفل في بيت مال المسلمين — الخزانة العامة للدولة — : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فمن ترك ديناً أو ضيعة(١٠٧) فعلي ، ومن ترك مالاً فلورثته »(١٠٨) .

(و) لكل فرد في الأسرة أن ينال منها ما هو في حاجة إليه : من كفاية مادية ، ومن رعاية وحنان ، في طفولته ، وشيخوخته ، وعجزه ، وللوالدين على أولادهما حق كفالتهما مادياً ، ورعايتهما بدنياً ، ونفسياً : « أنت ومالك لوالدك »(١٠٩) .

(ز) للأمومة حق في رعاية خاصة من الأسرة : « يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك : قال — السائل — : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال أبوك »(١١٠) .

---

(١٠٤) الروم : ٢١ .
(١٠٥) الطلاق : ٧ .
(١٠٦) الإسراء : ٢٤ .
(١٠٧) ضيعة : ذرية ضعافاً يخشى عليهم الضياع .
(١٠٨) رواه الشيخان وأبو داوود والترمذي .
(١٠٩) رواه أبو داوود بسند حسن
(١١٠) رواه الشيخان .

(ح) مسئولية الأسرة شركة بين أفرادها ، كل بحسب طاقته ، وطبيعة فطرته ، وهى مسئولية تتجاوز دائرة الآباء والأولاد ، لتعم الأقارب وذوى الأرحام : « يا رسول الله : من أبر ؟ قال : أمك ! ثم أمك ! ثم أمك ! ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب »(١١١) .

(ط) لا يجبر الفتى أو الفتاة على الزواج ممن لا يرغب فيه : « جاءت جارية بكر الى النبى ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها النبى ﷺ »(١١٢) .

٢٠ – حقوق الزوجـة :

(أ) أن تعيش مع زوجها حيث يعيش ـ ﴿ اسكنوهن من حيث سكنتم ﴾(١١٣) .

(ب) أن ينفق عليها زوجها ـ بالمعروف طوال زواجهما ، وخلال فترة عدتها إن هو طلقها : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾(١١٤) . ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾(١١٥) ، وأن تأخذ من مطلقها نفقة من تحضنهم من أولاده منها ، بما يتناسب مع كسب أبيهم ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾(١١٦) .

(ج) تستحق الزوجة هذه النفقات أياً كان وضعها المالى وأياً كانت ثروتها الخاصة .

(د) للزوجة : أن تطلب من زوجها : إنهاء عقد الزواج ـ ودياً ـ عن طريق الخلع : ﴿ فإن خفتم ألا يقيما ـ (الزوجان) ـ حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾(١١٧) . كما أن لها أن تطلب التطليق قضائياً فى نطاق

---

(١١١) رواه أبو داوود والترمذى بسند حسن .

(١١٢) رواه أحمد وأبو داوود .

(١١٣) الطلاق : ٦ .

(١١٤) النساء : ٣٤ .

(١٢٥) الطلاق : ٦ .

(١١٦) الطلاق : ٦ .

(١١٧) البقرة : ٢٢٩ .

(١١٨) النساء : ١٢ .

أحكام الشريعة .

(هـ) للزوجة حق الميراث من زوجها ، كما ترث من أبويها ، وأولادها ، وذوى قرابتها : ﴿ ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ﴾[١١٨] .

(و) على كلا الزوجين أن يحفظ غيب صاحبه ، وألا يفشى شيئاً من أسراره ، وألا يكشف عما قد يكون به من نقص خِلقى أو خُلقى[*] ، ويتأكد هذا الحق عند الطلاق وبعده : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾[١١٩] .

٢١ – حق التربية :

(أ) التربية الصالحة حق الأولاد على الآباء ، كما أن البر وإحسان المعاملة حق الآباء على الأولاد : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾[١٢٠] .

(ب) التعليم حق للجميع . وطلب العلم واجب على الجميع ذكوراً وإناثاً على السواء : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »[١٢١] .

والتعليم حق لغير المتعلم على المتعلم : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما يشترون ﴾[١٢٢] . ليبلغ الشاهد الغائب[١٢٣] .

(ج) على المجتمع أن يوفر لكل فرد فرصة متكافئة ، ليتعلم ويستنير : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين . وإنما أنا قاسم والله – عز وجل –

(*) خِلقى أو خُلقى : الأولى بكسر الخاء والثانية بضمها .

(١١٩) البقرة : ٢٣٧ .

(١٢٠) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

(١٢١) رواه ابن ماجه .

(١٢٢) آل عمران : ١٨٧ .

(١٢٣) من خطبة حجة الوداع .

يعطى »[١٢٤] ولكل فرد أن يختار ما يلائم مواهبه وقدراته : « كل ميسر لما خلق له »[١٢٥] .

٢٢ – حق الفرد فى حماية خصوصياته :

سرائر البشر إلى خالقهم وحده : « أفلا شققت عن قلبه »[١٢٦] . وخصوصياتهم حمى ، لا يحلّ التسور عليه :﴿ ولا تجسسوا ﴾[١٢٧] .

« يامعشر من أسلم بلسانه ، ولم يفض الإيمان إلى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم ، تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله »[١٢٨] .

٢٣ – حق حرية الارتحال والإقامة :

(أ) من حق كل فرد أن تكون له حرية الحركة ، والتنقل من مكان إقامته وإليه ، وله حق الرحلة ، والهجرة من موطنه ، والعودة اليه دون ما تضييق عليه ، أو تعويق له : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[١٢٩] ، ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[١٣٠] . ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾[١٣١] .

(ب) لا يجوز إجبار شخص على ترك موطنه ، ولا إبعاده عنه — تعسفا — دون سبب شرعى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾[١٣٢] .

---

(١٢٤) رواه الشيخان .
(١٢٥) رواه الشيخان وأبو داوود والترمذى .
(١٢٦) رواه مسلم .
(١٢٧) الحجرات : ١٢ .
(١٢٨) رواه أبو داوود والترمذى واللفظ هنا له .
(١٢٩) الملك : ١٥ .
(١٣٠) الأنعام : ١١ .
(١٣١) النساء : ٩٧ .
(١٣٢) البقرة : ٢١٧ .

(ج) دار الإسلام واحدة .. وهى وطن لكل مسلم ، لا يجوز أن تقيد حركته فيها بحواجز جغرافية ، أو حدود سياسية .. وعلى كل بلد مسلم أن يستقبل من يهاجر اليه أو يدخله من المسلمين استقبال الأخ لأخيه :

﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[١٣٣] .

« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » ..

---

(١٣٣) الحشر : ٩ .

الغد

لمصطفى لطفي المنفلوطي
من كتابه: «النظرات» ج١

عرفت اني فكرت ليلة أمس فيا اكتب اليوم ، وعرفت اني آخذ الساعة بقلمي بين أناملي ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه او يكبو[1] دون غايته؟ وهل استطيع ان اتم رسالتي هذه،او يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ؟ لاني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولان المستقبل بيد الله .

عرفت اني لبست اثوابي في الصباح ، واني لا ازال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا اعلم هل اخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل ؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكاً رحيما ، وربما كان شيطاناً رجيا ، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها ، وبعثرت ذراتها ، فاصبحت كانما هي

(١) كبا : سقط على وجهه .

عدمٌ من الاعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه[١] وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، او الموت الاحمر .

لقد غمض الغد عن العقول ، ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره ، لا يدري أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر .

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه[٢] العقول ، وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من اسراره ، الا اذا جاءت الصخرة بالماء الزلال .

كاني بالغد وهو كامن في مكمنه ، رابض في مجثمه[٣] . متلفع بفضل إزاره ، ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني انه يبني للخراب ، وهذا الوالد انه يلد للموت : ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد .

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نفقاً في الارض ، وصعد في سلم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[٤] من حديد ، وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله الى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه ،

---

(١) يعب عبابه : يرتفع موجه .

(٢) تسقط الخبر : أخذه شيئاً فشيئاً .

(٣) مجثم الطائر : موضع جثومه ، أي تلبده بالأرض .

(٤) الاسباب : الحبال ، وكل ما يوصل بين الشيئين .

وعرف أغوارها وأنجادها . وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرهـا ، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة ابعاد النجوم ومسافات الاشعة. والموازين لوزن كرة الارض إجمالاً وتفصيلا . وغاص في البحار فعرف اعماقها ، وفحص تربتها وازعج سكانها ، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها ، وغلبها على لآلئها وجواهرها،ونفذ من بين الاحجار والآكام الى القرون الخالية فرأى اصحابها وعرف كيف يعيشون واين يسكنون ، ومـاذا ياكلون ويشربون ، وتسرب من منافـذ الحواس الظاهرة الى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبهـا ، والمدارك ومراكزها، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحداً .

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك ان ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى صفحة[1] واحدة من صفحات وجهك المقنع ، او لا ، فاقترب منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننـا ، فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت اكبادنا وجداً عليك .

ايها الغد ، إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً، وأماني حساناً وغير حسان، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ؛

(١) صفحة الشيء : جانبه .

أأذللتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين ؟

لا ، لا صن سرك في صدرك ، وابق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وامانينا ، حتى لا تفجعنا في ارواحنا ونفوسنا فإنما نحن احياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأماني وان كانت كاذبة .

وليست حياة المرء إلا امانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

العصبية داؤنا الموروث (*)

(١٧ مارس سنة ١٩٤١)

كنا ستة فى أحد مجالس القطار السريع الصاعد إلى القاهرة . وكانت غريبةُ الغرائب أن يجتمع فى هذا المجلس الطائر القلق ثلاثة ينقسمون إلى ثلاثة أحزاب سياسية ، وإثنان ينتمى كل منهما إلى فرقة دينية ؛ وكنت أنا وحدى المستقل فيما بينى وبين الله والناس . وكان مما ليس بُد منه أن يترامى بهم الحديث إلى ذكر ما يشغل الخواطر من شؤون الدين والسياسة والحرب ؛ فكان لكل منهم هوى لايتابعه هوى ، ورأى لايشايعه رأى ، حتى انقلب الحديث اللطيف جدلاً صخاباً لاحيلة فيه إلاالاشارة العنيفة والحنجرة الصُّلبة .

حينئذ ابتلعت لسانى ودخلت فى نفسى وتركت هذه الأفواه يقذف بعضها فى وجه بعض ، ثم أخذت أفكر فى هذه الصدَّعات التى مزقت الكلمة وفرقت الدين ، وجعلت بعضنا يبنى و بعضنا يهدم ، وأحدنا يسوق والآخر يعوق ، فلم أجد لها مصدراً تشتق منه إلا العصبية !

تصورت فى هذا المجتمع الصغير ، صورة ذلك المجتمع الكبير ، فعجبت كيف يتسنى فى هذا الجمع الشتيت أن يتفاهم لسان ولسان ، ويتآلف قلب وقلب ، وتتعاون يد ويد ، حتى يجوز أن تنتج من اتحاده قوة ، وأن تنشأ من آحاده أمة !

الفرد فى نفسه هو كل الناس ، وشيئه فى عينه هو كل شىء ، ورأيه فى عقله هو كل رأى . وذلك داء موروث من أدواء العصبية التى أفسدت كيان

(*) مقال للأستاذ أحمد حسن الزيات ، فى كتابه "وحى الرسالة" جـ٢ ط٧ سنة ١٩٧٠

العرب وأوهنت بناء الإسلام بما يلازمها من حب الاستئثار وشهوة الرياسة .

لم تمت العصبية من حياة العرب إلا فترة موقوتة بحياة الرسول . فلما استعز الله برسوله انبعثت فى (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول : منا أمير ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة ، فانقسم العرب إلى هاشمية وأموية ، ثم إلى قيسية ويمنية ، ثم إلى علوية وعباسية ، ثم إلى عربية وشعوبية ؛ وأغزاها بالدين فانشعب المسلمون إلى اثنتين وسبعين فرقة ، تتقاطع بالضلال ، وتتمادى فى الباطل ، وتزعم كل فرقة أنها هى وحدها الناجية ! ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادىء تصلح الدنيا وتعز الدين ، لكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطاً ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ؛ ولكنهم اختلفوا تعصباً للنفس أو الجنس أو الرأى ، وتوسلا لبلوغ الحكم أو خضوع الخصم أو فتون العامة .

وحب الرياسة وشهوة الحكم هما شر أدواء العصبية و بالاً وأشدها استفحالا فى الشرق القديم والحديث . ولو ذهبت تستقرى عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب فى جميع الأطوار والأقطار لما عدوت ما رُكب فى طباعنا من حب الظهور ورغبة التفرد ورذيلة الحسد .

إذا جاء الأمة خير لانصيب لى منه ولا سلطان لى عليه ، جعلته شرًّا يستعان على درئه ببدع تتسم بسمة الدين ، وخدع تتستر بستار الوطن . وإذا نهضت فى الأمة جماعة للإصلاح ولم يكن لى موضع الرياسة فيها ولا مرجع الفائدة منها ، أشعتُ حولها الريَب ، وأطرت فوقها الظنون ، حتى يستوحش من ناحيتها الناس فتفشل .

تنازع زعيمان من زعمائنا على الرياسة أو ما يشبه الرياسة ، فقسما الأمة بنزاعهما قسمين متعارضين لكل منهما آراؤه وحججه ومبرراته ؛ وكاد يدخل على الناس أن هذين الرأيين مذهبان فى سياسة البلد : أحدهما يصل والآخر يقطع ! وكان مبعث الأمر كله عصبية الرأى وشهوة الرياسة .

واجتمع أعضاء مجلس الإدارة لجمعية المعلمين فى بغداد يوم أنشئت لينتخبوا من بينهم رئيساً فلم يفز أحد من الثلاثة عشر عضواً إلا بصوت واحد ! ذلك لأن كل عضو منهم أراد أن يكون الرئيس فانتخب نفسه !

* * *

أحزابنا السياسية وجماعاتنا الدينية أسماء وأزياء لا تجد وراءها مسمى يتميز من مسمى ، ولا جسما يختلف عن جسم . وإن طالب الثقافة العامة ليستطيع أن يذكر لك فى يسر ووضوح جملة الفروق فى الوسائل والغايات بين اليسوعية والماسونية والشيوعية والنازية والفاشية ، أو بين حزب وحزب من الأحزاب البرلمانية فى جميع الدول الدستورية ؛ ولكنى أتحدى أستاذ الجامعة نفسه أن يذكر لى فرقاً أو شبه فرق بين الوفديين والسعديين والدستوريين والمستقلين والوطنيين والشعبيين والاتحاديين ؛ أو بين الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، والأخوة الإسلامية ، والهداية الإسلامية ، وشباب الإسلام ، ومجد الإسلام ، ومن لا علم لى به من هذه الجماعات . فليت شعرى ماذا يمنعهم أن يضموا الشتات ويوحدوا الكلمة ويحددوا الغاية ما داموا إخوة فى الوطن أو فى الله ؟ ولكن المصيبة هى داؤنا الموروث لا يحسمه عنا إلا طبابه الذى عالجه به الله ورسوله : محو الفروق بالحرية والشورى ، وشفاء الصدور بالأخوة

والمساواة ، ورفع النفوس بالإيثار والتضحية !

ويومئذ يحيا فينا الضمير الاجتماعي فنعمل مرءوسين ، ومجهولين ، أصدق مما كنا نعمل رؤساء ونابهين ، فنخلص للامة كما نخلص للأسرة ، ونحب لعامة الناس كما نحب لخاصة النفس ، ونخرج من حدود العصبية إلى آفاق الوطنية ؛ سالكين سبيل القانون إلى غاية الحق ، كما يسلك هذا القطار صراطه المستقيم إلى غايته المعلومة !

